

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

حب

في رحاب التاريخ والأدب

عبد الحميد ديوان



حلب

في رحاب التاريخ والأدب

عبد الحميد ديوان

حلب

في رحاب التاريخ والأدب

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٠

حلب في رحاب التاريخ والأدب / عبد الحميد ديوان . - دمشق:
الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٩. - ٢٨٨ ص؛ ٢٤ سم .

١- ٩٢٨ دي و ح ٢- ٨١١,٠٠٩ دي و ح

٣- العنوان ٤- ديوان

مكتبة الأسد

الإهداء

إلى حلب المدينة والناس

المدينة لأنها عنوان الخلود والرفعة والمجد

والناس لأنني أتمنى أن أراهم أخوة تغطيهم خصال الصفاء
والمحبة وعاداتنا العربية الأصيلة، وهم أهل لذلك.

تقديم

بقلم الدكتور الشيخ

محمود عكام

وها هي حلب تعود من جديد محكياً عنها من قبل رجل أدب وعلم هو الأستاذ عبد الحميد ديوان ، وقد عنونَ دراسته الجادة عن الشهباء بـ (حلب في رحاب التاريخ والأدب).

وما أعتقد أن حلب غادرت في يوم من الأيام هذه الرحاب ، فهي فيها قبلاً وحالاً وستبقى فيها بعداً بفضل الله ثم بسعي أبنائها البررة الأوفياء.

فله درُّك أيتها المدينة العريقة الأصيلة النبيلة ، طبتِ إذ حلَّ فيك إبراهيم عليه السلام ، وشمختِ إذ تتابع على سدتك العظام؛ فصلاح الدين على تُربك صمد ، وسيف الدولة في رحابك رصّد ، وأبو فراس ، وما أدراك ما أبو فراس ، ناجي على أفنانك وغرّد! وتتابع من بعدهم كنظام له سلك من نور ، في كل نقطة منه بريقٌ يضيء ويضاء ، يتفاعل مع الحبات اللامعة وتتفاعل معه .

ولن ينسى المؤرخون أنك -يا حلب- المدينة التي اختارها الإنسان وطناً له منذ الألف الرابع قبل الميلاد واستمر على ذلك مدفوعاً بحبها إلى يومنا هذا .

وأنت شهدت ازدهارات أدبية وعلمية واقتصادية عبر مسافة زمنية مديدة ، كما كنت في حين غير يسير نقطة تواصل فعال بين الشرق والغرب ، وكنت وما

زلت مثلاً ناصعاً لتعايش الأديان والقوميات المختلفة وتعاونها وتعاضدها ، وظلّ المجتمع الحلبي -المكوّن من هذه الفسيفساء الدينية والقومية الواسعة- أنموذجاً للمجتمع المتآلف المتسامح . فلم تشهد مدينتنا العظيمة -ولله الحمد- عبر تاريخها الطويل ما يشبه تلك الفتن والحروب الدينية والقومية التي وقعت فيها أمكنة أخرى من العالم أمس واليوم .

وربما كان بعض الذي يقف وراء هذا الذي ذكرنا حضّ الإسلام - الدين الذي يؤمن به أغلب الحلبيين - على احترام الإنسان مهما كان واحترام حرّيته والإقرار بكرامته ، ودعوة أتباعه إلى التراحم والرحمة صلة ينسجونها فيما بينهم .

وعلى كلّ فقد تكفّل مؤلفنا اللامع الديواني عبد الحميد بعرض تاريخ هذه المدينة عرضاً موثقاً ، فأتى على ما كان من عمرها قبل الإسلام ، وإبان الإسلام في عصره الأول ، وما كان من حياتها في ظل العصور المتتالية المتوالية من أموي وعباسي وحمداني وفاطمي وأيوبي ومملوكي وعثماني ، إلى أن حلت فيها كارثة الاحتلال الفرنسي ، وقد تم كل هذا العرض بأسلوب أنيق وكلم رشيق ، تشكل بذلك شطر الكتاب .

أما الشطر الثاني فقد جعله كاتبنا للأدب ورجالاته ، فحلب كما يسميها عارفوها (أم العلم والأدب) ، فهي لهما مكنن ومنجم ، ومن سعى للتعرف عليه فسيرى بغية الطلب في حلب ، وسيلقى رجالاً ونساءً جسّدوها بجدارة ، وقد ترجم المؤلف لثلة طيبة منهم دون تفريق في الانتقاء بين مسلم أو غير مسلم ، أو بين رجل وامرأة ، بل كان معيار الانتقاء هنا -لهذا أو ذاك- علماً تحلى به أو تحلت به ، وأدباً ارتدى ثوبه أو ارتدت رداءه .

والمهم في نهاية المطاف أن الكتاب جاء ردّ بعض الوفاء لمدينة حلب من أحد

أبنائها البارزين الجادّين . فالشكر الجزيل له والثناء الحسن على عمله ، وبوركت
جهوده .

وتعال معي أيها الفاضل الباحث لنردد قول من قال:

بلادُ ألفناها على كلِّ حالةٍ

وقد يُؤلفُ الشيءُ الذي ليس بالحسنِ

وتستعذبُ الأرضُ التي لا هوى بها

ولا مأوها عذبٌ ولكنها وطنٌ

فما بالك إذن ووطننا (حلب) حسنٌ رسمُه! وعليلٌ هواؤه! وعذبةٌ مياهه!

إن الفضائل في الرحاب تراحمت

والخير في شتى المناحي وفي

الدكتور الشيخ

محمود عكام

حلب ١٢/١/١٤٢٧

مقدمة

حلب . . شلال الحب المتدفق في شراييني ، ونغمة الصدى الجميل يتردد في أعماقي . إنها قارورة العطر التي ينتشي بأريجها كل من يزورها .

حلب . . درّة بلاد الشام ، وأيقونة الدنيا . ولدت منذ أول الدهر ولا زالت عروساً ، أما الدهر فشاخ وكبر وكاد ينقضي أجله .

ما اسمك أيتها المدينة الشامخة أبداً في جبين الدهر . . أنت حلب . . أم حلبا . . أم أرمانوس . . أم حلبو . . أم باروا أم بيروا كما كان يطلق عليك السلوقيون .

كل هذه الأسماء تحملينها ، وكذلك الشهباء التي تبقى لؤلؤة بيضاء في عيون الزمن .

وعندما أرحل في أجواء الزمن ، وأسافر على أجنحة الخيال يملكني زهو العاشق وخشوع المتيم .

حلب . . عروستي الجميلة ، أنت شامة على خد الزمن ، منك خرج المجد منتصراً ، وفيك نبت فرسان البطولة يزهون بك على كل المدن .

حلب . . أو كما يقول «الأسدي» حلي أنا . . أنت المعشوقة التي لا تفارق خيالي أبداً ، فأنت تسكنين ذاكرتي وقلبي في حلي وترحالي ، في بعدي

وقربي ، ولذلك آثرت أن أكتبُ عنك في كتاب مجدك وخلودك ، حتى ولو
كان ما أكتبه لا يتجاوز أسطراً عديدة في ذلك الشعر الخالد .

لقد بسطت في هذا الكتاب تاريخ حلب منذ العصور الأولى للزمن ،
وكان استعراضي له موجزاً ، لأن الغرض ليس التاريخ العام ، فهناك من قام من
المؤرخين الأجلاء الكبار بتسجيل تاريخ المدينة بالتفصيل ، ولكني كنت أرمي
إلى ربط تاريخ المدينة العظيم بتاريخها الأدبي المشرق .

ولقد مر على مدينتنا حلب كبار العظماء من الأدباء ، شعراء وفلاسفة
وكتاباً ، فالمتنبي وأبو فراس الحمداني ، والصنوبري ، وقبلهم البحتري ثم
الكندي والفارابي وكشاجم وابن خالوية وغيرهم كثير ، جميعهم نهلوا من ماء
مدينتنا العظيمة وتفيؤوا ظلالها وتغنوا بجمالها .

ولقد حاولت أن أسجل تاريخ الأدب في حلب عبر العصور بدءاً من أيام
سيف الدولة الأمير العظيم إلى يومنا هذا ، وأرخت لشخصيات أدبية كانت
أعلاماً في عصرها ، إلا أن كثرة تلك الشخصيات الأدبية حالت دون أن أتمكن
من تسجيلها جميعاً فاخترت عدداً منها وجدتُ أنها تركت أثراً أكثر من غيرها
في محيطها الأدبي وفي ساحة الأدب ، أما من لم أذكرهم فهم أيضاً لهم مكانتهم
التي نحفظها لهم والتي نتمنى أن نتمكن في دراسة أخرى أن نذكرهم جميعاً .

وختاماً . . هذا كتابنا بين أيديكم فأرجو أن ينال إعجابكم واستحسانكم .
فإن فعل بالشكر لله وحده لأنه ألهمني الصواب فيما فعلت ، والشكر له أيضاً لأنه
أنعم علي بزينة العقل والفهم . وإن لم يصل إلى درجة الاستحسان فهذا ذنبي ،
وأكتفي بالقول إنه جهد اجتهدناه والحمد لله على كل حال .

عبد الحميد ديوان

تمهيد

حلب في رحاب التاريخ

حلب - قبل الإسلام:

عروس الشمال السوري كما يطلق عليها ولؤلؤة المدن العربية . فيها سكن الإنسان الأول منذ العصور الحجرية وبقيت حيةً شامخة فتية رغم تداول الأيام عليها ورغم أن الزمن قد شاخ بين يديها ولم تشخ هي .

أما تسميتها فقد عرفت باسم (حلب) منذ أقدم العصور ولكن هذا الاسم حُرِف في بعض الأحيان نتيجة لوجود أم حكمت هذه المدينة فأطلقت عليها أسماء تناسب لغتها . فسماها السومريون والأموريين (حلائب) ويعني في اللغة الأمورية القديمة الحديد والصلب أو النحاس (كما ذكر الأستاذ صبحي صواف في كتاب تاريخ حلب) . ويبدو أنهم سمّوها كذلك لأنها كانت مركزاً هاماً للنحاس الذي كان يأتيها من الأناضول .

أما الحثيون والميتانيون فقد دعوها (حلبا أو حلباس) .

ودعاها الآشوريون اسم (حلبو - وحلوان) وهي قرية من كلمة (أرمان) التي دعاها بها قديماً الآكاديون ، وتشير هذه الكلمة في معناها إلى الكرامة التي اشتهرت بها حلب والمناطق المحيطة بها .

وكان نبذ (حاليون) معروفاً في العصور القديمة .

ويذكر الشيخ كامل الغزي أن حلب أطلق عليها اسم (بيروا أو باروا) من قبل المقدونيين عندما استولوا على بلاد سوريا وذلك اقتداءً باسم إحدى المدن اليونانية، ولكن هذا الاسم لم يصمد طويلاً فسرعان ما عاد الاسم الأصلي (حلب) إلى الواجهة بعد زوال الحكم اليوناني عن صدر بلاد الشام.

وقد وصفت حلب (بالشهباء) وقد نسب هذا الوصف إلى أمور عديدة منها أسطورة تقول إن سبب إطلاق صفة الشهباء عليها أن أبا الأنبياء (إبراهيم الخليل) عليه السلام أقام في حلب مدة من الزمن وكان يملك قطيعاً من البقر وفيه بقرة غريبة تلفت النظر بخوارها وبلونها المرقش وكان يحلبها كل مساء وكان أهل حلب ينتظرونه ويخبرون بعضهم بأن إبراهيم قد (حلب الشهباء). ونحن نظن بأن هذه الأسطورة لا مكان لها من الصحة ولكننا لا ننكر أن يكون إبراهيم الخليل قد مرّ بحلب وأقام فيها مدة يسيرة من الزمن. ولكن قصة البقرة الشهباء هي التي لم يثبت صحتها ولا نرجح حصولها أصلاً.

أما المقولة الثانية فقد ذكر بعضهم أن صفة الشهباء أطلقت عليها لأن أرضها ولون البناء (أبيض) وأشهب فجاءت الصفة نسبة إلى لون الأرض والبناء (انظر كتاب حلب الجانب اللغوي من الكلمة للعلامة خير الدين الأسدي). ونظن أن هذه المقولة أقرب للحقيقة. ولعل مظهر المدينة الأبيض، واللون الرمادي اللامع الذي يبدو من بعيد يجعل من هذه التسمية أقرب انطباقاً إلى الواقع.

ومنهم من يقول إن العرب قد عربوا كلمة (حلبا) السريانية والتي تعني (البيضاء) فقالوا حلب ونعتوها بمعناها فقالوا: حلب الشهباء وجرت الالسنه على ذلك.

وفي العودة إلى تاريخ هذه المدينة العظيمة فإننا نجد أن حلب كانت مسكونة منذ أقدم العصور (كما ذكرنا) ففي العصور الحجرية التي سبقت التاريخ كان سكان حلب يسكنون مغاور كثيرة وطبيعية يوجد معظمها الآن في منطقة تسمى

منطقة (المغاير) قرب حيّ الكلاسة جنوب المدينة، وفي هذه المغاور غرف أشبه بالغرف البدائية ولها مداخل ضيقة يمكن إغلاقها بسهولة ويظن أن هذه المغاور كان السكن الأول لأبناء المدينة.

وقد هجرت هذه المغاور بعد التطور السكني الذي حصل للمدينة فسكن أبناءها المرتفعات أمثال (قلعة الشريف والبياضة وكذلك مرتفع القلعة الذي تحول بعد ذلك إلى قلعة حلب).

ثم امتدت المساكن من المغاور إلى منطقة قرية هي حي الكلاسة وكذلك تلة السوداء التي هي إلى جوار حي الكلاسة، وقد عُثر على رقيم مسماري في مدينة ماري يتحدث عن معبود هام هو (حَدَد) في منطقة (كلاسو) في حلب، وما نظن (كلاسو) إلا حي الكلاسة نفسه.

وإذا ما انتقلنا إلى العصر الآكادي^(١) فإننا نجد أن أول ذكر لمدينة حلب كان في عهد (ريموش) عام ٢٥٣٠ ق. م وهو ابن سارغون الآكادي مؤسس أول امبراطورية سامية في الشرق، عندما استولى على حلب وأسر ملكها (لوكال أو شرمكال).

وبعد مدة استردت حلب حريتها ولكن نارام سين ابن ريموش زحف إلى الأناضول واستولى على الساحل السوري عام (٢٠٧٥) وزحف على حلب فتصدت له المدينة وقاتلته بقيادة ملكها (ريدعدد) ولكن نارام سين هزمه واستولى على حلب وأطلق عليها اسم (أرمان)، وقد وجد رقيم يذكر (أرمان) وإبلا بالتتابع ويسميهما حلباً وإبلاً، ولا شك في أن أرمان المتقاربة في اللفظ من حلوان كما سماها الآشوريون بعدئذ هي حلب الحالية.

وقد ظل حكم الآكاديين وخلفائهم من سلالة أور (الكلدانية) في حلب حتى الألف الثالثة ق. م حيث نرى ملوك هذه السلالة يبنون مدينة (درماتي) وحصنها التي

(١) حلب عبر العصور، جورج ربرتو.

سماها الآشوريون (تورهمت) والحثيون (تورميتا) واليونانيون (تورميدا) وهي قريبة من حلب .

أما في العصور (الأموري) فإننا نجد أن مملكة عظيمة قد تأسست في حلب هي مملكة (يمحاض) ، فبعد هذه الحقبة تسلم عرش حلب سلالة أمورية استطاعت أن تسيطر على منطقة الهلال الخصيب فأسسوا مملكة (ماري) في (تل الحريري) قرب البوكمال حالياً وكذلك مملكة (آشور) ومملكة (بابل) ومملكة قطنة (قرب حمص) ومملكة كركميش (جرابلس) بالإضافة إلى مملكة يمحاض في (حلب) .

وقد كانت مملكة يمحاض من أقوى الممالك المنتشرة في الهلال الخصيب وبدلنا على ذلك ما ذكره أحد سفراء ملك ماري إلى سيده يعلمه عن اجتماع عقد في معبد عشتار يقول في رسالته: أن هناك / ١٥ / ملكاً يتبعون حمورابي البابلي ومثله من الملوك يتبع (ريم سين) ملك رسا وكذلك ملك اشنونة بينما يتبع ملك يمحاض (ياريم ليم) عشرون ملكاً .

وعندما نشب نزاع بين ملك حلب وملك قطنة تدخل حمورابي البابلي وزمري ليم ملك ماري لإصلاح الأمور بينهما فقبل ملك حلب بالصلح ، ولكنه فرض إرادته على ملك قطنة وطلب إليه الحضور إلى حلب ليعقد معه صلحاً وكذلك يرسل / ٢٠ / عشرين ألف جندياً لمساعدة حمورابي البابلي دون مقابل ، ويبدو أن قوة حلب في تلك الفترة بلغت أوجها فكان جميع الملوك حولها يخشون بأسها ويخضعون لها .

ولكن علاقة مملكة (يمحاض - حلب) بجيرانها كانت حسنة فكان ملك يمحاض يساعد الممالك التي تحتاج لمساعدته من أمثال ملك أوغاريت وغيره .

ومع ذلك فقد كان للملوك حلب طموح للاستيلاء على بعض أجزاء الممالك المجاورة لها ، فقد كانت تطمح إلى أن تمتد نفوذها على بعض أجزاء الساحل لأنها لا تملك منفذاً على البحر المتوسط ، وهذا ما دفعها إلى بسط سيطرتها على مملكة الموكيش وعاصمتها (الالاخ) حتى يكون لها منفذ على الساحل السوري .

وقد كان العصر الأموري هو العصر الذهبي لمملكة يمحاض الحلبية . وقد عمل ملوك الدول الشرقية على استرضاء ملوك حلب في مناسبات كثيرة ، كما فعل حمورابي ملك بابل عندما ساعد (ياريم ليم) ملك حلب فأخذ يفاخر بصداقته له ويكرم رسله إكراماً عظيماً .

وكانت الصلات بين ملوك ماري وحلب قد اشتدت أواصرها ، وكثرت بينهم الهدايا وخاصة من ملوك ماري لعلمهم بأن ملوك حلب هم الأقوى والأعظم .

وفي العهد الحثي: تعرضت مملكة يمحاض لأخطار الأطماع الحثية فقد بدأت المملكة الحثية في بداية الألف الثاني ق . م مملكة صغيرة ثم قويت شوكتها على يد ملوكها برصاما وبرناش وراحت تتوسع وتقوى على حساب البلاد المجاورة لها . وفي عهد (حاتوسيل الأول) حاول أن يسيطر على مملكة حلب ولكنه مني بهزيمة نكراء وجرح في المعركة ومات على إثرها .

ولكن ابنه (مورسيل الأول) أعاد الزحف إلى حلب بعد أن نظم جيوشه الجرارة وسار بها يريد حلب ، وما لبث أن استولى عليها فكان انتصاره قاسياً وشديداً لأنه راح ينتقم لدم أبيه وهدم المدينة ودمرها ونهب أموالها وسبى أهلها وتابع زحفه إلى بابل فاستولى عليها وسبها وحرقها . ولم يحتفظ مورسيل الأول حين عودته إلى بلاده إلا بما كانت عليه مملكة يمحاض وعاصمتها وذلك خوفاً من أن تستعيد حلب قوتها وعظمتها وتنتقم منه .

وبقيت حلب تحت نير الحكم الحثي حتى أواخر القرن السادس عشر ق . م حيث ظهرت قوة جديدة في الشرق هي الدولة الميتانية .

حلب تحت سلطة الميتانيين:

سيطر الشعب الميتاني على منطقة الشرق كلها واكتسحوا منطقة الهلال

الخصيب كالسيل الجارف ، وكذلك دخلوا إلى مصر واستولوا عليها ، وقد سماهم الإغريق باسم (الهكسوس) أي الملوك الرعاة ، وكتب آخر ملوك الحثيين أن حلب كانت من حصّة الميتانيين منذ زمن طويل .

وفي سنة ١٥٨٠ ق.م تمكن فراعنة طيبة من إنقاذ مصر وطاردوا الهكسوس وردوهم إلى بلادهم (ما بين النهرين) ولحق بهم تحوتمس الأول إلى مدينة (كر كمش) جرابلس .

وفي سنة ١٤٧٣ ق.م عاود القتال بين المصريين والميتانيين وتمكن تحوتمس الثالث من دحر جيش الميتانيين والكنعانيين الذين ساعدوهم في مدينة مجدو في فلسطين وطاردهم إلى مدينة كركميش وتابع سيره إلى حلب فدخلها منتصراً واستمر في سيره إلى بلاد الأناضول ، ولكنه تراجع سريعاً لأنه رأى أنه لن يستطيع الاحتفاظ بهذه البلاد البعيدة عن مصر ، فعقد صلحاً بينه وبين الميتانيين لمواجهة الخطر الحثي القادم .

حلب تحت سيطرة الحثيين مرة ثانية:

وها هي شوكة الحثيين تقوى مرة أخرى بعد أن تسلم عرش الملك (تود أليجه) الثاني ، الذي جهز جيشاً قوياً واتجه نحو حلب ففتحها واستردها من الميتانيين بعد أن خرب جزءاً كبيراً منها .

إلا أن حلب استطاعت أن تطرد الحثيين وتستعيد حريتها ، ولكن خليفة تود أليجه الثاني (حاتوسيل الثاني) زحف إليها يريد استعادتها واستطاع أن يهزم كل الجيوش التي تحالفت ضده من الميتانيين ومملكة كركميش ومملكة النحاسية وتدمر . وبعد ذلك تصرف هذا الملك بحكمة فأبقى الملوك المهزومين في مناصبهم بعد أن حلفوا جميعاً بيمين الطاعة والولاء بين يديه .

إلا أن الاضطراب سرعان ما أصاب المملكة الحثية بعد وفاة (حاتوسيل الثاني) فثارت البلاد الخاضعة لهم وتخلصت من احتلالهم ، وكذلك ثارت حلب عليهم وطردهم من ديارها .

ومرة أخرى ينتفض الحثيون ويعيدون بناء دولتهم على يد (سبي لوليوما) الذي بطش بأعدائه واسترجع عاصمته التي استولى عليها شعب الأناضول ورمم ما خرب منها .

وبعد أن اعتلى العرش أعاد بناء دولته وجيشه وأخضع الميتانيين له ثم زحف على شمال سورية وهزم جيوشها واحتل حلب وبتطش بأعدائه واستمر في سيره حتى قطنة فأحرقها وسبي أهلها واستولى على قادش ، ثم عقد بعد ذلك معاهدة صداقة بينه وبين ملك حلب وقادش لم تستمر طويلاً لأنه لم يطمئن لهما فخلعهما عن العرش ونصب ابنه (تليسينو) على حلب ونصب على كر كميث ابنه (بيزاجلي) .

وفي عهد (موتلي) نشبت أول معركة بين المصريين والحثيين انتصر فيها المصريون الذين أخذوا قادش . إلا أن الحثيين سرعان ما استعادوا قادش مرة أخرى .

ولكن الملك الفرعون رعمسيس الثاني زحف إلى شمال سورية بقوات كبيرة ونشبت معركة حامية بينه وبين الجيش الحثي والقوات الخاضعة له انتصر فيها رعمسيس الثاني ، وبعد المعركة عقد معاهدة بين الحثيين والمصريين وتزوج الفرعون رعمسيس الثاني إحدى بنات ملك الحثيين (حاتوسيل الثالث) وتوطدت بينهما أواصر الصداقة .

ولكن الأمور لم تستقر في المنطقة مدة طويلة ، إذ سرعان ما ظهر عدو جديد للحثيين في المنطقة هم الآشوريون الذين ناصبوا الحثيين العداء وقضوا عليهم سنة ١٢٠٠ ق . م واحتلوا كل البلاد التي كانت تحت أيديهم .

بعد اضمحلال الإمبراطورية الحثية الأناضولية بضربات شعوب البحر؟! (الآشوريين) انقسم الشرق إلى دويلات وممالك صغيرة كمملكة كر كيمش ومملكة ملاطية في الأناضول ومملكة حماة ومملكة حلب ، إلا أن الطابع الكبير لهذه الدويلات هو الآرامي ، لأن الآراميين استوطنوا في الشرق منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد واشتدت شوكتهم رويداً رويداً وسيطروا على الممالك الصغيرة في المنطقة .

وكان أول من تحرش بهم من ملوك آشور هو (تفلاط فلصر الأول) في القرن الحادي عشر قبل الميلاد وأرغم مملكة ملاطية والموشكي على تأدية الجزية . وعندما تبوأ آشور بانيبال الثاني العرش اشتبك مع الآراميين وهزمهم ثم زحف على كر كيمش فاحتلها بدون مقاومة وقبل ملك كر كيمش أن يؤدي له الجزية ، وتابع بعد ذلك انتصاراته حتى وصل إلى أوغاريت على الساحل السوري .

وفي عهد سلمنصر الثالث تصدى لجيوش الملوك السوريين المتحدين وقاوموه طويلاً ولكنهم أخيراً استسلموا له الواحد تلو الآخر .

وفي سنة ٨٥٣ ق . م فتح سلمنصر الثالث حلب دون مقاومة ، ففرح الملك الآشوري بهذا النصر السهل وقدم قرباناً لإله المدينة (حدد) .

وتابع زحفه إلى دمشق التي خضعت له ودفعت الجزية ، ثم زحف على كر كيمش وأخضعها ودفعت له الجزية .

وفي ذلك الوقت بدأ تظهر قوة جديدة في الشرق هي (مملكة الأوراتو) الكائنة عند بحيرة (وان) في منطقة أرمينيا الحالية التي راحت تخضع الممالك الخاضعة للآشوريين مثل (كر كيمش ، وملاطية ، وحلب) وضمها إلى مملكتها ، غير أن (تفلاط فلصر الثالث) الملك الآشوري هاجمهم سنة ٧٤٣ ق . م وهزمهم واسترد حلب وجميع البلدان في شمال سورية .

وبقيت حلب تحت سلطة الآشوريين حتى انهارت تلك الدولة تحت ضربات البابليين وخربت نينوى عاصمتهم عام ٦١٢ ق.م وأخذ القتال يشتد بين مصر وبابل للاستيلاء على سورية فتغلبت بابل على مصر في معركة قرب الفرات وأصبحت سورية بكاملها في قبضة البابليين مدة قرن من الزمان ، ثم فتحها الفرس بقيادة (قورش) وانضمت حلب إلى سلطته .

واشتد التنافس على سورية بين الفرس والإغريق سنوات طويلة حتى القرن الرابع ق.م فانهزم الفرس أمام المقدونيين بقيادة الإسكندر الأكبر في معركة (ايسوس) واستولى الإسكندر على البلاد السورية عام ٣٣٣ ق.م .

حلب في العهد السلوقي:

بعد وفاة الإسكندر المقدوني اقتسم قواده إمبراطوريته الكبرى ، وكانت سورية من حصة (لاوميدون) الذي كان يتكلم الآرامية (وهي لغة السوريين في ذلك الوقت) . ثم استولى (انتيجون) على الشرق إلا أنه كان في حرب مستمرة مع (سلوقس نيكاتور) الذي كان يحتل بابل الذي استطاع ان يهزم انتيجون في معركة ايسوس عام ٣٠١ ق.م وبذلك استطاع سلوقس نيكاتور أن يحكم سورية وبلاد الشرق حكماً مطلقاً وكان المؤسس للسلالة السلوقية بعد ذلك .

أما حلب فقد خبا شأنها في هذه الفترة ولم يبق لها ذكر سوى أنها كانت مركز الإله (حدد) الكبير حيث كان فيها معبده . ولكن منطقتها الجميلة ومركزها الذي يقع في ملتقى الطرق واسمها الذي ملأ أسماع الدنيا في ذلك الوقت جعلها مطمعا للسكن ، فأتى سلوقس بسكان من بيروه المدينة المكدونية ، مسقط رأس الإسكندر ووالده (فيليب) المقدوني وأسكنهم حلب ، وبذلك أصبحت حلب مستعمرة مكدونية وأطلق عليها اسم (بيروه) تخليداً للمدينة الأصلية التي أتى منها سكانها الجدد ، وفي هذه الفترة توسعت عمرانياً وبنيت مساكنها على الطراز الهلنستي على شكل رقع الشطرنج .

أما سكانها الأصليون (الساميون) فقد ظلوا يسمونها باسمها القديم (حلب) فأصبح لها اسمان (رسمي هو بيروه) وشعبي باسم حلب وهو الاسم الذي تغلب فيما بعد على اسمها الجديد ، وخاصة بعد الفتح العربي لها .

وقد استعادت حلب أهميتها السياسية والتجارية والاقتصادية أيام السلوقيين ، فقد كان حكامها أصحاب سطوة ونفوذ ومن بينهم (هيراكليون) وأولاده ستراتون وديونيسوس الذين استقلوا في المدينة وكان لهم رأي نافذ في البلاط .

وأصبحت حلب مدينة تجارية هامة في عهدهم ، فسكنها كثير من الغرباء وكان دافعهم الربح ، وكان تواجد اليهود في المدينة قليلاً .

وبعد هذه الفترة كثرت المنازعات بين السلوقيين أنفسهم مما أدى إلى تدهور دولتهم حتى كادت تضمحل وتنتهي في الشرق لولا أن أنطيوخوس الثالث كان قد اعتلى العرش فاستعاد سيطرته على الشرق وبنى أسطولاً كبيراً وانتصر على المصريين والفرس عام ٢٢٢ ق . م ، واستضاف في بلاطه قائد قرطاجة الشهير (هانيبال) واستطاع أنطيوخوس الثالث أن يقف في وجه الأطماع الرومانية ويهدد توسعها .

ولكن الرومان رأوا فيه خطراً يهددهم فاستغلوا فرصة وجود (هانيبال) عنده وطلبوا تسليمه لهم ، فرفض ، وجهزوا جيشاً كبيراً يقوده القائد الروماني الشهير سيبون وجرت معركة كبيرة استطاع القائد الروماني هزيمة (أنطيوخوس) وفرض الجزية عليه .

وبعد موت أنطيوخوس اعتلى عرش السلوقيين أنطيوخوس الرابع فنظم جيشاً وبنى أسطولاً وهاجم مصر براً وبحراً وهزم الجيش المصري وأسر بطليموس فيلو موتر ملك مصر ، فتدخل الرومان لمساعدة البطالسة وأجبروا السلوقيين على التراجع عن مصر .

وفي السنين الأخيرة من حكم السلوقيين كثر الفساد والحروب الأهلية بينهم وكثرت الانقسامات حتى أنه عندما هاجم ديكران الكبير (ملك أرمينيا) عام ٨٣ ق . م البلاد السورية لم يجد مقاومة تذكر فاحتل حلب بسهولة واستقبله السوريون بفرح . ولكن ديكران لم يستقر في حلب لأن الرومان هاجموا في أرمينيا فاضطر إلى الانسحاب من سورية عام (٦٩ ق . م) .

ونتيجة لضعف الدولة السلوقية وانقساماتها وكثرة الخلافات بين أمرائها وجدت الدولة الرومانية الفرصة سانحة فتدخلت في سورية واحتل القائد الروماني بومبى سنة ٦٤ ق . م البلاد بسهولة وقضى على حكم السلالة السلوقية .

حلب في عهد الدولة الرومانية:

لم تكن السنوات الأولى من حكم الرومان سهلة ، بل على العكس ، عانى السوريون من حكم الرومان وجشع قوادهم كثيراً ، فقد قام معظم قادتهم وحكامهم بالنهب والسلب للشعب ، ومنهم على سبيل المثال القائد كرسوس الذي تحول إلى تاجر ولكن بغير شرف ، فقد راح يحصي المنهوبات من البلاد ومن المعابد ، وكان يشرف بنفسه على وزن الكنوز والأموال المنهوبة ويضمها إلى ممتلكاته الخاصة . وكان يجند عدداً كبيراً من السكان ثم يعفيهم لقاء مبلغ من المال يتقاضاه لنفسه . ولذلك عانى منه سكان حلب وسورية الشمالية كثيراً .

وكانت سورية في أيام الرومان مقسمة إلى ثلاث مناطق إدارية هي منطقة (السيروستيك) نسبة إلى مدينة سيرهوس عاصمة المنطقة الوسطى ، و(افراتيزيا) نسبة إلى الفرات ، و(خالسييتيك) نسبة إلى نهر الخاليس (قويق) ومدينة خالسييس اديلوم (قنسرين) عاصمة المنطقة ، وكانت حلب هي إحدى أهم مدن هذه المنطقة .

وفي أيام الحكم الروماني وبعد فترة الفتح الأولى ازدهرت البلاد ازدهاراً

رائعاً في الفترة التي سميت بالسلم الروماني . وتوسعت المدن في هذه الفترة وتضخمت تجارتها ومن هذه المدن أنطاكية وهي عاصمة سورية في ظل الحكم الروماني ، وأفاميا وكذلك لاوديسيا (اللاذقية) وسلوقيا دي ييري (السويدية) وهيرابوليس (منبج) المدينة المقدسة التي كانت تضم بين جدرانها أكبر معبد في الشرق للآلهة أثار كاتيس ربة الحب السورية ، وبيروة (حلب) مدينة زوس وأثار كاتيس .

وفي سنة ٣٣٠ م جرى الانفصال السياسي بين بيزنطة وروما وأصبحت الدولة الرومانية دولتين ، دولة شرقية معروفة باسم الدولة البيزنطية نسبة إلى عاصمتها بيزانس (القسطنطينية ، استانبول) ، والدولة الرومانية وعاصمتها (روما) وكانت تسيطر على دول أوروبا .

وفي ظل العهد البيزنطي سيطرت الديانة المسيحية وأصبحت ديانة الدولة .

وفي حلب توسعت الديانة المسيحية فيها وأصبحت أبرشية كبيرة واحتل كثير من أبنائها مناصب دينية كبيرة ، فمطران حلب ايستاش مثلاً احتل الكرسي البطريكي الأنطاكي سنة ٣٢٥ م وغيره من أبناء حلب كانت لهم مناصب دينية رفيعة في ظل الحكم البيزنطي .

وعندما تقلد الإمبراطور جوليانوس الجاحد سنة ٣٦١ م الحكم أخذ يحارب الديانة الجديدة وعمل جاهداً لإعادة الديانة الوثنية إلى الإمبراطورية فخرّب الكنائس في أنطاكية واضطهد المسيحيين وشيد المعابد الوثنية ، ولكن جهوده لم تنجح في أنطاكية فتركها واتجه إلى بيروه (حلب) ولما وصل إلى حلب (وكان يقود جيشه لمحاربة الفرس) رأى أن مستقبله أعضاء المجلس البلدي في حلب من المسيحيين فغضب وخطب فيهم مندداً بالديانة المسيحية وطلب إليهم العودة إلى الوثنية فلم يلق استجابة من أحد منهم فغضب من أبناء حلب وغادر

المدينة مستاءً منها وتابع سيره إلى الفرس وقاتلهم وتغلب عليهم وقفل عائداً إلى عاصمته كتيسفون ولكنه أصيب بسهم مميت قبل دخوله إليها .

ومع هذا فقد حافظت الدولة البيزنطية على ازدهار رائع وخاصة في سوريا الشمالية فتركت فيها الأبنية الجميلة والمنشآت العظيمة ، بل لقد تركت مدناً بأكملها مبنية على الطريقة البيزنطية وبقيت آثارها تحاكي الزمن .

وفي بداية القرن السادس الميلادي بدأ الغزو الساساني الكبير المتتابع يجتاح البلاد ، وكانت سابقاً تجري غزوات عديدة على نطاق ضيق ، ولكن في هذا القرن حدث الغزو الأكبر عام ٥٢٦ م عندما غزا كسرى أنوشروان سورية الشمالية وكانت حلب في هذه الفترة تتمتع بمركز فكري مرموق ، ولما شعر سكانها بضعف البيزنطيين وعجزهم عن صد الغزاة أرسلوا إلى كسرى قبل وصوله إلى حلب وفداً برئاسة مطران حلب ميكاس فقصد كسرى والتقى به بالقرب من مسكنه . وكان كسرى قد دخل (مسكنة) وشرع يخرّب ويدمر ويسبي ، ولكثرة ما حلّ بالمدينة توسل ميكاس والوفد الحلبي إلى كسرى ورجوه أن يعفو عن مدينتهم ويقدموا له الجزية ، ولكن كسرى رفض لأنه كان يعلم أن حلب تحوي كنوزاً كثيرة . وزحف كسرى بجيوشه بعد فتح منبج إلى حلب فوصلها سريعاً وفتحها بسهولة عدا القلعة التي كانت منيعة ، وكانت نتيجة هذا الفتح خراب المدينة ودمارها ، ونهب كسرى وجيشه المدينة بشكل وحشي .

ولكن حلب عادت مرة أخرى إلى الحكم البيزنطي بفضل الإمبراطور جستنيانوس الكبير عام ٥٢٧ وأعيد ترميم حلب ، وعقد كسرى وجستنيانوس معاهدة نجت فيه حلب من الدمار مرة ثانية .

ولكن كسرى الثاني عاد مرة أخرى إلى سورية وفتح البلاد وعاث فيها فساداً ونهباً واستولى على بيت المقدس ودمروا خشب الصليب عام ٦١٤ م .

ولكن الإمبراطور البيزنطي هيراكليوس تمكن من دحر الفرس في عدة مواقع وطردهم من البلاد السورية.

وفي سنة ٦٣٠ م أرسل الفرس وفداً حافلاً يضم كبار رجال المسيحية الفارسية لعقد صلح بين الفرس والروم وكان الصلح في حلب، حيث كان الإمبراطور هيراكليوس يقيم في حلب.

حلب في ظل الحكم الإسلامي:

لم تفتح حلب في العهد الإسلامي إلا في أيام خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد فتحها أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد.

ولفتح حلب حكاية عجيبة، فقد كانت حلب إحدى آخر قلاع المقاومة البيزنطية وكان هذا المكان الهام آنذاك تحت سيطرة رجلين من أبناء أحد أصدقاء هرقل وهما يوقنا ويوحنا. وكانت المدينة بالغة الثراء تملك متاجر عديدة وتملك بالإضافة إلى ذلك قصرًا محصنًا وأبواباً منيعة.

وكان لدى هذه المدينة جيش قوامه إثنا عشر ألفاً من خيرة الجنود يقودهم يوقنا الفارس الشجاع، أما يوحنا فكان رقيقاً متديناً، وكان الأخوان يصطدمان دائماً، فيوقنا متهور لا يستمع إلى نصائح أخيه، أما يوحنا فعاقل حكيم، ولما سمع يوحنا أن أبا عبيدة يقصد حلب بعد أن فتح حمص وحماة وقنسرين ذهب إلى أخيه ليرى ماذا يريد أن يفعل، ولما سألته كان جوابه أنه يريد قتال العرب، وراح يجمع جنوده واندفع للقاء طليعة جيش أبي عبيدة التي يقودها كعب بن ضمرة والتقوا على بعد ستة أميال من حلب، ووقع القتال، إلا أنه توقف فجأة لأن يوقنا تناهى إلى سمعه أن وفداً من المدينة ذهب إلى القائد العربي المسلم أبي عبيدة ليفاوضه على الصلح فقطع القتال مع طليعة جيش المسلمين وكان قتل منهم أكثر من مئتي رجل وعاد إلى حلب، ويقابل أخاه يوحنا ليقنعه أن يلغي

المعاهدة التي أبرمها هو ورجال المدينة مع المسلمين . ويحاول يوحنا إقناع أخيه بصواب عمله وباستحالة نقض المعاهدة لأن الحث باليمين معيب ، فيزداد يوقنا ثورة وتصل المناقشة بسرعة إلى درجة من الغضب يصعب تملكها فيقطع يوقنا رأس أخيه في قمة ثورته ونتيجة لهذه الجريمة التي تذكرنا بالجريمة الأولى للبشرية عندما قتل قابيل أخاه هابيل جُنَّ جنون يوقنا فيغرق كل شيء في حمام من الدم وراح يحرق المنازل ويقتل الرجال والأطفال والنساء فأصيب السكان برعب شديد ، ولكن الجيش العربي بقيادة أبي عبيدة كان قد وصل إلى حلب واحتلها ، ولكن القلعة استعصت عليهم لأنها كانت عالية ومنيعة ، وكان يوقنا متحصناً بالقلعة ، فحاصر الجيش العربي القلعة خلال خمسة أشهر ، وكانت قاعات القلعة تحتوي على كمية كبيرة من القوات والصهاريج على حجم من الماء يجعل سكان القلعة غير قلقين من نفاد القوات والماء .

وكانت المناوشات بين الجانبين تكثر وخاصة في الليالي المظلمة ، وكان المحاصرون ينقضون على المعسكر العربي النائم فيذبحون ويأسرون ويقتلون الأسرى في اليوم التالي أمام أعين الجيش العربي ، ولكن خالد يرد عليهم سريعاً فيأسر ثلاثمائة جندي من جيش يوقنا ويقطع رؤوسهم أمام أعين يوقنا وجيشه في اليوم التالي .

وبقي الحصار مضروباً إلى أن ظهر من بين الدفعات الجديدة التي أرسلها الخليفة عمر بن الخطاب لنجدة الجيش العربي المسلم رجل يقال له دامس ، وهو أسود اللون ذو قامة هائلة وجرأة كبيرة . وجاء هذا الرجل إلى القائد أبي عبيدة بعد أن تمكن من الحصول على معلومات مفيدة عن القلعة ومدخلها وسراديبها وأسوارها وأبوابها عندما أسكر أحد السجناء الحلبيين ، وقد عرف نقطة الضعف في السور في المكان الذي لا يتجاوز فيه ارتفاع جدار السور ثلاثة أمتار ، وكان دامس رجلاً قوياً فطلب من قائده أبي عبيدة أن يرسل معه مجموعة من الشباب القوي الجريء وأن يبعد الجيش عن المدينة متصنعاً الانسحاب ولكنه يبقى مختبئاً

خلف هضبة على مسافة قريبة من المدينة . وعندما تم ذلك ظن يوقنا وجيشه أن الجيش العربي قد يئس وانسحب فاحتفل وصحبه بما حصل وكان فرحهم كبيراً ، وفي هذه الأثناء في المساء وعند هبوط الليل توجه دامس ومرافقوه الأشداء إلى أسوار المدينة وإلى نقطة الضعف في السور يحاولون تسلق السور .

وعند وصول المجموعة إلى أسفل الهضبة الاصطناعية التي بنيت عليها القلعة ، ارتدى دامس لباساً مصنوعاً من جلد الماعز وأخذ معه كمية صغيرة من الكعك القاسي ، ويبدأ مع رجاله مرحلة الصعود القاسي ببطء ، وعندما يظن أنه يسمع صوتاً مشبوهاً يتوقف ويقرض الكعك لكي يظن الآخر أنه حيوان يقرض عظماً . ثم يعاود بعد ذلك تسلقه الشاق ، وعند وصوله إلى بداية الأسوار يتسلق الرجال فوق بعضهم حتى يصل آخرهم إلى طرف السور فيرتقي السور ثم يفرد حبلاً طويلاً كان يحمله معه فيتسلق مرافقوه سور القلعة الواحد تلو الآخر ، ثم ينزل الرجال خلف الأسوار فيجدون الجنود نائمين وهم سكارى فيذبحونهم ، وبذلك يتمكن دامس من السيطرة على السور ، ولكنه يلاحظ فجأة أن الجيش كله لم يكن متلاًشياً في النعاس والسكر كما كان يأمل فيشعر بالانزعاج ويفكر بحذر كيف سيتجاوز هذه العقبة .

ففي إحدى قاعات القلعة يتابع يوقنا وضباطه الحفلة والعديد من الخدم يجولون بين الجنود مما اضطر دامس أن يختبئ جزءاً من الليل ، وقبل الصباح بمدة وجيزة يقرر دامس أن يستعجل العملية ، وإن لوحظ أخيراً فهو يحتل باباً ، ويعطي للقائد خالد بن الوليد الإشارة المتفق عليها ، ويعود مع مرافقيه لمواجهة الروم البيزنطيين الذين كانوا يتسارعون بأعداد كبيرة ضد حفنة من المسلمين كانت تقاتل بشجاعة فائقة حتى وصل خالد أخيراً وتدفع جيشه عبر الباب الذي كان المسلمون يسيطرون عليه ، وعلى الرغم من جهود يوقنا أو (يوكينا) كما يدعونه إلا أنه لم يستطع الصمود أمام الجيش الإسلامي فينهزم أمامهم شر هزيمة ، ويضطر للاستسلام أمام الجيش العربي المسلم .

وبذلك انتهت آخر جيوب المقاومة ضد الفتح العربي لتبدأ مرحلة جديدة بالنسبة إلى قلعة حلب . تاريخٌ جديد قد بدأ . أما يوكينا المهزوم فقد انضم إلى المسلمين وأسلم فحصل على مكان له في صفوفهم ، وقد أدى خدمات عظيمة للمسلمين وللجيش الإسلامي بعد ذلك عندما استطاع أن يساهم في السيطرة على بعض المواقع الصغيرة والقوية التي كانت ما تزال خارج السيطرة العربية .

وفي العهد الأموي:

انتشر وباء الطاعون الرهيب في صفوف الجيش الفاتح وفتك بأغلب الجيش العربي ، وسمي هذا العام بعام الوفیات نتيجة كثرة عدد الوفیات في هذا العام . وقد استطاعت حلب أن تستعيد شيئاً من ازدهارها السابق ، وتطورت تجارتها وتنافس الحرفيون والتجار تحت الإدارة الواعية المستنيرة للحكام العرب في حلب .

وقد قامت في قنسرین ثورة سرعان ما أخمدت ، ومنذ ذلك الوقت ضعفت قوة هذه المدينة وتوسعت حلب في كل المناحي .

وبعد مدة وجيزة أصبحت قنسرین تحت سيطرة حكام حلب وخاصة أيام حكم الخليفة الأموي يزيد بن معاوية فقد قسمت سورية في عهده إلى خمسة أقسام ، وكانت عاصمة جند قنسرین مدينة حلب .

ونتيجة للتحول السياسي بعد الفتح العربي حدثت ثورة في التجارة الحلبية بعد أن كانت الاتصالات التجارية وغيرها مقطوعة أيام حكم الإمبراطورية البيزنطية ، وكان على النشاط التجاري أن يتجه نحو بلاد ما بين النهرين وفلسطين والعراق ومصر والجزيرة العربية .

أما في أثناء حكم الخليفة مروان فقد عهد بحكم المدينة حلب لعبد الملك بن

الكوثر غناوي ، ولكن الخلفاء الأمويين لم يتركوا لمدينة حلب حكاماً يديرون شؤونها فترة طويلة بسبب عدم ثقتهم بهم وضعف الحظوة عندهم .

وفي ظل الحكم العباسي:

تطورت حلب تطوراً كبيراً وحكمها في هذه الفترة عبد الله بن ظفر . وشهدت حلب في هذه الفترة حركة دينية جديدة سميت بحركة (الروانديين) الذين كانوا يدعون أنهم بنقاء الملائكة وأنهم مجردون من السيئات المادية الأرضية ، وحاولوا أن يثبتوا نقاءهم للشعب فارتدوا ثياباً فاخرة من حرير ومخمل ، وصعدوا درجات برج مرتفع حتى وصلوا إلى القمة ، ثم رموا بأنفسهم في الفضاء محاولين الطيران وهم يظنون أن نقاءهم سيجعلهم يطبسون في الفضاء دون صعوبة ، ولكنهم اندفعوا إلى الأرض بفعل الجاذبية الأرضية (المادية) ولقوا حتفهم جميعاً .

وفي سنة ٧٦٣ صكت العملة العربية الأولى في حلب ، وقد نقش على وجهها (صكت هذه القطعة النقدية في مدينة حلب عام ١٤٦ هـ) وعلى القفا كلمة (بأمر من الأمير سالب بن علي باركه الله) ، وقد كانت العملة السائدة قبل ذلك هي العملة البيزنطية .

وفي هذه الفترة برز بعض الحكام الفاسدين أمثال الحاكم الشهير عبيد الله محمد بن صالح الذي كرهه الشعب كثيراً لجشعه وانتهاكاته الكثيرة ، ولقد لقب (أبو البخشيش) .

وفي سنة ٢٣٦ هـ أصدر الخليفة المتوكل قانوناً أطلق عليه اسم القانون (التديري) وكان هذا القانون يمنع المسيحيين واليهود من استخدام ثياب جديدة ومن ركوب الأحصنة وكان هدفه من ذلك فصلهم عن بقية السكان .

وفي عام ٩٠٣ م تحاول قبيلة الكرمان احتلال حلب فتهاجم أسوارها ، ولكن

أبناء حلب استطاعوا أن يفكوا طوق الحصار عن المدينة وأن يهاجموا المحاصرين ويطردونهم ويقتلوا عدداً كبيراً منهم ويلحقوا بهم هزيمة كبيرة .

ومنذ عام ٨٦٨ م تتحول السيطرة في الخلافة العباسية من أيدي العرب إلى أيدي الأتراك الذين جلبهم الخليفة العباسي المعتصم ومن جاء بعده .

ونتيجة تدرجهم في المناصب سيطروا على المناصب وأصبحوا السادة الحقيقيين للبلاد فأصبحوا يعينون الخلفاء ويقصونهم .

وراح القادة الأتراك يقتسمون البلاد ويستقلون بحكمها ، فأحمد بن طولون أرسل إلى مصر لإخماد ثورة هناك ، فاستغل الظروف واستقر فيها فاتحاً ، وتجاوزها بعد ذلك إلى سورية الجنوبية .

وفي حلب كان يحكمها الإخشيدون الذين مارسوا طغيانهم على سورية الشمالية كلها ، فقد سيطروا على حلب ونصبوا عليها حاكماً كان يجبي الأموال من الشعب بقسوة وظلم ، ولذلك كان الشعب يكره حكامه في حلب .

وفي سنة ٩٣٥ م جاء سيف الدولة إلى حلب قادماً من الموصل فطرد الإخشيديين من حلب واستقبله الشعب الحلبي استقبال الفاتحين .

وينتمي سيف الدولة إلى الأسرة الحمدانية الذين يعودون في أصولهم إلى اليمن ، وقد تضاعفت ثرواتهم بالتدريج بعد أن دخلت هذه العشيرة بلاد الرافدين ، وأصبحت شعبيتها كبيرة ، فوضعها الموصليون حكاماً على المدينة .

وفي هذه الفترة أخذت سلطة العباسيين تتقلص يوماً بعد يوم ، وهذا ما جعل سلطة هذه الأسرة تكبر ونفوذها يزداد ، واستطاع سيف الدولة أن يصبح زعيم حلب وأن تصبح المدينة بعد ذلك عاصمة المملكة الحمدانية .

ومنذ وصول سيف الدولة إلى حلب فهم الخطر الذي يمثله قرب الحدود مع

بیزنطة وسيصبح خلال حكمه الطويل كله منافساً شرساً لهم . فقد كان سيف الدولة محارباً مقداماً وملكاً مترفاً ونصيراً للآداب ، فقد أصبح بلاطه مقصداً لكل الأدباء والمفكرين والشعراء . وقد ترك سيف الدولة في قصائد عصره التي أطلقها المتنبي أثراً لا يمحي ، فقد أصبح سيف الدولة البطل الذي يهتم بحلب ويبذل كل ما بوسعه لحمايتها وتطويرها وجعلها منارة للعلم والأدب .

وكانت أولى مهام سيف الدولة بعد أن استقر في حلب أن يدفع عنها خطر الإخشيديين الذين جاؤوا بقيادة كافور لاستعادة حلب ، فانطلق بجيشه لمقابلتهم وهزمهم ، ويعاود الإخشيديون الكرة فتكون لهم الغلبة ، وينتصر سيف الدولة مرة ثالثة مما جعل الطرفين يعقدان معاهدة فيما بينهما يترك فيها حكم حلب وحمص لسيف الدولة وتترك دمشق ومنطقتها للإخشيديين وعليهم دفع إتاوة سنوية لحلب .

وفي عام ٩٤٨ م بيني سيف الدولة لنفسه قصراً فخماً يشبه في جماله قصور ألف ليلة وليلة ، وقد قدم لنا الكتاب العرب وصفاً مطولاً ومدحاً كبيراً لهذا القصر .

وتمثل الصراعات التي دارت بين سيف الدولة والبيزنطيين مسيرة قائد عظيم كرّس حياته وندب نفسه لمهمة عظيمة طالما هيا نفسه لها منذ شبابه وهي النهوض بعبء الحرب ضد الروم البيزنطيين وكسر شوكتهم ورد خطرهم عن ثغور الدولة الإسلامية ، وكان أول لقاء له معهم في سنة ٣٣٦ هـ^(١) ، إذ أغاروا على أطراف الشام ونهبوا وسبوا ، فلحق بهم وأذاقهم نكالا شديداً ، وردّ منهم كل ما سلبوه من أهل الشام .

ويكتب له منذ السنة التالية مجد حربي عظيم ضد الروم ، ويسجل له لوحات شعرية ناطقة شاعره المتنبي الذي نزل بلاطه في هذا الوقت ولزمه حتى سنة ٣٤٦ هـ .

(١) تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات (الشام) ، د. شوقي ضيف .

ويسجل له المتنبي صوراً رائعة لملاحمه الحربية الساحقة ضد الروم والتي يشبهه فيها بالبطل الذي يخافه الموت بل إنه يقف في جفن الموت والموت غافل عنه ، ويصور جيش الروم بحجمه الكبير وأعداده الهائلة وأقوامه الكثيرة وعتاده الكثيف كأنه جيش لا يقهر ، ومع ذلك فسيف الدولة يقهره بجرأته وصلابته وشجاعته .

يقول المتنبي:

أتوك يجرون الحديد كأنهم

سروا بجياد مالهن قوائم

خميسٌ بشرق الأرض والغرب زحفه

وفي أذن الجوزاء منه زمازم

تجمع فيه كل لسن وأمة

فما يفهم الحداث إلا التراجم

فلله وقت ذوب الغش ناره

فلم يبق إلا صارم أو ضبارم

وقفت وما في الموت شك لواقف

كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمربك الأبطال كلمى هزيمة

ووجهك وضاح وثغرك باسم

ومضى سيف الدولة يدير مع الروم معارك باسلة كان ينصب عليهم فيها سنوياً كإعصارٍ محرقٍ مدمر ، وشاعره المتنبى من ورائه يتغنى بانتصاراته وبخوارقه البطولية حيث تلم به كارثة فيتخلص منها في شجاعة نادرة ، ومن أعظم بطولاته أنه كان يبني الحصون في أثناء نزاله للروم على نحو ما صنع بحصن مرعش في عام ٣٤١ هـ وهو يكيل لهم ضربات قاصمة ، وقد أنزل بهم صواعق الموت التي لا تبقي ولا تذر في سنة ٣٤٢ هـ وأسر قسطنطين بن الدمستق وساقه بين يديه أثناء دخوله حلب مظفراً منصوراً .

وفي سنة ٣٤٣ هـ جمع الروم له حشوداً هائلة من الترك والروس والبلغار والخزر بقيادة الدمستق ، وسرعان ما أخذ يدق أعناقهم دقاً ، وهرب الدمستق لا يلوي على شيء ، وأسر صهره بينما كان البطارقة يقتلون ويؤسرون وأخذ سيف الدولة جنودهم أسرى بكل ما يملكون . وقد بنى سيف الدولة أثناء هذه المعركة حصن الحدث شمالي مرعش والمسلمون يكبرون ويهللون ، وفي هذا يقول المتنبى :

هل الحدث الحمراء تعرف ربها

وتعرف أي الساقين الغمام

وفي سنة ٣٤٥ أنزل بهم ضربات مدمرة . وكان يمد يد المساعدة لأخيه ناصر الدولة في نزاله للروم شمال الموصل ، وكثيراً ما نالهم هناك وفي شمال الجزيرة .

وما أن جاءت سنة ٣٤٦ هـ حتى تلبدت سماء الوثام بين سيف الدولة والمتنبى فيرحل الشاعر عن فارسه الذي أحبه ، وبرحيله تنحسر عن سيف الدولة مرحلة المجد البطولي والحربي الذي رافقه زمناً طويلاً . فقد تعرض البطل العربي إلى انتكاسات في معاركه مع الروم ومع ملكهم نقفور سنة ٣٤٧ هـ وسنة ٣٤٩ هـ وسنة ٣٥١ هـ .

ولم يلبث البطل العظيم أن أصابه الفالج سنة ٣٥٢ في يده ورجله ، ولكنه وبرغم مرضه الخطير نهض من فراشه وصَدَّ بقوة هجوماً للروم على حصن من حصون حلب . وفي سنة ٣٥٦ هـ لَبَّى البطل نداء ربه . وكان قد أوصى بأن يوضع في لحده وتحت خده لبنة من غبار المعارك التي خاضها ضد الروم في غزواته جمعها مما علق في ثيابه ودروعه وسلاحه . وقد نُفِذَتْ وصيته .

وكان (كما ذكرنا) راعياً للعلوم والآداب فلمع في بلاطه أكبر تلامذة أرسطو في زمنه وهو الفارابي (المعلم الثاني) ولمع كثير من الشعراء والكتاب أولهم المتنبي وأبو فراس الحمداني وغيرهم ، وقد عقد لهم الثعالبي من كتابه يتيمة الدهر فصولاً طويلة فقال فيه وفي أسرته: ”كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء أوجههم للصباحة وألستهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسط قلادتهم ، وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرِّحال ، وموسم الأدباء ، وحلبة الشعراء“ .

وخلفه ابنه سعد الدولة (أبو المعالي) وكان ابن عمه أبو فراس الشاعر المشهور عامل أبيه على حمص قد ظلم وأكثر من الظلم وكثرت الشكوى منه ، فقاتله أبو المعالي وخرَّ أبو فراس صريعاً في ميدان المعركة ، وفي نفس السنة علم باستعداد الروم لحربه فأرسل إليهم قرغويه حاجبه وأسر وأفلت منهم ، وانهزم أصحابه على يد نقفور الذي خرَّب كثيراً من بلدان الشام وأعمل النهب والسلب .

وعصى قرغويه سعد الدولة واستولى على حلب سنة ٣٥٨ ، ولم يلبث نقفور أن استولى على أنطاكية ، وظلت في أيدي الروم إلى أن فتحها السلاجقة عام ٤٧٧ هـ ، وأمضى معهم قرغويه صلحاً ذليلاً ، واصطلح مع سعد الدولة الذي ظل أميراً لحلب حتى توفي عام ٣٨١ هـ فخلفه ابنه سعيد الدولة ، وقد عقد مثل أبيه حلفاً بينه وبين الروم ضد الفاطميين ولكنه لم يستمر طويلاً في حكم حلب فتوفي عام ٣٩٢ هـ ، واضطربت أحوال إمارة حلب بعده

وتقاذفتها المنازعات بين أبنائه حتى انتهت إمارة الحمدانيين بحلب وشمال الشام عام ٤٠٦ هـ.

الغزو الفاطمي:

بعد انهيار مملكة سيف الدولة يمتلك الفاطميون إفريقية ومصر ويبدؤون باجتياح سورية بجيش يقوده منجك، ويتجه هذا الجيش باتجاه حلب، فيصاب الحليون بالدعر ويطلبون نجدة البيزنطيين الذين كانوا يسيطون حمايتهم على المنطقة، ويرسل هؤلاء جيشاً قوامه خمسين ألف مقاتل سرعان ما ينسحب من المعركة دون سبب ظاهر. وتقع حلب في يد الفاطميين بعد قتال عنيف ولكن أبناء المدينة يقدمون إلى الغزاة مبلغاً كبيراً من المال لينهوا غزوهم، فيقبل الفاطميون المبلغ وينسحبون بهدوء، إلا أن السلطان الفاطمي لم يقبل بهذا الاتفاق وأرسل قائده مرة أخرى إلى حلب لإعادة السيطرة عليها.

ويدرك الامبراطور البيزنطي خليفة نففور فوكاس أن الموقف يتطلب مواجهة جدية لهذا الجيش الغازي. فيجهز جيشاً لمقابلته يتوجه به إلى دمشق ماراً بحلب وينهب مدينة دمشق مكبداً الفاطميين هزيمة منكرة.

وتقع مدينة حلب سنة ٤٠٢ هـ في يد قبيلة بني كلب وزعيمها صالح بن مرداس بعد أن يأسره الحليون ويسجنوه في القلعة ولكنه يتمكن من الفرار من سجنه ويجمع رفاقه ويهاجمون المدينة ويتصرفون بسهولة على القوة الحلبية الصغيرة التي أرسلت إلى قتاله، ويستولي على المدينة ويسجن حاكم المدينة في نفس السجن الذي سجن فيه ولم يحرر إلا مقابل فدية كبيرة.

وبعد سنوات قليلة يعود صالح بن مرداس مرة أخرى إلى حلب ويحاصرها ويحتلها ثم يؤسس سلالة المرداسيين. وتبقى المدينة تحت حكم المرداسيين بقيادة نصر بن مرداس أخيه صالح وأطلق على نفسه لقب (شبل الدولة).

ويقاتلون القوات المصرية الذين يستولون على حلب مرات عديدة وتنتقل السيطرة على المدينة من يد إلى أخرى حتى تقع فيها مجاعة كبيرة عام ١٠٦٨ م تقضي على ما يقارب أربعة آلاف من سكانها.

محاولات الصليبيين لاحتلال حلب:

شهدت حلب نزاعات عديدة على السلطة بين ١٠٧١ م - ١٠٩٤ م بين رجالات عدة، فقد حكم حلب في الفترة الأولى (١٠٧١ م) السلطان أرسلان. ثم حاصرها شرف الدولة سلطان الموصل وأطال في حصارها حتى استسلمت له فأعاد إليها سلطة الحكم المرداسي.

وفي العام ١٠٩٤ م كانت مدينة حلب تحت سلطة رضوان السلجوقي وكان أخوه يحكم في نفس الوقت دمشق.

وفي عام ١٠٩٨ م تجتاح جيوش الصليبيين الأولى أنطاكية التي تركت تحت إمرة (بوهيموند) ولكن السوريين لم يتقبلوا هذا الغزو فهاجموا الصليبيين واستعادوا المدينة. ويبدأ رضوان السلجوقي سلطان حلب القتال مع عدد من الأمراء ولكنه لم يصمد أمام جنود أنطاكية.

وفي عام (١١٠٤ م) يحتل الصليبيون معظم المدن المتاخمة لسورية ويتقدمون نحو حلب لاحتلالها ولكنهم يواجهون بمقاومة بطولية تجعلهم يغيرون طريقهم عنها فيستغل رضوان السلجوقي الفرصة ويهاجمهم قرب منطقة (يريم) ويشند القتال ويستبسل الجيش الحلبي في القتال ولكنه يتعرض لهزيمة قاسية.

في عام (١١٠٦ م) يتفق سلطان حلب رضوان السلجوقي مع الصليبيين ويوقع معاهدة سلام يدفع من جرائها إتاوة تقدر باثنين وثلاثين ألف دينار.

ولكن الشعب في حلب يرفض هذه المعاهدة ويرسل إلى الخليفة في بغداد

لكي يرسل لهم جيشاً لإنقاذ المدينة ، وتبدأ مظاهرات عنيفة في المدينة ، ويرسل الخليفة لهم جيشاً ليساعدهم ، وتحدث المعارك بين الطرفين وتتراوح نتائجها بين التقدم تارة للجيش الحلبي وأخرى للصليبيين حتى يصل الصليبيون أخيراً إلى حلب فيغلق سلطانها رضوان الأبواب في وجوههم .

وبعد موت رضوان لم يستقر الحكم لولده فيقتل ابنه في القلعة على يد خدمه وتحدث ثورات داخلية عديدة حتى تسلم المدينة لنجم الدين الغازي أمير ماردين .

وفي عام (١١١٩م) يعود الصليبيون إلى حلب ويحيطون بأسوارها ويحاصروها فهم لم يفقدوا الأمل أبداً في احتلالها .

ويبدو أن المدينة لم تكن مستعدة لحصار يطول فحاول حكامها أن يبرموا اتفاقاً مع الصليبيين لكي ينقذوا أنفسهم من هذه الورطة . لكن الصليبيين رفضوا الاتفاق على أمل استسلام المدينة ، إلا أن أبناء المدينة أصيبوا باليأس من السلام فجهزوا أنفسهم لمقاومة مميّنة . وكان أمير حلب في ماردين يجهز جيشاً لرد الصليبيين ويهاجمهم بشكل مفاجئ وبقوة جعلتهم يفرون أمامه سريعاً .

وفي هذه الفترة تضعف حلب ويحاول حكامها الصلح مع الصليبيين فيسلمهم أمير حلب موقع أثارب كي يسكنوا عنه . ولكن الصليبيين ويتزعمهم بلدوين ملك القدس يحاصرون حلب ولكنه يتعرض لهزيمة كبيرة من الجيوش السورية .

وفي هذه الفترة من الضعف الذي حاق بحلب يحاصروهم الصليبيون مرة أخرى بقيادة جوسلان ، ولأن الخطر أصبح داهماً أدرك الحلبيون أنهم بحاجة إلى قائد شجاع ومقدام ، فلم يجدوا أمامهم أفضل من الأمير عماد الزنكي أمير الموصل فتوجهوا إليه يعرضون عليه أن يصبح أميراً على حلب وأن تصبح تحت

سيطرته فقبل الأمير العرض وتولى مهمة الدفاع عن حلب والوقوف في وجه الصليبيين .

والحقيقة أن عماد الدين زنكي كان العدو الأخطر للصليبيين فقد وقف في وجههم وردهم عن المدن الإسلامية ، بل إنه قضى حياته في قتال مستمر معهم ، وفي مبادرة سريعة من الأمير عماد الزنكي يهاجم الصليبيين ويحقق عليهم نصرين كبيرين في منطقة بارين وقرب أسوار حلب .

وتتالى انتصارات عماد الدين زنكي على الصليبيين إلا أن القدر لم يمهلهم فقد قتل على يد حراسه حين كان يحاصر قلعة جعبر ، فتولى الحكم من بعده ابنه نور الدين محمود الزنكي الذي يتابع خطة أبيه في معاركه ضد الصليبيين الذين يعتبرهم العدو الأكبر للدولة الإسلامية . فيتابع انتصاراته على جوسلان والجيش الصليبي مما يجعل جوسلان يهرب أمامه .

ويتابع القائد الشاب هجماته ضد الصليبيين ويحتل مدينة إديس (أورفه) ثم يحتل حارم أحد المواقع الحدودية للإمارة .

ويجرب أمير انطاكية حظه مع نور الدين زنكي فيهاجمه ويشد القتال بينهما وينتهي الأمر إلى مقتل ريمون أمير انطاكية ، فيتولى رينودو شاتيون إمارة أنطاكية بزواجه من أرملة ريمون ، ولكن نور الدين الزنكي يأسره خلال إحدى المعارك معه ويسجنه في قلعة حلب حيث يقضي ستة عشر عاماً قبل أن تدفع الفدية الضخمة التي فرضها المنتصرون وينتشي نور الدين بهذه الانتصارات فينطلق من جديد إلى إديس ليحتلها ولكن (جوسلان) يباغت جيشه ويهزمه ، فيستشيط نور الدين غضباً من هذا الأمر ويشد غضبه عندما يعلم أن جوسلان قد أخذ أسلحة من قريب لنور الدين ويعلن له أنه سيأسر الأمير قريباً فيقسم نور الدين أنه سيأسر جوسلان نفسه . وفعلاً يحقق هذا الأمر عندما يفاجئ جوسلان في أثناء رحلة صيد ويحاول جوسلان اقتداء نفسه لكن نور الدين يرفض الفدية ويحضره إلى حلب أسيراً .

وفي تلك الفترة تتعرض مدينة حلب لهزة أرضية عنيفة تهدم جزءاً هاماً من سورها وبيوتها وكذلك يهدم جزءاً من القلعة، فيسارع نور الدين إلى إصلاح ما خربه الزلزال .

ويمرض الأمير نور الدين محمود فيحاول أخوه أن يعلن نفسه أميراً على حلب ولكن الأمير يحبط محاولته، وتتعرض المدينة عام ١١٧٠م إلى زلزال عنيف آخر، ولم يسعف القدر نور الدين كي يصلح المدينة من جديد فيموت عام ١١٧٣م تاركاً السلطة لولده إسماعيل الطفل الصغير، فيأخذ الوصاية عليه الأمير شمس الدين محمد بن المقدم .

وفي هذه الأثناء يتوجه صلاح الدين الأيوبي الذي أصبح سلطاناً على مصر إلى دمشق تلبيةً لنداء أبناء دمشق فيستولي عليها ثم يتوجه نحو حمص وحماة ويندفع نحو حلب ولكن حكام المدينة يتفقون مع حاكم مدينة طرابلس الصليبي أن يحاصر حمص ليتخلصوا من صلاح الدين . ولكن صلاح الدين يعود إلى حمص سريعاً ويهزم جيش طرابلس ويعود مرة أخرى إلى حلب ويستمر حصاره لها عاماً كاملاً، ولم يرفع إلا بعد أن تدخلت ابنة نور الدين محمود الزنكي .

وفي عام ١١٧٧م يموت صلاح إسماعيل فيخلفه ابن عمه عز الدين مسعود أمير الموصل فيصبح أميراً لحلب والموصل .

ويعود صلاح الدين لمحاصرة حلب فيقترح عماد الدين الذي أصبح أميراً لحلب على صلاح الدين أن يعطيه منطقة حلب على أن يبقى حاكماً لها، فيقبل صلاح الدين وتعم الأفراح المدينة . وبعد مدة يرسل صلاح الدين ابنه إلى المدينة، ولا يلبث أن يصبح أميراً عليها ويبقى الأمر كذلك إلى أن يهاجم المغول بلاد الشام .

المغول في بلاد الشام:

تعرض حلب إلى هجوم من التتار عام ١٢٤٣ هـ ولكن جيوش المسلمين تهزم التتار .

وتعرض سوريا لهجوم شامل من قبل هولاكو فيحتل مدنها مدينة بعد أخرى ويندفع سكان الريف حول حلب إلى المدينة ليحتموا فيها ويغلقوا أبوابها منتظرين جيش هولاكو الخطير الذي سبقته سمعته الرهيبة . وتحصل مناوشات مع طلائع جيش التتار وينتصر المسلمون عليهم ، إلا أن الأنباء تصل إليهم بأن جيش هولاكو يزحف على حلب بعدد هائل يحاصر المدينة ويحتل مدينة اعزاز ، ولم تلبث حلب أن تسقط في يد هولاكو الذي لا يتوانى عن إقامة مذبحه رهيبة ، وتحاصر القلعة مدة وتسقط هي الأخرى فتهدم أسوارها وتحرق معظم صروح المدينة .

وفي السنوات اللاحقة تتعرض المدينة لهجمات متكررة من المغول وتنهب أكثر من مرة على يد تيمورلنك حتى تنجلي هذه الغمة عن صدر بلاد الشام بعد هزيمتهم في معركة عين جالوت .

المماليك في سورية:

حكم المماليك سورية حتى عام ١٥١٦ م ، وقد حكم حلب المماليك الشراكسة وتمركزوا فيها بقوة . وبقوا فيها حتى مجيء الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٦ هـ واحتلوا حلب بعد معركة مرج دابق الشهيرة التي انهزم فيها المماليك وقائدهم قانصوه الغوري وترك حلب للعثمانيين وينتقم الحلبيون من المماليك الذين عاثوا فسادا في المدينة قبل وصول العثمانيين فينهبون أملاكهم ويحجزون ثرواتهم .

وفي العهد العثماني:

تنقسم سوريا إلى ثلاث ولايات هي دمشق وطرابلس وحلب . وكانت حدود ولاية حلب خليج اسكندرون والبحر المتوسط حتى ٢٥ كم جنوب السويدية غرباً، والفرات من بير حتى قلعة جعبر شرقاً، وكانت ولاية حلب تشمل عنتاب وتصل حتى أطراف بازارجيك، وتنزل حتى المركز، وتدخل جنوباً في الصحراء حتى جبل أوشيرون، وتمتد حتى مرعش وجسر الشغور وتصل حتى البحر .

وفي القرن السابع عشر يعلن علي جانبولاد حاكم حلب استقلاله عن الدولة العثمانية، ولكنه سرعان ما يتراجع عن قراره .

وفي عام ١٨٢٢م تصيب المدينة هزة أرضية تدمر البيوت في قلعة حلب وتهدم جزءاً من سورها فيترك أهل القلعة قلعتهم وينزلون إلى المدينة فيسكنوا فيها .

وتسترد الجيوش المصرية على يد إبراهيم باشا في هذه الفترة حلب من أيدي العثمانيين وتبقى كذلك حتى عام ١٨٤٠م فتعود بعد ذلك إلى سلطة العثمانيين .

وتبقى الأمور على حالها حتى قيام الثورة العربية الكبرى ١٩١٦ وتصبح حلب تحت سلطة الأمير فيصل الذي يتركها عام ١٩٢٠ للقوات الفرنسية وبذلك تدخل حلب وسورية مرحلة الاحتلال الفرنسي ولا تخرج منه إلا بعد الجلاء عن سورية عام ١٩٤٦ .

حلب في رحاب الأدب

وكما يمتد عمر حلب في الزمن البعيد ، كذلك كان عمرها الأدبي . وإذا كنا لا نملك معلومات عن الحركة الأدبية في العصور القديمة قبل الإسلام إلا أنها كانت عروس الأدب على مر العصور الإسلامية بدءاً من العصر العباسي وفي عصر سيف الدولة الحمداني تحديداً . أما قبل ذلك فقد كانت حلب مدينة إسلامية ينحصر نشاطها في التجارة والصناعة .

أما في عصر سيف الدولة فقد برزت حلب كمدينة تحمل راية الفكر والأدب يرعاها قائد حكيم وأديب ذكي هو سيف الدولة الحمداني . ولقد جمعت حلب في حضنها الدافئ خيرة شعراء ذلك العصر وأدبائه وكان المتنبي أحد أبرز أقطاب الأدب فيها فقد جذبته بما سمع عن أميرها وفارسها سيف الدولة فانطلق إليه يحمل بين جنبيه طموحه في أن يعانق السيف القلم فينسجنان معاً ملحمة البطولة التي تتوق إليها نفس المتنبي دائماً كما يقول:

الحيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

لقد جعل سيف الدولة من بلاطه في حلب أكبر صالون أدبي في عصره فكان فيه الشاعر واللغوي والعالم والمفكر والفيلسوف . من أمثال الصنوبري الشاعر والكندي الفيلسوف وابن خالويه عالم النحو وغيرهم كثير ، وسنعرض لأهم شخصيات هذا العصر وما تركته من أثر على الساحة الأدبية .

١ - المتنبي:

أحمد بن الحسين بن مُرّة بن عبد الجبار الجعفي . ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ . التحق بالكتاب صغيراً ، ونبغ في الشعر منذ أعوامه العشر الأولى . كان أبوه (كما هو مشهور عنه) سقاء في الكوفة . ولشدة خطره على شعراء عصره فقد تناولته معظم الشعراء من جهة والده ومهنته محاولين أن يحطوا منزلته في نظر مدوحيه فقال أحدهم فيه:

أَيُّ فَضْلٍ لَشَاعِرٍ يَطْلُبُ الْفَضْلَ لَمِنْ النَّاسِ بَكْرَةً وَعَشِيًّا
عَاشَ حِينًا يَبِيعُ بِالْكُوفَةِ الْمَاءَ وَحِينًا يَبِيعُ الْمَاءَ الْمَحِيًّا

ولكن المتنبي تجاوز كل أولئك الشعراء والمنافسين والحساد ، ونظن أن الادعاء بأن والده كان سقاء هو ادعاء باطل غايته النيل من المتنبي والدليل عندنا أن المتنبي رد على المدعين بقوله:

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عِيًّا فَيَعْجِزُكُمْ وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ
مَا أَبْعَدَ الْعَيْبِ وَالنَّقْصَانِ عَنْ شَرَفِي أَنَا الثَّرِيَّا وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمُ

ولا يعيبه الفخر بنفسه لأن هذا الفخر ليس بسبب تدني مكانة أهله بين الناس ،
لأنه ارتفع في مكانته بين النجوم:

لَا بِقَوْمِي شَرَفْتُ بَلْ شَرَفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجَدُودِي

ولو كان في شرفه نقص أو عيب لما تجرأ على قول هذين البيتين في مجلس
سيف الدولة:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

ونقف عند هذا الحد من أمر المتنبي مع حساده لننطلق معه في طموحه الذي لا يحده حد . هذا الطموح الذي جلب له المتاعب أينما اتجه ، لأنه جلب الأعداء والحساد الذين يرون فيه عدواً خطيراً لهم .

فعندما اتجه المتنبي من الكوفة طالباً بلاد الشام ، جذبته حلب لأنها كانت قبلة الأدب وموطن البطولة والشجاعة ففيها الفارس المقدام الذي نذر نفسه للذود عن محارم الإسلام وديار العروبة سيف الدولة الحمداني . وفي بلاطه تضيء مصابيح الأدب متوهجة على يد أبي فراس شاعر الحمدانيين وكشاجم والصنوبري وغيرهم من الشعراء ، كما كان بلاط سيف الدولة قبلة العلماء والفلاسفة والمفكرين لما لقي هؤلاء جميعاً من تشجيع سيف الدولة لهم فقد كان محباً للأدب والعلم شغوفاً بهم جميعاً .

وجد المتنبي في حلب أمله ومنتهى طموحه ولذلك توجه إليها وهو يقول:

كلما رحبت بنا الروض قلنا حلب قصدنا وأنت السبيل
فيك مرعى جيادنا والمطايا وإليها وجيفنا والذميل

لقد وجد المتنبي في حلب الحلم الذي كان يحلم به وهو الشهرة والتألق في عالم الأدب ففيها سيقارع أساطين الأدب ووجد فيها روح البطولة والفروسية متجسدة في بطلها سيف الدولة فأعطاه من شعره ما يخلده وأعطى من نفسه الشاعرية التي خلده هو أيضاً .

وكان لقاء الشاعر بالفارس يشبه لقاء الحبيب بحبيبه والطالب بمطلوبه وها

هو الشاعر يلقي بين يدي فارسه وملهمه وحبيه أول قصيدة فيرفعه فيها إلى أعالي
المجد فيقول:

وإن الذي سمى علياً لمنصفٍ وإن الذي سماه سيفاً لظالمه
وما كل سيف يقطع الهام حده وتقطع لُزبات الزمان مكارمه

وفي هذه القصيدة يحكي لنا الشاعر كيف أنه عانى كثيراً حتى
وصل إليه:

سلكت صروف الدهر حتى لقيته على ظهر عزم مؤيدات قوائمه
مهالك لم تصحب بها الذئب نفسه ولا حملت فيها الغراب قوادمه
فأبصرتُ بدرأ لا يرى البدر مثله وخاطبت بحراً لا يرى العبر عائمه

ويقضي شاعرنا مع إلفه وطيب روحه سيف الدولة أجمل أيام سطر فيها
مجد وخلود سيف الدولة، وسطر فيها لنفسه المكانة التي لا يزاحمه فيها أحدٌ
حتى النجوم.

ولكن أيام الوئام والود لا تطول فيحلّ الفراق ويكون السبب وشاية حساد
ولكن المتنبي لم يستطع أن ينسى سيف الدولة وحلب أبداً فبقيت في ذاكرته إلى
نهاية حياته.

٢ - أبو فراس الحمداني:

إنه أبو العلاء الحارث بن سعيد بن حمدان بن حمدون. ولد في الموصل
سنة ٣٢٠ هـ وقُتل أبوه وهو صغير على يد ناصر الدولة ابن عمه وأخي سيف
الدولة. فكفل سيف الدولة أبا فراس، ورباه حتى بلغ مرحلة الصبا فاستقر في
منبج قرب حلب.

كانت مشاركة أبي فراس الأدبية في بلاط سيف الدولة كبيرة ، فهو قد تلقى علومه الأولى على يد العلماء الذين عاشوا في رحاب سيف الدولة وبلاطه مثل ابن خالويه . ولذلك كان تأثير هذا البلاط وأولئك الأدباء عليه كبيراً فشارك في المناظرات التي جرت في بلاط سيف الدولة ، وكان طرفاً بارزاً ومؤثراً في هذه المناظرات ، وقد تزعم الفريق الذي ناصب المتنبّي العداء لأنه وجد فيه منافساً خطيراً له في عالم الشعر ولكن الأيام لم تكن في جانبه فقد عُيّن أميراً لمنبج وعهد إليه أمر الدفاع عن ثغر الدولة ضد الروم فقاتلهم زمناً طويلاً وأسر منهم وطال أسره عند الروم ، فأخرج لنا في أسره أجمل وأرق ما عرف في الشعر العربي .

إنها روميات أبي فراس المعروفة والتي يث فيها الشكوى من طول الأسر ويناشد أميره وابن عمه سيف الدولة أن يفك هذا الأسر ويفخر بنفسه لأنه البطل الذي لا وجود الزمان بمثله . يقول أبو فراس :

أمن بعد بذل النفس فيما تريده	أثابُ بِمُرِّ العتب حين أثابُ
فليتك تحلو والحياة مريرة	وليتك ترضى والأنام غصابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ	وبيني وبين العالمين خرابُ

ونراه في مكان آخر يدعو أميره إلى فك أسره فقد أضناه السهر وقلة النوم :

دعوتك للجفن القريح المسهد	لدي وللنوم القليل المشرد
وما ذاك بخلاً بالحياة وإنها	أول مبذول لأول مجتد
متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى	طويل نجماد السيف رحب المقلد
يدافع عن أعراضكم بلسانه	ويضرب عنكم بالحسام المهند

وتحفر قيود السجن في نفسه جرحاً عميقاً ويبلغ ألمه سماء الروح فتنهار
نفسه خاصةً بعد أن علم أن أمه قد جاءت سيف الدولة وزدها خائبة. فلا يجد
أبو فراس متنفساً لروحه وهمه سوى الشعر فيرسله عتاباً لا ذعاً قاسياً يذكر فيه
سيف الدولة بنفسه وبمكانته:

يا واسع الدار كيف توسعها	ونحن في صخرة نزلها
يا ناعم الثوب كيف تبدله	ثيابنا الصوف ما نبدلها
يا راكب الخيل لوبصرت بنا	نحمل أقيادنا وننقلها
رأيت في الضر أوجهاً كرمت	فأرق فيك الجمال أجملها

ويتألم لعودة أمه إلى منبج حزينة خائبة فيقول إنه لولاها لما خاف من الموت
ولقدّم نفسه إلى الموت راضياً:

لولا العجوز بمنبج	ما خفت أسباب المنيّة
ولكان لي عما سألت	من الفدا نفس أبيّة

ولا ينسى في غمرة أحزانه أن يفخر بقومه:

ونحن أناسٌ لا توسط بيننا	لنا الصدر دون العالمين أو القبر
أعزّ بني الدنيا وأعلى ذوي العلا	وأكرم من فوق التراب ولا فخر

وأخيراً يفتدى أبو فراس كما يفتدى غيره من الأسرى، فيخرج من الأسر
بنفس محزونة جريحة ويوليه سيف الدولة حمص فيبقى بها حتى وفاة الأمير،
وعندما يتولى أبو المعالي (سعد الدولة) ابن سيف الدولة الحكم تنشب حرب بينه
وبين خاله أبي فراس يلقي الشاعر فيها حتفه وهو في أوج شبابه.

ويدور السؤال في أنفسنا ، هل تركت حلب في نفس أبي فراس أثراً ،
وهل شككت عنده حلماً يطمح إلى تحقيقه؟

ويأتينا الجواب من خلال رحلة حياته وشعره .

لم تكن حلب عند أبي فراس مطلب نفس أو موطن حلم طمعاً بالمنصب
أو الجاه كما كانت عند المتنبي ، لأن حلب كانت الموطن الحقيقي في حياة أبي
فراس ، فقد عاش فيها جلّ حياته ومنها نهل علومه وآدابه ، وفي بلاد سيف
الدولة رضع لبن الشعر والفروسية . فهي عنده الحياة نفسها ، وكان قربه من
أميره غاية الأمل وقمة السعادة .

لقد تركت حلب في نفس الأمير أبي فراس أثرها الكبير ، ولكن انشغال
أبي فراس بالحروب والمنافسات الشعرية مع المتنبي ومحاربة خصومه في الداخل
والخارج شغلته عنها فلم يذكرها في شعره أبداً .

ولئن اختفت حلب من شعر أبي فراس فإنها لم تغادر قلبه أبداً .

أما الصنوبري :

فإن حلب لم تفارق مخيلته أو شعره فقد كان دائم التذكر لها ولطبيعتها
فقد كان يُلقب بشاعر الطبيعة التي استهوته محاسنها . وكان يصف حلب في
معظم قصائده ويصف طبيعتها ونهرها . ففي قصيدة له يصف حلب فيها يقول :

أنا أحمي حلباً داراً وأحمي مَنْ حماها
أيّ حسنٍ ما حوته حلبٌ أو ما حواها

سَرُوهَا الداني كما تد	نوفتاة من فتاها
حلب أكرم مأوى	وكريم من أواها
بسط الغيث عليها	بسط نور ماطواها
وكساها حللاً أبـ	سدع فيها إذ كساها
حلاً لحمتها السو	سن والورد سداها
وعيون النرجس المد	هل كالدمع نداها
وخدود من شقيق	كاللظى الحمر لظاها
وثنايا أقحوانات	سنا الدر سناها
فاخري يا حلب المدن	يزدجهاك جاها
إنه إن تكن المدن	رخاخاً كنت شاها

وفي قصيدة ثانية له يمدح حلب قائلاً:

سقى حلب المزن مغنى حلب	فكم وصلت طرباً بالطرب
وكم مستطاب من العيش لذ	بها إذ بها العيش لم يستطب
إذا نشر الزهر أعلامه	بها ومطارفه والعذب
غدا وحواشيه من فضة	تروق وأوساطه من ذهب

ولا ينسى نهر قويق فهو النهر الذي يزين مدينته التي يحبها ، ولكن هذا النهر صغير يمرض في الصيف فيصبح هزيراً ضعيفاً . أما في الشتاء فهو النهر الذي يضاهي دجلة والفرات والنيل في جريه:

قويق إذا شم ربح الشتاء	أظهر تيهها وكبراً عجيباً
وناسب دجلة والنيل والفرات	رات بهاء وحسناً وطيباً
وإن أقبل الصيف أبصرته	ذليلاً حقيراً حزيناً كئيباً
إذا ما الضفادع نادينه	قويق قويق أبي أن يجيباً

أما كشاجم الرملي: أحد شعراء بلاط سيف الدولة فيرى في حلب
المدينة المنيرة التي تحمي من يجاورها، بل إنها جنة الخلد تحوي كل ما يطيب
للإنسان فيها:

وما منعت جارها بلدة كما منعت حلب جارها
هي الخلد تجمع ما تشتهي فزرها فطوبى لمن زارها

وهكذا فإن عصر سيف الدولة كان عصر الشعر والأدب والعلم والفن والفكر
قطف كل لون منها وردة فكانت روضة عظيمة ينهل منها الجميع بفضل أميرها الذي
كان طلبة الشعراء والعلماء والأدباء.

وتبرز في هذه الفترة شخصية أدبية وسياسية أغفلتها كتب الأدب طويلاً ووجدتها
في رسالة أدبية حُضِّرت لنيل درجة الماجستير^(١). هذه الشخصية الأدبية هي الوزير
المغربي الذي كان لحلب أثر كبير في حياته وشعره. فمن هو الوزير المغربي؟! . .

إنه أبو القاسم الحسين علي أديب وشاعر وسياسي ولد في حلب سنة ٣٧٠
هـ وعاش طفولته فيها، ثم غادرها وهو صبي في الحادية عشرة من عمره سنة ٣٨١
هـ، ولم تكتب له العودة إلى حلب مرة ثانية طيلة حياته التي قضاها متنقلاً ما بين مصر
والعراق وفلسطين والحجاز وديار بكر. إلا أنه ومع بُعد الشقة بينه وبين مسقط رأسه
(حلب) ظل مشدوداً إليها بحبل متين، فكان يعبر عن تعلقه بها بشعر رقيق أظهر فيه
وفاء لهذه المدينة العريقة والعزيزة على قلبه وعبر عن شدة شوقه إليها لأنها ملكت قلبه
فهو موطنه الأول الذي بقي الموطن الذي يفضل على أي موطن آخر.

صحيح أن أسرة المغربي فارسية الأصل في نسبها، عراقية الموطن، إلا أنها
كانت عربية الهوى فقد عين الخليفة العباسي المقتدر بالله عميد الأسرة علي بن محمد
ديوان المغرب (ويقصد بالمغرب الجانب الغربي من مدينة بغداد) فاكتملت الأسرة

(١) رسالة ماجستير أعدها الأستاذ خالد معدّل في جامعة حلب بعنوان (الوزير المغربي).

نسبة (المغربي) من هذا المنصب ، وعندما تسلط البويهيون على الخلافة العباسية غادر آل المغربي العراق إلى مصر فأقاموا هناك ، وفي عهد كافور غادروا مصر لما لحقهم من ظلم كافور ، والتحقّت الأسرة بالأمير سيف الدولة الحمداني ، وقد لقيت أسرة المغربي بحلب كل العناية من سيف الدولة ، وتقلد عميدها آنذاك الحسين بن علي وزارة الدولة الحمدانية ، ثم تقلد ابنه أبو الحسن علي الوزارة من بعده ، ولكنه تخطى عن الوزارة وغادر حلب إثر خلاف نشأ بينه وبين الأمير أبي المعالي فجمع أهله وغادر إلى مصر . وهناك استقر عند الخلفاء الفاطميين الذين رحبوا به وقلّدوه أرفع المناصب .

وفي حلب كانت ولادة شاعرنا وأديبنا الوزير المغربي أبي القاسم الحسين بن علي وتربى على يد شيوخها وعلمائها وأدبائها أمثال أبي القاسم الأسامي الحسين بن علي (من ولد أسامة بن زيد) . وتابع في مصر علومه على يد علماء مصر وشيوخها وعلى رأسهم أبو أسامة جنادة بن محمد بن حسين الأزدي الهروي .

ولكن أيام السعادة لم تدم لهذه الأسرة ، فقد نكب الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الأسرة وقتل أبا الحسن علي بن المغربي (والد الوزير المغربي) وأخاه ، وكذلك قتل إخوة الوزير المغربي محمد والمحسن . أما أبو القاسم (الوزير المغربي) فقد فرّ من القاهرة إلى الرملة ، ثم غادرها إلى العراق ، ثم إلى ميفارقين ، وبقي فيها إلى وفاته سنة (٤١٨ هـ) حيث دفن في الكوفة بناءً على وصيته .

حلب في شعر الوزير المغربي:

احتلت حلب في قلب الوزير المغربي مكان الصدارة ، وظلت صورتها المشرقة ماثلة في خياله وفكره وما فتئ يذكرها في شعره الرقيق الذي يفصح عن حب جارف قل أن نجد له شبيهاً لدى غيره من الشعراء . ورغم ابتعاده الطويل عن حلب فقد ظل حبه لها يتجدد مع نبضات قلبه ، ولكن كيف الوصول إليها والمزار بعيد . فيقول معبراً عن شوقه إليها:

ملّ بي إلى حلب أعللُ ناظري فيها غداة تحثّ بي الأشواقُ
بلدٌ أرقّتْ به مياه شبيتي حيث النجيع إذا أردتْ مُراقُ

إنّ حب الشاعر لمدينته بلغ حدّ العشق ، فعواطفه منصرفة إليها ، ولذلك
فهي ملكت عليه هواه . وهو في قمة وَجْدِهِ يطلب قلبه فلا يجده إلا في
حلب . يقول :

أما إلى حلب فقلبي نازحٌ أبداً وماء علاقتي متصوبُ
بلدٌ عرفتُ بها العذول مكمماً عني وشيطان الغواية يَحْلُبُ
أيام أركب من شبابي جامحاً فيمرُّ بي فيما يشاء ويذهبُ
هيهات، لا تلك الليالي عودٌ أبداً ولا ذاك الزمان معقبُ
لهفي عليه وإن نمطق عاذلٌ فيه وأفصح عنه جنبسٌ مهذبُ

ومن شدة حبه لمدينته فهو يعشق كل معلّم فيها ويحنّ إليه . يقول :

حنّ قلبي إلى معالم بابل^(١) حنين المولّه المشغوف
مطلبُ اللهو والهوى وكناس الـ خُرد العين والظباء الحصيف

وهو معجبٌ بنهر قويق ذلك النهر المعطاء فخصّه الوزير المغربي بقصيدة تنم
عن شدة إعجابه به فقال :

أما قويقُ فلا عدته مُزنةٌ من خدرها برز الغمام الصيّبُ
نهرٌ لأبناء الصباة معشقٌ فيه وللصادي الملوّح مشربُ

لقد ظل قلب الوزير المغربي مُعلّقٌ بمدينة حلب وظل ملكاً لها منذ أن غادرها
مع أهله إلى مصر وحتى وفاته في ميفارقين بديار بكر .

(١) بابلًا: هي قرية من أطراف مدينة حلب أصبحت الآن إحدى ضواحي المدينة وتسمى (باب الله)

وفي عصر بني مرداس انخفضت مرتبة الأدب ولم تعد مدينة حلب تشهد نشاطاً متميزاً وملحوظاً كما شهدته في عصر سيف الدولة، ولكنها لم تخلُ من إضاءات أدبية تمثلت في ظهور بعض الشعراء والأدباء أمثال ابن القيسراني شرف الدين أبي عبد الله محمد المخزومي الخالدي (الحلبي)، وأبو الفتح بن أبي الحصينة المعري (وهو غير أبي العلاء المعري الشاعر المشهور).

واشتهر في زمن الأيوبيين ابن شدّاد صاحب كتاب (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) الذي يحكي أخبار الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي. وقد تولى هذا المؤرخ الأديب أرفع المناصب القضائية في عهد صلاح الدين الأيوبي.

أما في عهد الملك الظاهر بن الناصر صلاح الدين فقد شُيّدت المدارس وكثر طلاب العلم والأدب، وكثرت المدارس حتى زادت على الثلاثمائة مدرسة، وجعلوا لها أوقافاً غنية وكبيرة حتى أن حلب قد دُعيت في ذلك الوقت بـ (حلب الأوقاف). وكان أول مدرسة قد عُرفت فيها هي المدرسة الزجاجية التي بناها (بدر الدين بن سليمان بن أبي الريح) حاكم حلب سنة ٥١٦هـ.

وفي القرن الثالث عشر ولد في حلب بهاء الدين محمد بن إبراهيم المشهور بـ (ابن النحاس) الذي كان إمام اللغة والنحو في زمنه، كما اشتهر القاضي الحلبي الشهير (ابن العديم) والذي عُرفَ كمؤرخ وأديب وكتابه (زبدة الحلبي في تاريخ حلب) طارت شهرته في الآفاق وكان من أهم كتب التاريخ لمدينة حلب. وكذلك اشتهر المؤرخ المعروف (ابن الشحنة) صاحب كتاب (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب).

ولكن هذه الإضاءات الأدبية لم تستمر طويلاً، فقد دمّرت غزوات المغول التي اجتاحت الدول العربية والإسلامية كل مظاهر الحضارة والعلوم التي كانت تزين تلك البلاد. وكانت حلب إحدى أهم المدن التي تعرضت لكوارث المغول فخبا فيها نور العلم والأدب، وأغلقت فيها المدارس ورحل كثير من أدبائها وعلمائها عنها إلى مصر والمغرب.

ومع إطلالة القرن السابع عشر بدأت حلب الشهباء تستعيد مكانتها الأدبية مرة أخرى، وراحت تبني من جديد صرح نهضتها العلمية والأدبية، فبرز فيها علماء أفذاذ وأدباء كبار أمثال ابن الجزري (حسين بن حمد الحلبي)، ونور الدين علي بن برهان الدين مؤلف كتاب (السيرة الحلبية) وغيرهم من الأدباء والشعراء والمؤلفين.

وفي القرن الثامن عشر بلغت حلب مرة أخرى عصرًا ذهبيًا جديدًا^(١)، فقد توطدت فيها أركان النهضة الأدبية، وكثر فيها الكتاب والمؤلفون وكادت تزيد مؤلفات أبناء مدينة حلب من الأدباء والمفكرين على ما ألف في سورية ومصر والعراق، ومَرَدُّ ذلك إلى وجود المطبعة في حلب، وكانت أول مطبعة عربية أصدرت كتباً بحروف عربية.

وما يجدر ذكره هنا أن حلب قد نشطت في القرنين السابع عشر والثامن عشر في مجال العمل الأدبي، فأسسوا المدارس واهتموا بالطباعة وساهموا في نشر الكتب على نطاق واسع.

وليست كل خطوات الازدهار الأدبي والتطور الحاصل في الحضارة العربية في القرن التاسع عشر والذي ظهر في لبنان ومصر إلا ومنطلقه الأول من مدينة حلب. فقد زخرت هذه المدينة العظيمة بالمكتبات والصحف والأدباء الذين يفوق عددهم في هذه الفترة كل ما وجد في باقي الأقطار العربية.

ففي مجال الصحافة تذكر السيدة عائشة الدباغ في كتابها (الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين) أنه لم يكن يوجد في حلب قبل عام ١٩٠٠م أكثر من ثلاث صحف. ولكن بعد إعلان الدستور ظهرت صحف عديدة، وشجع على صدورها أن الحكومة كانت تمنح الرخص (دون تقاضي رسوم استيفاء)، ولكن هذه الصحف لم تكن تستمر في صدورها أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر كحد أقصى، ثم تتوقف عن الصدور إما بسبب مادي أو لأن أصحابها لم يعودوا يملكون ما يكتبون.

(١) المصدر هو كتاب (حلبيات) لمؤلفه الشاعر عبد الله يوركي حلاق.

والصحف التي صدرت في تلك الفترة هي:

١- جريدة الفرات: وهي أول جريدة صدرت في حلب باللغتين العربية والتركية، وصدرت عام ١٨٦٧ وكانت أسبوعية تنشر أخبار الحكومة وإعلاناتها والأحداث الداخلية والخارجية. وقد تأسست هذه الصحيفة في زمن والي حلب المؤرخ التركي (جودت باشا) وتولى تحريرها (رئيس الديوان) في الولاية، وتولى الترجمة فيها المفكر العربي الشهير عبد الرحمن الكواكبي مدة خمس سنوات، ثم تولى هذا العمل المؤرخ كامل الغزي، واستمرت الصحيفة في الصدور حتى بداية الحرب العالمية الأولى.

كانت هذه الصحيفة في بداية عهدها قليلة الانتشار ركيكة العبارة تصف ما يدور في الولاية من شئون اجتماعية وسياسية وجل أمرها هو تمجيد السلطنة والحكم العثماني. ولكنها مع إعلان الدستور تحسن مستواها وبدأت تكتب في قضايا متنوعة من سياسية واجتماعية واقتصادية وأصبحت متداولة بين الناس.

٢- جريدة الشهباء: وهي صحيفة أسبوعية ظهرت في أيار ١٨٧٧ وكان صاحبها هو الحاج هاشم العطار، ثم شارك في تحريرها ميخائيل الصقال وعبد الرحمن الكواكبي، ولكن الوالي العثماني أوقف صدورها بعد أيام قليلة من صدورها.

٣- الاعتدال: وصدرت هذه الصحيفة في ٢٥ تموز سنة ١٨٧٩ وكان صاحبها هو عبد الرحمن الكواكبي، وقد صدرت هذه الصحيفة بعد إغلاق صحيفة الشهباء. وهي صحيفة أسبوعية كسابقتها، وقد ظهرت باللغتين العربية والتركية وكان التحرير في ذلك هو أن هذا الإصدار إنما يتم تعميماً للفائدة بين سكان ولاية حلب الذين يغلب عليهم العنصر التركي. أما هدفها وخطتها فقد ذكر في العدد الأول من الصحيفة، فقد ذكر محررها أن الهدف هو التنديد بتصرفات الحكومة السيئة، وفضح سوءات الموظفين، ونشر كل ما يقتضيه تهذيب الأخلاق وتوسيع دائرة المعارف من أبحاث علمية وسياسية وغيرها..

أما بعد سنة ١٩٠٠ م فقد كثرت الصحف في حلب وتنوعت . وسنذكر تلك الصحف كما وردت في كتاب (الحياة الفكرية في حلب) للسيدة عائشة الدباغ ، وكتاب (حلييات) للشاعر الحلبي عبد الله يوركي حلاق .

اسم الصحيفة	صاحبها	سنة صدورها	اتجاهها
١- مكتبلي	فاتح عمري وأحمد سامي	١٩٠٥	نشر أفكار المعلمين والدفاع عن حقوقهم والبحث في أصول التدريس
٢- حلب الشهباء	محمد نافع طلس	١٩٠٨	سياسية هدفها خدمة الوطن والجامعة العثمانية
٣- صدى الشهباء	حكمت ناظم ، كامل الغزي	١٩٠٨	علمية أدبية سياسية تجارية إخبارية زراعية
٤- التقدم	شكري كنيدر	١٩٠٨	هدفها قول الحقيقة ومدح المخلصين والتنديد بالمستبددين الظالمين
٥- الخطيب	إبراهيم المؤذن	١٩٠٩	سياسية انتهازية - لم تدم أكثر من سنة
٦- الشعب	ليون حمصي ، وفتح الله قسطنطين	١٩٠٩	حيادية إخبارية تؤيد تعليم المرأة
٧- مسخرة	نوري ومانوئيل	١٩١٠	فكاهية ، مرحة لم تدم أكثر من ٥-٦ أشهر
٨- الكشكول	فاتح عمري	١٩١٠	تبحث عن الحقيقة أينما كانت ، لم تدم أكثر من ٣-٤ أشهر
٩- الأهالي	مانوئيل وعاصم	١٩١٠	سياسية اجتماعية كانت تصدر باللغتين العربية والتركية

١٠- لسان الأهالي	أرداشيس بوغيكيان	١٩١٠	اجتماعية، اقتصادية، وطنية ذات نزعة سلطوية تميل إلى السلطات التركية
١١- الإعلان	فتح الله قسطون	١٩١٠	اجتماعية، فكاهية، رياضية، تنشر الصور المتحركة والموسيقى
١٢- تنوير الأفكار	عيسى محمد هاشم	١٩١١	تصدر باللغتين التركية والعربية، وطنية، سياسية، اجتماعية، استمرت بحدود ٦ أشهر ثم توقفت
١٣- المرسح	محمود دهني	١٩١١	هزلية تعالج مشاكل المجتمع بأسلوب القصة على لسان الطيور والحيوانات مثل (كليلة ودمنة)
١٤- النهار	حسين حازم	١٩١١	كانت تصدر باللغة التركية، وهي سياسية تبحث في شؤون الوطن
١٥- الصدق	مصطفى الحمصي	١٩١١	صحيفة أدبية تسعى إلى نشر المقالات الجيدة وتنقل أوثق الأخبار، تعالج موضوعات اجتماعية
١٦- العفريت	سامي غالي ومحمد الحمصي	١٩١١	اجتماعية فكاهية
١٧- الغول	مصطفى رشواني	١٩١١	سياسية اجتماعية
١٨- هوبالا	مانوئيل	١٩١١	اجتماعية، فكاهية، أدبية
١٩- تشبث	مانوئيل	١٩١١	اجتماعية، فكاهية، أدبية
٢٠- العرب	أحمد سامي سراح	١٩١٨	اجتماعية - سياسية

وفي العهد الفيصلي: صدرت صحف عدة في حلب ساهمت بشكل كبير في رفق الحركة الأدبية والفكرية، (وقد أورد الأستاذ الشاعر عبد الله يوركي حلاق في كتابه (حلبيات) أسماء تلك الصحف وأصحابها وسنة صدورها) وسنوردها كما ذكرت في الكتاب المذكور:

اسم الصحيفة	صاحبها	سنة صدورها
حلب	جريدة رسمية	١٩١٨
الصاعقة	بطرس معوض	١٩١٨
حقوق البشر	عبد الحميد الجابري	١٩١٩
النهضة	محمد صبحي بصره جي	١٩١٩
الراية	منيب الناطور	١٩١٩
المصباح	عبد الحميد وعبد الودود كيالي	١٩١٩
البريد السوري	فاضل شكري أسود	١٩١٩
الفرات	مارديروس حكيمان	١٩١٩
العدل	محمد صبحي بصره جي	١٩٢٠
الوطن	شاكر نعمت الشعباني	١٩٢٠

ولم تنقطع الصحف عن الصدور بعد الاحتلال الفرنسي رغم محاولات الاستعمار الفرنسي الذي حاول كم الأفواه وإسكات صوت الشعب ، ولكن أبناء حلب وكغيرهم من أبناء المدن السورية والعربية لم يستكينوا لمحتل أبداً فرفعوا صوتهم عالياً وأصدروا الصحف ليقولوا كلمة الحق ، وليعبروا عن استنكارهم للاحتلال ورفضهم له .

فصدرت صحف عديدة نذكرها جميعاً .

اسم الصحيفة	صاحبها	سنة الصدور
الامة	بطرس معوض	١٩٢٠
الآمال	صديق صندوق	١٩٢١
سورية الشمالية	أنطون يوسف اكي شعراوي	١٩٢١
شنق	زكريا رضا	١٩٢١
المرسح	نجيب كنيدر	١٩٢١

ويذكر أن هذه الصحيفة صدرت قبل ذلك سنة ١٩١١ على يد (محمود دهني) وقد توقفت عن الصدور ثم صدرت مرة ثالثة سنة ١٩٢٦ .

اسم الصحيفة	صاحبها	سنة الصدور
الترقي السوري	بهاء الدين الكاتب	١٩٢٣
الكلمة	الأب بولس قوشاقجي	١٩٢٤
الوقت	طاهر سماقية	١٩٢٥
الميثاق	محمد شرف الدين الفاروقي	١٩٢٥
الثعبان	فؤاد حسني المدرس	١٩٢٦
الاتحاد	محمود وهبي	١٩٢٦
على كيفك	فهمي الحفار وإلياس قيشر	١٩٢٧
التاج	أمين تاج الدين	١٩٢٧
السلام	جلال قدرى	١٩٢٨
الأهالي	شاكر نعمت الشعباني	١٩٢٨
الجهاد	محمود فهمي الحفار	١٩٢٨
الكشكول	فتحي العوف	١٩٣٠
الحوادث	مفيد الحسيني	١٩٣١
الشباب	محمد طلس	١٩٣٦
النذير	أحمد قنبر	١٩٣٦
العمل القومي	أبو الهدى اليافي	١٩٣٨
الحوادث (مرة ثانية)	حسين الشعباني وحسن عبد العال	١٩٣٩
الإصلاح	حسن توفيق عبد العال	١٩٤٠

وفي عهد الاستقلال: استمرت الصحف بالصدور ، وبرزت صحف جديدة تابعت مسيرة الصحف التي توقفت في عهد الاستعمار الفرنسي فكانت مشاعل نور في طريق تطور الأمة العربية ، وهذه الصحف هي:

اسم الصحيفة	صاحبها	سنة الصدور
التربية	عبد السلام الكاملي	١٩٤٦
الجهاد العربي	رشاد برمدا ومحمد فهمي الحفار	١٩٤٦
الجمهورية	أشرف الكاتب	١٩٤٧
النجم الجديد	عبد الرحمن أبو قوس	١٩٤٧
الأمة العربية	أحمد طلس وصلاح الدين بضمه جي	١٩٤٩
صوت التقدم	إميلي سعيد	١٩٤٩
اللواء	ادوار نون	١٩٤٩
الدستور	حسام الدين الخطيب	١٩٤٩
طريق الجهاد	علاء الدين الرافي وعبد القادر الحفار	١٩٥٠

وقد غيّر الأستاذ الحفار اسم جريدته أكثر من مرة، ففي عام ١٩٥١ سماها (مراحل الجهاد) وفي عام ١٩٥٦ سماها (الجهاد) وفي عام ١٩٥٦ سماها (نداء العروبة)

اسم الصحيفة	صاحبها	سنة الصدور
الجمهورية	فيكتور كورنلي	١٩٥١
الرشد	فيكتور كالوس	١٩٥١
المراحل	الدكتور سيف الدين جليبي	١٩٥١
الحرية	المحامي جوزيف اليان	١٩٥١
النداء	عبد الرحمن أبو قوس	١٩٥٢
الإصلاح	حسن عبد العال وحسين الشعباني	١٩٥٢
العهد الجديد	محمد طلس ونقولا جانجي	١٩٥٢
العالم العربي	أحمد طلس	١٩٥٢
الجهاد العربي	عبد القادر الحفار	١٩٥٢

الجمهور العربي	طاهر سماقية	١٩٥٣
الميزان	حسن عبد العال وعدنان محي الدين	١٩٥٣
الجماهير	علاء الدين حمود	١٩٥٤
الأسبوع الرياضي	كامل النبي	١٩٥٥
آخر دقيقة	صلاح الدين بسمه جي	١٩٥٦
الاتحاد	حسن عبد العال ومحي الدين رسلان	١٩٥٦

ويلاحظ أن بعض أصحاب الصحف يغيرون أسماء صحفهم أكثر من مرة وبعد كل إصدار جديد من أمثال (عبد القادر الحفار كما ذكرنا سابقاً وحسن عبد العال وحسين الشعباني ومحمد طلس وغيرهم . .).

وفي عهد الوحدة: صدرت صحيفة واحدة هي "الحرية" للمحامي شفيق سعيد ١٩٥٩ .

وفي مرحلة الانفصال: صدرت مجموعة من الصحف هي:

اسم الصحيفة	صاحبها	سنة الصدور
العروبة	وأصدرتها السلطة الحكومية في ذلك الوقت	١٩٦٢
العالم العربي	أحمد رشيد البيك	١٩٦٢
المرصاد	فاتح حبابا	١٩٦٣

أما في عهد ثورة آذار فقد صدرت صحيفة واحدة عن مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر هي صحيفة الجماهير ولا تزال تصدر حتى الآن .

أما المجلات: فقد عرفت حلب منذ أواخر القرن التاسع عشر العديد من المجلات صدرت في تلك الفترة، وكان هدفها الأساسي بث روح النهضة في نفوس أبناء الوطن وتجديد فكرهم، وإيصالهم إلى شاطئ المعرفة والتطور . وقد

مثلت هذه المجلات في عصرها نوعاً جديداً من المعرفة والفكر ارتفع بالفكر القومي والأدبي ونهض بالروح القومية والوطنية .

وقد ضمت تلك المجلات كثيراً من المواعظ والحكم الأدبية ، وكثيراً من المنظوم والمنثور . وأهم المجلات التي صدرت في تلك الفترة هي :

١ - الشذور أو (رسائل أدبية) :

وقد أصدرها الأديب عبد المسيح الأنطاكي سنة ١٨٩٧ ، وقد ضمت هذه المجلة المواعظ والحكم ، وبعض الاتجاهات التهذيبية زينها صاحبها بمنتخبات شعرية للمتنبي ، وقابل هذه الأبيات كما تذكر صاحبة كتاب (الحركة الفكرية في حلب) بأقوال أرسطو .

ولم يصدر عن مجلة الشذور سوى اثنتي عشرة شذرة (أي عدداً) ثم سافر صاحب المجلة إلى مصر فانقطع صدور المجلة في حلب وأصدر صاحبها مجلة (الشهباء) عوضاً عنها في مصر .

٢ - فوائد :

صدرت هذه المجلة سنة ١٩٠٩ باللغتين العربية والتركية ، وقد أخذت المجلة على عاتقها (نشر المقالات المفيدة لتهذيب النفوس وبث روح المدنية وتنوير أفكار الأمة) ، كما عمدت إلى نشر الروايات المتسلسلة ، وقد حققت المجلة نجاحاً ملحوظاً في بداية عهدها ، وكانت قد وعدت أن تبحث في مشكلات اجتماعية وتعالجها . وقد ركزت في أعدادها الأولى على مشكلة تعليم الإناث ، وأشارت إلى قلة المدارس المخصصة للإناث ، وحثت على الاهتمام بهذه المشكلة .

٣ - الورقاء:

وصدرت في حلب سنة ١٩١٠ وأصدرها الخور فسقفوس جرجس شلحت ، وهي مجلة علمية أدبية صناعية ، ولعلها كانت المجلة الأولى في حلب من نوعها ، فهي تبحث في المجتمع وأصله في المعارف البشرية ، وفي الأمور الفلسفية من منطق وميتافيزيقا ، وتهذيب الأخلاق ، وكذلك في الاقتصاد .

وإلى جانب ذلك لا تهمل المجلة المرأة فهي تفرد لها فصولاً خاصة في أعدادها . وتناولت كذلك مشكلة اللغة العربية وأسباب انحطاطها ، وطريق الوصول إلى رقيها . ولم تهمل جانب البحث العلمي فركزت عليه وأفردت له مقالات عديدة .

٤ - في العهد الفيصلي:

تابع أبناء حلب إصدار المجلات التي تهتم بالفكر والأدب وقول الكلمة الجريئة وبث روح الوطنية في نفوس أبناء الوطن . وساهموا من خلال هذه المجلات برفد الفكر الإنساني والعربي بكل عوامل التطور والازدهار . وأهم هذه المجلات كما أوردتها كتاب "حلبيات" للشاعر الأستاذ عبد الله يوركي حلاق .

اسم المجلة	صاحبها	سنة الصدور
١- الشعلة	فتح الله قسطوق	١٩٢٠

وفي مرحلة الاستعمار الفرنسي صدرت المجلات التالية:

اسم المجلة	صاحبها	سنة الصدور
١- حديقة التلميذ	المدرسة الفاروقية	١٩٢٤
٢- الكشف العربي	عبد القادر شوا	١٩٢٤
٣- الحديث	سامي الكيالي وادمون رباط	١٩٢٧
٤- الفجر	عطا الله الصابوني	١٩٢٧
٥- القربان	الأب اغناطيوس سعد	١٩٢٧
٦- الكلمة	فتح الله الصقال	١٩٢٩
٧- الاعتصام	عبد الله العز وعون الله الاخلاصي	١٩٢٩
٨- الجامعة الإسلامية	محمد علي الكحال	١٩٢٩
٩- رسالة العمال	ميخائيل آجيا	١٩٢٩
١٠- المرأة	نديمة المنقاري الصابوني	١٩٣٠
١١- الضاد	يوسف شلحت وعبد الله يوركي حلاق	١٩٣١
١٢- العاديات	جمعية العاديات	١٩٣١
١٣- الراوي	ثابت تاج الدين	١٩٣٩

وفي عهد الاستقلال صدرت المجلات التالية:

اسم المجلة	صاحبها	سنة الصدور
١- الطفل	عبد الله الخطيب	١٩٤٦
٢- الإحسان	هاشم المارتيني	١٩٤٨
٣- المعرفة	خالد قوطرش	١٩٤٨
٤- الرسالة	جورج شاشاتي (النادي الكاثوليكي) بحلب	١٩٥٠
٥- اليقظة	جمعية اليقظة الأرثوذكسية بحلب	١٩٥٤
٦- الرائد	محمد علي القباني	١٩٥٤
٧- الرائد	محمد علي القباني	١٩٥٤

أما في مرحلة الانفصال:

فقد صدرت مجلة واحدة هي "السنابل" وصاحبها فيكتور كالوس عام ١٩٢٦.

ولازالت تصدر في حلب إلى الآن مجلات الكلمة والضاد واليقظة والعاديات.

المكتبات في حلب:

كانت حلب ولازالت غنية بالكتب والمكتبات. ويعود ولع أبناء حلب بالكتب واقتنائها إلى أزمنة بعيدة حتى لقد استحكمت فيهم هذه العادة وأصبحت من مسلمات حياتهم وطقوسها فقد اتخذوا الكتب وسيلة للتباهي والتفاخر أمام الناس، فالكتب هي الوسيلة الأهم والتي تجعل مَنْ يكتنيها يبدو بمظهر المهتم بشؤون الأدب بل يفاخر بأنه من أهل الأدب والعلم وأنه من طبقة عليا في المجتمع. وكان هؤلاء يعنون باقتناء المخطوطات النادرة ويذلون في استنساخ الكتب الأموال الطائلة، ويجلدونها بجلد أنيق فاخر، كل ذلك من أجل التفاخر في أوساط العائلات الحلبية المشهورة.

ومع ذلك فإننا لا ننكر أن كثيراً من أهل حلب كان يهتم بالكتاب لأنه خزانة الفكر ومستودع الأدب وكانوا ينهلون منها العلوم والآداب حتى برع لديهم كثير من الأدباء اشتهروا على مر التاريخ.

ومن أهم المكتبات التي أنشئت في حلب:

١ - المكتبة الأحمدية: أنشئت في القرن الثاني عشر للهجرة وصاحبها هو أحمد الجلبى طه زاده. ووقف عليها ما ينيف عن ثلاثة آلاف مجلد، وكانت

هذه المكتبة تفتح أبوابها للرواد أيام الأحد والاثنين والأربعاء والخميس من كل أسبوع . ولكنها في أيام الغزي اقتصرت أيام استقبالها للرواد على يومي الاثنين والخميس شرط أن لا يخرج منها أي كتاب .

٢ - المكتبة العثمانية: أسسها عثمان باشا الدوركي في القرن الثالث عشر للهجرة (وصاحبها هو مؤسس المدرسة العثمانية المعروفة بالرضائية) .

وقد بلغ عدد المخطوطات فيها ألف وخمسمائة مجلد . وكان يستفيد منها الطلاب المجاورون ، وكانت تفتح أبوابها للعموم يوم الخميس من كل أسبوع .

٣ - مكتبة الجزائر: صاحبها السيد محمود الجزار . وقد جعل مكتبته وقفاً للجامع الأموي الكبير وقد حوت كتباً كثيرة متنوعة في الأدب والفلك والرياضة والعلوم والدين .

٤ - المكتبة الحسروية: وتضم هذه المكتبة شتى أنواع الكتب في الفقه والتصوف والطب الحديث النبوي والتفسير وفي النحو والصرف أيضاً .

وهناك مكاتب عديدة توزعت في مدينة حلب كالمكتبة القرناصية والمكتبة الرفاعية والمكتبة الصديقية والسكاكينية والإسماعيلية والكواكبية وغيرها . .

وبالإضافة إلى ذلك وجدت مكاتب خاصة انتشرت في البيوت الحلبية وكانت تضم الكتب الثمينة والمخطوطات النادرة .

فمكتبة مصطفى آغا كتبخدا المنزلية كانت تضم ألفاً وخمسمائة مجلد متنوع العلوم والمعارف . وكذلك مكتبة محمد زكي بك بن (حميد باشا) وكانت تضم نحو ثلاثة آلاف مجلد .

وكذلك مكتبة مرعي باشا الملاح التي أوقفها أثناء حياته إلى المدرسة الخسروية . ومكتبة الحاج عبد القادر الجابري (مفتي حلب في تلك الفترة) . ومكتبة آل المدرّس ومكتبة قسطاكي الحمصي التي جمع فيها أيضاً بالإضافة إلى كتبه مكتبة خاله جبرائيل الدلال . وغيرها من المكتبات الخاصة والمكتبات التي أنشأتها الطوائف الدينية والتي كانت تدل على اهتمام أبناء حلب بالكتاب واحترامهم وإجلالهم ورعايتهم لهم .

المدارس في حلب:

في حلب كما في غيرها من بلدان الدولة العثمانية ، كانت المعاهد التعليمية من نوع المدارس الدينية التقليدية التي يجري التدريس فيها وفق أساليب قديمة لم تتبدل ولم تتطور منذ عدة قرون ، وكان هناك نوعان من تلك المدارس أولهما: معاهد تعليمية خاصة بالصغار تهدف إلى تعليم مبادئ الدين والقرآن الكريم ، وتدرج في فئتين: الأولى منها خصوصية يقوم على إدارتها أفراد يتقاضون أجره كل خميس عن كل ولد يعلمونه مبادئ الخط والحساب والقرآن الكريم وتسمى هذه الأجرة (الخميسية) نسبة إلى يوم الخميس الذي يتقاضون فيه الأجر . وكان هذا النوع من المدارس يسمى (الكتاب) منتشرًا في كلّ حيٍّ من أحياء حلب . أما الثانية فهي (وقفية) يجري التعليم فيها بلا مقابل لأن الأستاذ فيها يأخذ راتبه الشهري من الوقف الذي عينه لهذا الغرض .

المدارس الدينية العالية:

وهناك أيضاً معاهد عالية خاصة بالكبار ، وتهدف إلى تعليم العلوم الدينية والشرعية المختلفة بالإضافة إلى العلوم الأولية الضرورية وتعرف هذه المعاهد باسم (المدرسة) بوجه عام ، وكانت إما ملحقة بالمساجد أو مستقلة عنها ، وأنشأها بعض محبي العلم في مدينة حلب . ومن هذه المدارس التي لا تزال معروفة إلى الآن المدرسة (الشعبانية ، والعثمانية ، والقرناصية ، والسيافية ، والإسلامية ، والمنصورية ، والبهائي . . وغيرها) .

المدارس الأجنبية والطائفية النظامية:

والى جانب المدارس الدينية الإسلامية أنشئت مدارس في حلب من نوع آخر وهي مدارس أجنبية، ومدارس طائفية وطنية. فالمدارس الأجنبية كانت مدارس تبشيرية دينية كل مدرسة منها تتبع دولة أجنبية تسعى لنشر لغتها وثقافتها في المدينة وسورية من خلال المدرسة. فالمدارس التي كانت تتبع لفرنسا مثلاً كانت عديدة منها "مدرسة جان دارك" (وسميت الآن المحبة) وكذلك مدرسة "الفرنسيسكان" وهي مدرسة ودير للراهبات سميت بعد ذلك باسم السيدة مريم وكذلك مدرسة الأرض المقدسة (الترسانت) وشمبانياه (الأخوة) وغيرها .

أما الولايات المتحدة فقد أنشأت مدرسة تابعة لها هي مدرسة الكلية الأميركية (كما كان يطلق عليها قديماً وتسمى الآن معهد حلب العلمي) وقد أصبحت هذه المدارس الآن بيد الطوائف المسيحية الوطنية تخدم الوطن واللغة العربية بكل إخلاص ووطنية.

وقد أنشأت الطوائف الدينية الوطنية أيضاً مدارس عديدة ساهمت في رفق حركة التعليم والثقافة وإغناء الفكر الوطني والقومي من أمثال مدرسة (الآباء المختارين وكيليكيا والأمل ، والثانوية السورية والمركزية . . وغيرها).

وفي ظل هذه الحركة الأدبية النشطة والمتواصلة منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن برز في حلب أدباء كثر كان لهم أثر كبير وفضل لا ينكر على لغتنا العربية وعلى الحركة الأدبية في حلب وسورية والوطن العربي . ولو أنا استعرضنا هؤلاء الأدباء جميعاً لاحتاج الدرس منا مجلدات كثيرة ولكننا سنعرض لأهم هؤلاء الأدباء والذين وجدنا فيهم الصورة الأدبية المعبرة عن ساحة الأدب بواقعية مؤثرة . ونعتذر سلفاً عن ذكر من لم نذكره ونقول إن عدم ذكرنا له لن يقلل من قيمة أدبه شيئاً فالتأثير الأدبي إنما يرسخه قلم الكاتب المبدع وليس المؤرخ الناقد .

عبد الله زاخر

١٦٨٤ - ١٧٤٨

هذه الشخصية التي أقدمها تعتبر من أهم الشخصيات التي تركت أثراً كبيراً على الحياة الأدبية في القرن السابع عشر وما بعده، إذ أن السيد عبد الله زاخر كان له الفضل الأول في ظهور المطبعة العربية بحروفها العربية وبفضله بدأت الكتب القديمة تجد طريقها إلى النور وإلى أيدي عامة الناس من المثقفين .

فمن هو عبد الله زاخر، وماذا قدم للثقافة العربية المعاصرة وما هو أثره على الحياة الأدبية بشكل عام .

اسمه عبد الله زاخر بن زفريا وأمه ابركيا . ينتمي إلى عائلة حموية الأصل وتعرف عائلته بنسب (الصائع) نسبة إلى مهنة الصياغة التي كانت العائلة تمارسها .

ولد في حلب سنة ١٦٨٤ في حلب (هكذا ورد في مخطوط لتلميذ عبد الله زاخر الخوري يواكيم مطران البعلبيكي) .

وقد وصف عبد الله زاخر بأنه حاد الذكاء والفطنة وما يدل عليه أنه في سن الحادية عشرة من عمره، تعلم صناعة الصياغة وصناعة النقش اللتين ساعدتاه فيما بعد على وضع أمهات حروف المطبعة العربية الأولى في مدينة حلب . وهي المطبعة التي تنسب إلى اثناسيوس دباس (الذي كان يحتل منصب البطريرك الأنطاكي) .

وقد عملت هذه المطبعة في حلب مدة من الزمن طيلة وجود الزاخر في حلب ،
ولما انتقل إلى لبنان توقفت هذه المطبعة عن العمل .

وقد برع الأستاذ عبد الله زاخر بأكثر من عمل فني وأدبي بالإضافة إلى عمله
الأصلي . فبرع في الرسم فترك لوحات كثيرة تركها في أديرة لبنان ومنها رسمه
الشخصي ورسم أولاد عمه الأب نقولا الصايغ .

أما المجال الذي كان إنجاز فيه كبير فهو التأليف إذ أنه ألف عدداً لا يستهان به
من المؤلفات اللاهوتية (الدينية) والفلسفية وكذلك خاض غماراً الترجمة ونجح فيها
فترجم عدداً من المؤلفات إلى اللغة العربية بلغت الثلاثين لم يطبع منها إلا القليل .

وكذلك اتجه إلى مهنة نسخ الكتب (وكانت هذه المهنة رائجة قبل وجود
المطبعة) فنسخ عدداً كبيراً من الكتب في حلب لحساب البطريك اثنايوس دباس (وقد
ذكر الأستاذ زاخر نفسه ذلك في رسالة وجهها إلى الأب فروماج)^(١) .

ولنعد الآن إلى قصة صنعه لحروف المطبعة العربية التي جلبها البطريك اثنايوس
دباس من بوخارست عاصمة (رومانيا) (كما تقول بعض المصادر) ولنبدأ منذ البداية
فنقول: كان الشرق العربي سباقاً إلى ابتكار أحرف الكتابة منذ أكثر من ألف سنة .
وقد عثر على تلك الحروف في مدينة بابل وكانت قوالب ذات أثر أحرف ناتئة توضع
على الآجر الطري ثم تطبخ فتبرز الكتابة وكأنها مطبوعة .

ويمتد بنا التاريخ فنصل إلى سنة ١٤٩٠ ويظهر أول كتاب يطبع في الشرق ،
طبع في الآستانة إلا أنه طبع بالحرف العبري ، وفي سنة ١٦١٠ يصدر دير مار قزحيا
كتاب المزامير من مطبعته باللغة العربية والسريانية بحرف سرياني ، ويسمى الحرف
(الرشوني)^(٢) .

(١) عبد الله زاخر - د . جوزيف الياس كحالة .

(٢) عبد الله زاخر - ص ٦٨ ، د . جوزيف الياس كحالة .

وفي القرن الثامن عشر قام البطريك اثناسيوس الثالث دباس بزيارة إلى أمير بلاد
الخلاخ (رومانيا) وتذكر المصادر التاريخية أن أمير تلك البلاد يوحنا قسطنطين أهدى
مطبعة بحروف عربية إلى البطريك دباس ، فجلبها معه إلى مدينة حلب ، ووكل أمرها
إلى عبد الله زاخر ومعه أخوه .

وهناك مصادر أخرى ذكرت أن البطريك دباس جلب معه المطبعة وأن عبد الله
زاخر صنع لها أمهات حروفها .

إلا أن تلميذه يواكيم مطران يذكر لنا في مخطوط عن حياة عبد الله زاخر أن
البطريك اثناسيوس دباس عندما ذهب إلى رومانيا اطلع على المطبعة وآلاتها وكيفية
تشغيلها ، وعندما عاد إلى حلب أطلع عبد الله زاخر على ما رأى وحدثه عن كيفية
تشغيلها بالتفصيل ، وبفضل ذكاء الزاخر ومعرفته بصناعة الصياغة استطاع أن يصنع
أول مطبعة عربية في الشرق وبذلك سبق دخول المطبعة التي أحضرها نابليون إلى مصر
بزمن طويل وأول ما طبع فيها كتاب المزامير الذي ترجمه عبد الله الأنطاكي .

وتالت طباعة الكتب الدينية (لأن المطبعة كانت في الكنيسة التي يشرف على
خدمتها عبد الله زاخر) وكذلك الكتب الفلسفية .

ولكن الخلاف اشتد بعد ذلك بين البطريك اثناسيوس دباس وبين عبد الله
زاخر فاضطر زاخر إلى مغادرة حلب إلى لبنان في دير القديس يوحنا الصايغ في
الشوير وبقي في لبنان ينتقل بين ذوق مكايل والشوير وعينطورة ، إلى أن استقر أخيراً
في دير القديس يوحنا وصنع هناك مطبعته الثانية وبقي في لبنان إلى يوم وفاته سنة
١٧٤٨ .

لم يكن عبد الله زاخر شماساً في الكنيسة وصانعاً للمطبعة العربية الأولى فقط ،
بل كان مفكراً غزير الإنتاج ، ولو أن معظم مؤلفاته وترجماته كانت في الجانب
اللاهوتي المسيحي والفلسفي وقد نشر أكثر من ست وعشرين مؤلفاً نذكر منها:

١ - كتاب الترياق الشافي من سم الفيلا دلفي:

ويتضمن الكتاب مقدمة وثلاثة أبواب ثم الخاتمة ، وتحتوي المقدمة على عرض لمحتوى الكتاب . وفي الباب الأول يعرض فيه دور القديس بطرس في رئاسة المسكونية وتقدمه في الكرامة والسلطان ، ويؤكد ذلك في الباب الثاني . أما في الباب الثالث فيبحث فيه سلطة البابا ويبحث في الخاتمة على طاعة بيعة المسيح والتمسك بتعاليم الآباء القديسين .

٢ - كتاب التفنيد للمجمع العنيد.

٣ - صورة اعتراف إيمان الكاثوليكين من طائفة الروم

(وهو مؤلف صغير) .

٤ - كتاب البرهان في حقيقة سرى دين المسيح:

ويبحث هذا الكتاب في سرى التثليث والتجسد الإلهي .

٥ - فوائد العقود وخلاصة النقود في الرد على اليهود:

وهو عبارة عن مجادلة مع اليهود الناكرين لحقيقة مجيء المسيح .

٦ - رسالة ضد اليعاقبة.

وكتب أخرى كثيرة تبحث في العقيدة المسيحية . بالإضافة إلى كتاب في الفلسفة يدعى (شرح الأصول المنطقية على الرسالة الأبهريّة) وهو مدخل إلى علم المنطق إلا أنه لم يتمه لوفاته قبل ذلك فأتمه تلميذه يواكيم مطران .

رزق الله حسون

١٨٨٠ - ١٨٣٥

تميز القرن التاسع عشر بظهور مجموعة من رجالات الفكر في الشرق العربي كان لها باع طويل في مجال الأدب والفكر وساهمت مساهمة كبيرة في التمهيد للنهضة العربية المعاصرة . وقد ساهم هؤلاء الأدباء بكشف ستار الجهل عن عقول الشعب ودفعهم في طريق المعرفة . وأهم هؤلاء الرجال هم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وبطرس البستاني وغيرهم . .

ومن هؤلاء الأعلام الصحفي الأديب رزق الله حسون الأديب والشاعر الحلبي الذي كانت حياته عاصفة ومرت بكثير من ألوان الصراع وحفلت سيرته أيضاً بصفحات مشرقة تدلنا على نبوغه وعبقريته .

نشأ رزق الله حسون في حلب في وسط تجاري (ويقال أنه من أصل أرمني) . كان أبوه يمارس التجارة وأحب أن يتابع ابنه مهنته ولكن الابن رزق الله سار على عكس ما يرغب أبوه فقد ألم بمبادئ القراءة والكتابة فأحب العلم وراح يطلب المزيد حتى أتم دراسته الابتدائية ، وسافر بعدها إلى لبنان وانتسب هناك إلى (دير بزمار) في منطقة كسروان فدرس علوم اللاهوت واللغات العربية والفرنسية والعلوم الرياضية بالإضافة إلى اللغتين الأرمنية والتركية اللتين كان يتقنهما .

وقد برهن في فترة دراسته على تفوق ملحوظ وتعلق وهو صغير بالشعر

ويحدثنا معاصروه أنه قرض الشعر وهو في سن الثالثة عشرة ، ويبدو أن جو لبنان ومناظره الخلابة قد أثرت في خياله بشكل واضح .

وبعد أن أتم دراسته الثانوية في لبنان عاد إلى حلب وبدأ يمارس التجارة مع أبيه على الرغم منه . وكان أبوه يعمل مترجماً في القنصلية النمساوية بالإضافة إلى عمله في التجارة (و كانت هذه المهنة تكسب أصحابها حصانة دبلوماسية تجعل أصحابها في مأمن من ظلم الأتراك وجورهم) .

وبعد وفاة والد رزق الله حسون أخذ الابن مكان أبيه في القنصلية وأهمل العمل في التجارة . ويبدو أن هذا العمل لاءم نفسه ورغبته في المعرفة فقد وجد فيها النافذة التي يطل منها على العالم الغربي وبالتالي ينهل من علوم وثقافة وفكر الغرب الذي كان في هذه الفترة يمتد بثقافته وأطماعه على العالم وبشكل خاص على الشرق العربي .

ولبت أدينا يمارس الترجمة في القنصلية فترة من الزمن حتى سنحت له الفرصة لينطلق من إيسار القيود الاجتماعية الضيقة والتي ضاق بها ذرعاً فسافر إلى باريس ولندن وقضى في ربوعهما فترة غير قليلة أخذ يتردد خلالها على المتاحف والجامعات ودور الكتب فينهل منها ما شاء له ذلك من علوم ومعارف ، ولم يهمل الجانب الحسي من حياته فقمضى أياماً ينهل فيها من ملذات ملاهي باريس ومسارحها ، ولم يترك مظهراً من مظاهر المدنية الحديثة في أوروبا إلا اطلع عليه .

وبعد أن أنهى رحلته في أوروبا لم يعد إلى حلب بل انطلق باتجاه مصر التي كانت في تلك الفترة قبلة العرب والعروبة ، وكان يتحرق شوقاً لزيارتها والاطلاع على مظاهر حضارتها العريقة وكذلك نهضتها الحديثة ، والاطلاع على ما في خزائن مكتباتها من نفائس الكتب والمخطوطات . ومكث فيها مدة طويلة نسخ فيها الكثير من المخطوطات .

وبعدها انطلق إلى الأستانة عاصمة الخلافة الإسلامية لأنه وجد أن زيارتها ضرورة من ضرورات حياته ومستقبله . وفيها استقرت به الحياة فعمل في بادئ الأمر عند أحد كبار تجارها كمدير لمتجره^(١) .

وفي هذه الفترة تنشب الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا سنة ١٨٥٤ . ويفكر أدينا بالعودة إلى حلب ، ولكنه وبعد تفكير عدل عن رأيه وقرر أن يصدر صحيفة عربية تتولى نشر أخبار الحرب وأخبار البلاد العربية وسمى الصحيفة باسم (مرآة الأحوال) .

ولمع اسم رزق الله حسون بعد إصدار هذه الصحيفة ، وتوثقت صلاته برجال الدولة وكبار السياسيين فيها .

وفي عام ١٨٦٠ نشبت حوادث داخلية في سورية أطلت من خلال رياح الفتنة ، فانتدبت الدولة العثمانية وزير خارجيتها (فؤاد باشا) لإخماد الفتنة وإصلاح ذات البين لمنع تدخل الدول الأجنبية . فاصطحب معه الأديب رزق الله حسون ليقوم بتعريب الأوامر والبلاغات والمناشير التي يريد أن ينشرها بين الناس .

وفي دمشق اتصل بالأمير عبد القادر الجزائري ومدحه بقصائد عديدة كان لها وقع حسن في نفس الأمير ، واحتفى رجالات دمشق به وأكرموه إكراماً بالغاً .

ومن دمشق سافر إلى لبنان وبيروت في زيارة خاطفة فقد أراد أن يزور ملعب الصبا ومراتع اللهب فيه . ثم عاد إلى دمشق مرة أخرى ليتفرغ لهوايته الأدبية فينسخ مخطوطات نادرة وجدها في مكتبات دمشق ، وأخذها معه إلى أوروبا عندما سافر في رحلته الثانية إليها .

(١) محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب - سامي الكيالي .

وفي عام ١٨٦١ عاد فؤاد باشا إلى الآستانة وتقلد منصب الصدر الأعظم ،
فانتقل معه رزق الله حسون إلى الآستانة واستلم منصب السكرتير الخاص له
وبرهن على كفاءة عظيمة وتولى تحرير مراسلاته الأجنبية والمذكرات السياسية ،
وصحبه في رحلته إلى إنكلترا لحضور معرض الدولة العثمانية فيها .

ولما عاد من لندن أسندت إليه نظارة جمارك التبغ ، ولكنه لم يستمر فيها
طويلاً فقد كاد له حساده فاتهم باستيلائه على مبالغ ضخمة من هذه النظارة ،
فسجن نتيجة لهذه التهمة .

وفي السجن راح يستعطف فؤاد باشا كي يخرج من سجنه متهماً حساده
بالكيد له فيقول:

فؤادَ هذا الملك عطفاً على	غرسك يذوي في شفا محنته
إن لم تغث عبدك من ذا الذي	يحميه أو ينجيهِ من نكبته
يا غالب الدنيا بساداتها	شرقاً وغرباً بذهى فطنته
وواحد الآحاد في عصره	وصائب التدبير في حكمته
أحييتَ هذا الملك من بعد ما	أودت به الأخطار في فترته
وصنت أهليه رؤوفاً بهم	من سطوات الدهر أو حطمته
أرحم عبيداً لك واستبقه	للولد المجبول من مهجته
فوالذي حقق ظني بما	أرجو من الإنصاف أو رحمة
أمسيتُ في الحبس كفرخ القطا	من كرب الحزن ومن شدته

ولما لم يلتق مجيباً أرسل إليه قصيدة أخرى يستعطفه فيها وينفي التهمة عنه
ويندد بأعدائه الذين وشوا به فقال:

أعذك الله أن تميل إلى مقال واشى يسعى على دخل
وكيف تأخذني باغراء ذي حقد يكشّر بالعداوة لي
أشبه خلقاً بالذئب مفترساً طار اسمه في الأذى مع المثل
لولا البنون وما أحاذره ضيماً يلم بهم على عجل
ما كنت أضرع أن تحولني عن مقعد الذل لي عن زللي

إلا أن كل ذلك لم يلق عند فؤاد باشا أذناً تسمع له ولم يجد بداً من أن يفكر في وسيلة أخرى للخلاص من هذا السجن ، ففكر بالهرب ونجح في ذلك ، فهرب إلى روسيا الدولة المعادية للسلطان العثماني ، وهناك أطلق لسانه لاذعاً ينقد فيه الحكومة العثمانية نقداً مرأً ، فأقلق الحكومة العثمانية بطول لسانه وقارص هجومه وحاولت إسكاته بكل الوسائل والسبل ، وطلبت من الحكومة الروسية تسليمه فرفضت واعتبرته لاجئاً سياسياً ، وكرمه واحتفلت به احتفالاً كبيراً .

وبعد أن أقام في روسيا فترة طويلة من الزمن شد الرحال إلى إنجلترا واتخذ من لندن مقامه حيث استأنف إصدار صحيفة (مرآة الأحوال) وجعلها منبراً حراً للتنديد بسياسة الحكومة العثمانية .

ولم يكتف بإصدار صحيفة (مرآة الأحوال) في لندن بل أصدر مجلة أدبية بعنوان (رجوم وغساق) شن فيها حملة شديدة على الأستاذ أحمد فارس الشدياق . وكان بينه وبين الشدياق خصومة أدبية عنيفة ، ولكنه لم يصدر منها غير عددين ثم أوقفها كما أوقف صحيفة (مرآة الأحوال) ثم أصدر مجلة نصف شهرية عام ١٨٧٦ بعنوان (حل المسألتين الشرقية والغربية) .

والغريب في الأمر أنه تناول تلك القضايا السياسية بأسلوب شعري وبنفس أدبي بعيد عن لغة السياسة الجافة .

أدبه:

عندما لم يحقق رزق الله حسون ما يأمل من عالم السياسة لجأ إلى عالمه الأول الذي نشأ عليه وأحبه وافتتن به . إنه عالم الأدب وأفقه الواسع الرحب فبدأ يعنى بالمخطوطات التي تحتويها مكتبة لندن أثناء إقامته فيها . فنسخ أكثر من عشرين مخطوطة أهمها ديون الأخطل وديوان ذي الرمة ونقائض جرير والفرزدق وكتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا لكاتبه القلقشندي وكتاب المتمم لابن درستويه وكذلك الاناجيل المقدسة التي ترجمها أبو الغيث الدبسي وديوان حاتم الطائي ، والكثير من المخطوطات التي نقلها من مكتبات روسيا وفرنسا وألمانيا وهولند . . وغيرها .

وقد اتخذ الأديب الشاعر رزق الله حسون من إنكلترا موطناً ثانياً له قضى في ربوعها بقية حياته يكتب ويؤلف ويعلم وتعلمذ عليه تلاميذ كثيرون وكذلك تتلمذ عليه مستشرقون أفادوا من فكره وأدبه ، ومنهم المستشرق (أدور هنري بالمر) الذي عرف عند المستشرقين باسم الشيخ عبد الله والذي أتقن اللغة العربية إتقاناً يفوق فيه أبناء اللغة العربية أنفسهم ، ونظم الشعر العربي أيضاً ، وقام برحلة إلى صحراء سيناء فلقي حتفه هناك على يد بعض الأعراب الذين شكوا فيه وارتابوا في نواياه .

لقد كرس الشاعر حياته فيما تبقى منها وخاصة بعد أن حرم من العودة إلى وطنه العزيز حلب كرس نفسه للاشتغال بالأدب ورأى أنه خير ما يشغل به المرء نفسه ، فهو الذي يسليك في غربتك ويجعلك تغلب على أشواق الحنين التي يفجرها البعد عن الوطن . فراح ينشر المخطوطات ويحقق الدواوين ويكتب الأمثال وينظم الشعر . وأصدر في تلك الفترة ديوانين أحدهما سمّاه «أشعر الشعر» والثاني « النفثات » .

ففي ديوانه (أشعر الشعر) رجع إلى بعض قصص التوراة ينظمها ويختار ما له صلة باللوعة والحزن والألم (وهذه المشاعر عاشها كلها) ولم يجد ما يعبر به

عن هواجسه غير شعر أيوب فاختر فصولاً عديدة من سفر أيوب بلغت اثنين وأربعين فصلاً نظمها كلها شعراً ، كما اختار من نشيد موسى في سفر الخروج ومن نشيده في سفر التثنية ، وثمانية فصول من نشيد الإنشاد لسليمان ، واثنين عشر فصلاً من سفر الجامعة وخمسة من مراثي أرميا .

ولا شك أنه بذل جهداً مضمياً في عمله ذاك ، ولكن ثقته بنفسه وما تحمّله من آلام في سبيل ذلك دفعه إلى ركوب هذا المركب الصعب ليعبر من خلال هذه القصص عن هواجسه وآلامه وأحزانه المكبوتة .

وقد أشار في مقدمة ديوانه إلى صعوبة المحاولة التي قام بها فقال :

(أجمع فضلاء المغرب الذين استمازوا البلاغة بالحق ، على أن أيوب وهوميروس وشكسبير أشعرا لخلق .

واصطفقت آراء الأكثرين على تفضيل أيوب إجادة وله السبق . . فلما اتخذت سفر أيوب أيام النكبة الممتدة سميراً ، نظمته قريضاً ، ولم أر له في آثار السالفين نظيراً ، سميته «أشعر الشعر» اتباعاً لفضلاء المغرب رأياً ومقالاً مأثوراً) .

ونلاحظ من خلال مقدمته التي ذكرنا أن شاعرنا قد التزم السجع فيها (وكانت هذه اللغة هي لغة الأدباء في ذلك العصر) ، ويبدو الجهد واضحاً في نظمه لهذه الفصول شعراً .

ويبدو أن القافية قد خانت في أحد الفصول فنظمه على طريقة الشعر المرسل وهو مؤمن بذلك لأنه يرى أن « الشعر نظم موزون ، ولا تشترط القافية إلا لتحسينه » ويرى أن الشعر كان شعراً قبل أن تعرف القافية كما هو عند سائر الأمم . وأن العرب لم يعرفوا القافية الموحدة إلا في زمن امرئ القيس وأنه هو الذي أحكم قوافيها (وقبله لم يسمع للعرب سبعة أبيات على قافية واحدة) .

ولا نجد في شعر رزق الله حسون تلك الطلاوة التي نجدها الآن في شعرنا المعاصر ، ولا تميز بتلك الجزالة والقوة التي اتصف بها الشعر القديم ، ولكن فضله لا ينكر في نقل قصص ديني مستوحى من التوراة إلى لغة الشعر .

وقبل إصدار ديوانه (أشعر الشعر) كان قد طبع ديوانه الثاني «النفثات» في لندن عام ١٨٦٩ . وقد قسمه إلى قسمين أولهما قصص كريلوف شاعر الصقالبه . وقد وضع تلك القصص على طريق (بيدبا) فيلسوف الهند الشهير في كتابه (كليلة ودمنة) ، و(لافونتين) شاعر الفرنسية المعروف . وقد عربها نظماً في إحدى وأربعين قصة .

وقد يكون رزق الله حسون الأديب العربي الأول الذي التفت إلى خصائص الأدب الروسي فنقل بعض أقاصيصه .

وفي القسم الثاني من ديوانه كتب قصائد عديدة وجهها إلى الشيخ فارس الشدياق وفيها هجوم مقذع في حقه .

وقد أثارت الشيخ فارس هذه القصائد وآلمته كثيراً فلم يتمالك نفسه حين قراها إلا أن قال (كان حسون لصاً وله سرقات ، فأصبح لصاً وله نفثات) .

ومن خلال ترجمته لشعر كريلوف نعلم أن الأدب الرمزي الذي اعتمده بعض أدباء الروس في نقد أساليب الحكم القيصري قد صادف هوى في نفسه فنقل تلك القصص ليشير إلى فساد الحكم في العهد العثماني .

فالقصاص المعربة تتناول هذه الصور التي تعرض لنا فساد الحكم على ألسنة الحيوانات ، وتشير إلى صلف الحكام وقسوتهم ، وإلى الظلم والعدل . وغير ذلك من هذه الصور التي ترينا تحكم الأقوياء في الضعفاء ، وحكم الأغبياء . ونجد ذلك في حكايات النسر والعنكبوت والبلبل والحمار والذبابة والنحلة والفأرة والجرذ والمرأة والقرد وغير ذلك من عشرات القصص التي تؤلف نصف الديوان تقريباً . ونورد حكايتين من تلك الحكايات التي أوردها في ديوانه .

المقطوعة الأولى بعنوان ذبابة ونحلة:

يوم اجتلاه الربيع واعتقت
والبان ترقصه الصبا مرحاً
والنحل حول اليعسوب جائلة
ذبابة قعدت على فن
قالت النحلة ما معيشتكم
مر الدقائق تجهدين ولو
ولو تجملت قدر يومك لا
أليس بي عبرة وأحسني
وشغلي البحث والتطلب عن
لا بد ألقى الذباب قاعدة
في بلدتي هذه أدور على
لا فخر والوزراء كلهم
أقبل الجيد والجبين وفي
كأنني شامة الحدود وكم
وللضيافات والولائم أن
مطاعمي أنيتها الخرف
ولقمتي ما أشتيها لفي
أرتشف الخمر من زجاجتها
هلا وإياي تذهبي ترى
ردت جواباً بلى وبلغنا
بئس الهوام الذباب بعضها في

نواره بالرياض باهرها
والطير كاسية منابرها
كالفرس غائرة أساورها
تعجب من نحلة تجاورها
أولها متعب وآخرها
إياك كنت لما أصابرها
أشك في هلكة أحاذرها
في جنة طافح بشائرها
دار بها موسم أبادرها
على أسرتها أسامرها
القصور يعرفني أكابرها
والغانيات وقد أعاشرها
المباح من لثمة أكابرها
جمشت تفاحها أعافرها
أسمى فخلفي مشى جماهرها
الصيني مشمنها وفاخرها
قبالي لا عنى ولا كرها
والقوم من فضلي تباشرها
معيشة بالهنا أخامرها
أخبار كن الرواة خابرها
الأرض بادي الملا وحاضرها

إذا أتيتن دارة رفعت
يهزأخرا جكن مروحة
فتطردن عن البيوت وفي
فاستضحكت تلکم الذبابة من
قالت فما بالنا وذلهم
الطرد لا تعباً الذباب به
أيتها النحلة افهمي كلمي

لا للسلام يداً معاشرها
للوقت كبارها أصاغرها
وجوهكن انطوت معايرها
كلام نحلتناتقامرها
أو بغضة تتقى نهايرها
تعود في كرة تظايرها
بالغمز عمن يشار ظايرها

والمقطوعة الثانية بعنوان «مرآة وقرد»:

حكى لنا الراوون عن
في صفحة المرآة قر
وأعجبته نفسه
دب على الدب يدا
وقال ما أشنأذا
لو حلّ بعض قبحه
أقبح به ذا سحنة
ونوعه جميعه
أجابه الدب على
أيا أخي القرد التفت
تجد على نفسك ما
الخلق لا يرون ما
مسألة مبحوثة

قرد ودب في سمر
دمذ تراءى وانبهز
وهيئة فيها اشتهر
هزبه ثم انتهر
المسوخ من بين الصور
بي فاض قلبي وانفطر
شوهاء سوداء الوبر
أبشع خلق في النظر
تعييره بما ذكر
وأرجع لمراك البصر
أنكرت مني فالحذر
في ذاتهم من العور
بالأمرس عنها ذو غير

إن ديوانه الذي طبعه في لندن قبل أكثر من مئة وخمسين سنة يؤرخ لطور من أطوار حياة أدينا الشاعر الذي عاش في منتصف القرن التاسع عشر ، فكانت حياته مليئة بالمشاحنات السياسية والأدبية معاً ، وهي ترمز إلى طبيعة الحياة وألوان الحكم آنذاك ومذهب الشعراء والأدباء وطرائق تفكيرهم وتظهر الفارق بين ما نحن عليه اليوم من جو أدبي وما كانوا عليه في تلك الفترة .

وقبل أن نختم حديثنا عن الأديب والشاعر والصحفي رزق الله حسون يجب أن نذكر أن هذا الأديب كان له فضل ظهور أول صحيفة عربية في عاصمة آل عثمان وهي صحيفة (مرآة الأحوال) كما ذكر الباحث الفيكونت دي طرازي في كتابه «تاريخ الصحافة العربية» . ولذلك يمكن أن نسميه إمام النهضة وزعيم الصحافة العربية .

وبعد فإن رزق الله حسون ملأ الدنيا وشغل الناس والحكومات في عصره من خلال مطارحاته السياسية والنقدية التي اشتهر بها . وقد قضى أيامه الأخيرة في قرية وندسور في إنكلترا وهو يكتب ويؤلف ويحقق وينظم الشعر ويترجم عن الروسية والإنكليزية والفرنسية إلى أن توفي سنة ١٨٨٠ .

ويقول معاصروه: إنه وهو في غربته كان يردد دائماً هذين البيتين اللذين يدلان على حرقته وألمه من النهاية المحزنة التي وصل إليها في حياته بعيداً عن أهله ووطنه . يقول:

قد قضى الله أن أموت غريباً	في بلاد أساق كُرهاً إليها
وبقلبي مخدرات معان	نزلت آية الحجاب عليها

فرنسيس مراش

١٨٣٥ - ١٨٧٤

هو فرنسيس فتح الله مراش ابن فتح الله مراش الرجل المحب للعلم في زمن كان يندر فيه أمثال هؤلاء الرجال . وهو أخ لمريانا المراش الأدبية والشاعرة التي ملأت أسماع محبي الأدب والشعر في عصرها وفي العصور التالية لها والتي كانت صاحبة لأول صالون أدبي في الشرق العربي .

وأخوه الثاني عبد الله مراش الأديب الذي برع في فن الترسل وكان على جانب كبير من الثقافة .

إذاً فهو أديب وعالم وشاعر من شعراء الرومانسية الذين يحملون نزعات فلسفية مثالية .

درس الطب وتعلق بالأدب فانقسمت حياته بينهما ، وقضى أيام شبابه وكهولته متنقلاً بين حلب وباريس ، ولم تكن أيامه كلها سعيدة ، فقد كانت أيام البؤس والشقاء أكثر من سويغات الهناء والسعادة .

وقد صدمته المصائب منذ أول حياته ففي الرابعة من عمره أصيب بداء الحصبة التي ثقلت عليه حتى كادت تؤدي بحياته ، إلا أنه شفي منها وبقي في آثارها من جسمه وبصره ما نغص عليه عيشه وأوهن قواه طيلة حياته .

تعلق فرنسيس مراش بالأدب وهو صغير ، فقرأ كثيراً من كتب الأدب ، واستهواه الشعر فحاول النظم ولكن الشعر لم يكن له أول الأمر ثم تمكن منه عندما أصبح شاباً إلا أن مكانة الشعر المتدنية التي وصل إليها في ذلك الوقت وازدراء الناس له جعلته ينصرف عنه إلى العلم ودراسة الطب ، فتتلمذ على يد طبيب إنكليزي في حلب مدة أربع سنوات مكنته من ممارسة المهنة ، ولكنه شعر أنه لم يبلغ المكانة التي كان يرومها ودفعه طموحه العلمي إلى السفر باتجاه باريس لاستكمال دراسة الطب في كليتها .

وعندما ترك حلب قاصداً باريس وركب البحر إليها بدأ يسجل خواطره عن هذه الرحلة . ولما وصل إلى باريس ورأى معالمها ومعاهدها ومتاحفها واستمتع بمباهجها وحدثاتها بهر بأضوائها ومظاهرها حضارتها فثارت في نفسه الأحاسيس وراح يصف هذه المدينة العظيمة في موشح يقول فيه :

إنني جئت باريس العلا	ورأت عيناى ما قد سمعت
شمت ما لا نظرت عيني ولا	سمعت أذني ولا روحي وعت
آه ما هذي المباني والملا	هل بروج أم نجوم طلعت
كل حي أم جماد قد سما	وبشوب المجد والكبر كُسي
مشهد يسطو على العقل بها	فيه من آي بها الدهر نسي

* * *

أدر الطرفَ على هذا الأمد	وتأمل ذي الدراري الزاهره
والأنابيبَ التي مثلُ الغدد	تفرز النور لتغذي الباصره
وانظر الشهبَ المنيراتِ الجلد	كيف ترنو بعيون حائره
غلب الليل هنا فانهزما	وتوارى في عباب الأطلسي
فالسما الأرض والأرض السما	ها هنا فأعجب لذا المنعكس

وإذا ما أمعنا النظر في شعره وفي موشحته هذه سنجد أن روحه العلمية تبرز من خلال وصفه بين الحين والآخر .

ولأن باريس أخذته بجمالها وروعها لذا فإنه لم يترك ظاهرة من ظواهرها إلا خصها بالوصف ، فوصف غابة بولونيا ، وساحة الكونكورد ، وسجل كثيراً من انطباعاته الذاتية التي رآها في الحفلات الراقصة والسهرات الخاصة .

ويقول في إحدى هذه الحفلات:

وما المنى إلا الورق	ما القلب إلا شجر
فيها لي السعد برق	ومنيتي مدينة
ما عُذِّي وما اتفق	أقطف من لذتها
كل أسى قد احترق	وفي لظى شبيتي
كل عذول أو نهق	لا أرعوي ولوعوي

وها هو يعطي لشبابه الوقت الكافي ليغوص في مباحج وملذات باريس ويشرب من كوؤوسها حتى الثمالة . إنها حالة الشباب الشرقي الذي يقدم إلى أوروبا أيا كان هدفه ، فإنه ينطلق من عقل التقاليد ويتحرر من أسر العادات ليغوص كما قلنا في جو باريس وأشبابها من المدن الأوروبية حيث الحياة المنطلقة والمتع الرخيصة .

ولكن أيام السعادة وقطف ثمار الحب والهناء لم تدم طويلاً فقد أكل المرض من جسده كثيراً وتركه مثقلاً بأعباء جسد مريض ضعيف ، وكانت مصيبتة أعظم عندما أصيب بعد سنتين من دراسته بفقد بصره فاضطر إلى التوقف عن الدراسة وتوالت عليه المصائب وزاد في مصابه وأحزانه أن بلغه وهو في باريس وفاة والديه فأظلمت حياته فوق ظلام عينيه وسيطر عليه اليأس فرثاهما بقصيدة تعبر عن لوعته وعظم مصابه فقال:

فأنا أبكيكما يا والدي بدموع ما بكأها أحد
إن في موتكما القاسي لدي مات حقاً سندي والعُصْدُ

ولم تعد باريس في نظره كما كانت بالأمس حين كان يرتع في مغانيها،
فهي اليوم مظلمة كثيفة:

لم أجد والله في هذي البلاد غير داء لي وللغير دوا
ذقت فيها كل كارات النكاد وكما غيري من البشر ارتوى
يا فؤادي قد جرى فيك الردى فعلى هذا الردى مت أو عش

ثم عاد إلى وطنه فلزم بيته ، كئيباً حزيناً ، وأصبحت حياته نتيجة هذه المصائب
المتوالية كلها حزن وتشاؤم وكآبة .

ولجأ في عزلته إلى قراءة أدب أبي العلاء المعري وفلسفة شوبنهاور ثم صنف كتباً
عديدة كلها متأثرة باتجاه هذين الفيلسوفين .

ومن هذه الكتب «غابة الحق» و «مشهد الأحوال» وكتب أيضاً ديوان شعر
وضع عنواناً له «مرآة الحسناء» وكتب كذلك رسائل عديدة في موضوعات متنوعة
لم يطبعها في حينه .

ووضع كتاباً سماه «شهادة الطبيعة بوجود الله والشرعية» ثم كتاباً آخر سماه
«غرائب الصدف» ثم ترجم رواية عن الإيطالية .

وقد عُرف بين زملائه بنزعتة الحرة وكرهه لكل قديم ولكل ما يتنافى مع نزعة
التجديد . ويقال إنه أول من نادى في الشرق بمذهب دارون .

وقد أكد ذلك الأستاذ إبراهيم حداد صاحب مجلة «الدهور»^(١) بقوله:

(١) محاضرات في الحركة الأدبية في حلب - سامي الكيالي .

(هذه حقيقة يجب أن تسجل بفخر لفرنسيس المارش ، وسيكون اسمه في المستقبل مقروناً بمذهب التطور كاسم (الشميل واسماعيل مظهر وسلامة موسى وغيره من الذين ينادون بهذا المذهب) . .

وهو في اتجاهه الفكري كما ذكرنا صاحب نزعة ديمقراطية حرة يريد لبرلمان بلاده أن يتمثل فيه الشعب بكافة طبقاته . وله في هذا الاتجاه قوله:

(لماذا يوجد حق لأصوات الأغنياء فترنّ في قاعات السياسة ، ولا يوجد الحق لأصوات بقية الشعب الذين هم الجانب الأكبر والأهم والذين بواسطتهم تقوم سطوة الممالك وقوات الملوك وعليهم يتوقف مدارس السياسات) .

وهو بالإضافة إلى ذلك ذو نزعة اشتراكية حرة ، ينصر العامل على أرباب العمل ، ويريد أن يأخذ العدل مجراه ، وأن تكون الحقوق متساوية بين العامل ورب العمل .

وفي الجانب الأدبي من نشاطه نجد أن ميوله الأدبية يصحبها توجه علمي . فثقافة العقل عنده لا تكون إلا بترويضه على العلوم . وإلى هذا أشار في بعض كتاباته فقال: (لا يتم تثقيف العقل إلا بالتروض في العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والأدبية على أنه لأمر محقق ، كون العلم يخلق في الإنسان قلباً نقياً وروحاً مستقيمة ، ويجعله ظافراً بكل الصفات الصافية ، وناشراً عن كل ما يشين الجوهر الإنساني ، ولا يترك له سبيلاً إلى التفكير بالأمور الدينية والميول المخرفة الأمر الذي منه تشتق كل أفعال الشر) .

وكان اهتمامه ينصب على المعنى أكثر من المبنى أي على الموضوع أكثر من الشكل ، فأدبه يتميز بوفرة المعنى على حساب الشكل ، فكان يدخل الكثير من الألفاظ العامة في قصائده ومقالاته .

وقد أشار إلى ذلك الأديب قسطنطين الحمصي فقال:

(إذا نظرت فيما ألفه في هذه المدة الوجيزة ، أي منذ عودته من باريس إلى وفاته ، وهي مدة لا تتجاوز ست سنوات ، أيقنت أن هذا الرجل الكفيف أوتي من حدة الذهن وسرعة الخاطر وغزارة المادة وجودة القريحة والألمعية ، ما كان فيه نسيج وحده ، إلا أنه كان قليل الثبوت فيما يكتب فبدرت من قلمه أغلاط في اللغة والفاظ عامية استدرج إليها) . .

وسندرج فيما يلي نتفاً من موشحاته الجميلة التي برع فيها:

لاح بدر الحسن من برج الحمى	فغضا بالنور يحف الغلس
وسقانا إذ رنا مبتسما	خمرة قد عُصِرَت من نرجس

* * *

قمر ضاء سنا طلعتة	في دجى الشعر فلا غاب القمر
وبدا الورد على وجنته	فغدا للقلب يحلو والنظر
كتب الحسن على غرته	لا ينال الوصل إلا من صبر
وعلى قلبي هواه رسما	صور الشرق بنار الهجس
وأعاد الطرف يرعى الظلما	والدراري صرن لي كالخرس

* * *

هز من قامته رمح الهوى	وانتضى من جفنه سيف القضا
وأتى يسلب روحي والقوى	بعد ما قد كان عني معرضا
ليت يدري ما بقلبي من جوى	عله يبكي عليه أن قضى
صحت مذ أورث جسمي السقما	بالجفا وهو شفاء الأنفس
يا غزال الحي رفقا لي فما	تركت عيناك لي من نفس

* * *

أيتها الغالب بالطرف الكحيل	مغرماً يرى الصبا والوصبا
تُه بما شئت فلي صبر جميل	إذ أرى الدنيا لمن قد غلبا
لك ثغر باللمي تشفي العليل	بأبي أفديه ثغراً أشبأ
ورضابٌ ليته يطفى الظما	من فؤاد فيه نار القبس
ودلالٌ بعذابي حكما	فأنا اليوم كثير الهوس

ويختم موشحه بقوله:

يا أخا الأشواق نم صبراً على	ذلك الوجد الذي فيك جرى
واحمل العشق ولا تشك البلا	فالهوى يجري على كل الورى
إن كأس الحب يحلو للملا	وبه كل فؤاد سَكرا
بئس قلبٌ لم يذق حب الدما	فهو أحلى من مذاق الأكؤس
ورعى الله فؤاداً خُتما	بدم العشق وبالشوق كبي

وله موشح ثانٍ قدّم له يبحث عن الحب والعشق نثراً ومما قاله في العشق:

(ومن عادة العشق أن يلطف طباع العاشق ويجعله سميراً ونديماً وليبياً ويرقى طبيعته ويرقص أفكاره، ويدعوها إلى رقة الغزل والتشبيب بالجمال حتى يعود يمكنه التلاعب بأحوال كل الوجود، ليصير مصوراً للطبيعة، إذ يتوهم فيها الصورة المحبوبة لديه، وشارحاً لكل الحركات والظواهر المحيطة به، إذ يرى أن لكل منها خدمة في بيت الحب، ولعب في مشهد الهوى، على أنه يرى أن الخليقة تنفس لديه بالحياة، وتتنفس كربه، وترعرع مثواه فيناجي الأفلاك، ويرسم الرياض ويخاطب الأزهار ويطارح الأطيّار، ويشخص الليل والنهار ومن ذلك من أقوال:

غبرة الديجور

نفض الشرق على وجه المغيب

سعى الصبح على العود الرطيب بكؤوس النور
فانشى يرقص والأمر عجيب رقصة المخمور
بقوام خلته قد الحبيب أسكرته الخور

* * *

والنسيم العذب يجري في الصباح حامل الرند
وعلى الأزهار فوق الدوح صاح بلبل السعد
وندى الفجر على السرير لاح طالب العقد
قد حكى درأ على جيد ربيب أو على كافور

* * *

ومهاة أقبلت إثر النهار تحت ظل الليل
أقبلت بعد عتو ونفار تستعيد الميل
وهي تدنو بحياءٍ وافترار والهوى كالسيل
زورة قد أولت الصب الكئيب بهجة المسرور

* * *

حبها القاسي وقلبي ارتبطا برباط العهد
إنما عقد اصطباري انفرطا بالجفا والصد

وفؤادي لم يزل محتبطا
في الجوى والوجد
وأنا بين عذولٍ ورقيب
أنجز المقدور

* * *

سمحت لي كلما مدت يدا
صاد قلبي القلب
ذات قد بردا اللين ارتدى
ليت ذا للقلب
وأنا عنها ولو ذقت الردى
ليس لي من قلب
آه كم حار على قلبي السليب
جفنها المكسور

* * *

دُمية عجباء ما بين الدمى
تفضح الغيدا
رمة ترتع في قلبي فما
تعرف البيدا
ذاتُ عقدٍ يزدهيني كلما
يلبسُ الجيدا
وعيون كيفما دارت يصيب
نيلها المحذور

ونستنتج من خلال قراءاتنا لشعر فرنسيس المراه وמושحاته بخاصة أن
هذا الأديب قد حرك أوتار التوشيح العربي بعد ركود طويل وبرع فيه رغم سقطاته
التي لا يسلم منها معظم الأدباء .

* * *

جبرائيل الدلال

١٨٣٦ - ١٨٩٢

للفكر الحر دائماً شهداء كما لكل اتجاه حر شهداؤه الخالدون ، وشهداء
الفكر أكثر سطوعاً وتأثيراً لأنهم يتألقون في سماء الفكر نجوماً تتلألاً وشعلةً
لهذه الأمة تنير دربها المظلم . شهيد الفكر إنما هو شمعة تحترق لتنير درب الأمل
للأجيال من بعده .

وقد حفلت حلب بالكثير من شهداء الفكر الذين وقفوا في وجه
الظلم وقارعوا المستبد والطاغية ووقفوا في وجه أصحاب الضلالات من
الأفكار الغريبة التي لا تنتسب لمجد العروبة من أمثال عبد الرحمن الكواكبي
وجبرائيل الدلال .

وسنزع اليوم الستار عن المفكر الأديب والسياسي الشاعر جبرائيل
الدلال الذي واجه الحياة بخيرها وشرها وكشف الأستار عن الأوهام
والخرافات التي يتخذها المشعوذون سلاحاً للسيطرة على عقول العامة من
السذج والبسطاء ، فكان حظه من هذا كله أن حصد الشر والبؤس والسجن
الذي انتهى به إلى الموت .

ولد جبرائيل الدلال في شهر نيسان سنة ١٨٣٦ من أبوين كريمين ومن بيوتات
حلب المعروفة ، فأبوه عبد الله الدلال من وجوه حلب ورجالاتها المشهورين ،

وقد كان بيته ملتقى لرجال الفكر والأدب لأنه جعله صالوناً أدبياً يجتمع فيه الأدباء يتدارسون دواوين الشعراء ويقرؤون المقامات وينظمون الشعر .

في هذا الجو الأدبي نشأ جبرائيل تحت رعاية أبيه ، ولم يكد يبلغ الحادية عشرة حتى أصابه القدر بمصاب أليم ، فقد رحل عنه والده إلى غير رجعة ، فتولت عمته تربيته والعناية به ، وكانت امرأة فاضلة متعلمة جعلت الطفل يتابع دراسته حتى أتم دراسة مبادئ اللغة العربية ، فأرسلته إلى مدرسة (عين طورا) في لبنان حيث قضى فيها سنة دراسية ثم عاد إلى حلب وبدأ يدرس اللغة الفرنسية والإيطالية ولم يمض على درسه لهما سنوات قليلة حتى أصبح من المتمكنين بهما .

وكان إلى جانب ذلك يتقن اللغة التركية التي كانت لغة الدولة إلى جانب لغته الأصلية وهي اللغة العربية والتي أصبح فيها من الأعلام .

ومنذ أن تفتح ذهنه الشاب إلى المعرفة بدأ يثقف نفسه ثقافة عالمية فانكب على علوم عصره يعب منها عبّ الظامئ ، وساعده على ذلك فرط ذكائه وقوة حافظته وشدة ميله إلى العلوم .

ولقد حفظ وهو في سن الشباب الكثير من أشعار العرب الأوائل ، فحفظ ديوان المتنبي وشعر صفى الدين الحلبي ومقامات الحريري وكثيراً من مقدمة ابن خلدون والمعلقات السبع في الشعر الجاهلي ومجموعة لا بأس بها من أشعار العرب القدامى وقسماً كبيراً من القرآن الكريم ، وبذلك تكونت عنده ملكة قوية استطاع بها أن يكتب وينظم كثيراً ، ونظم في مختلف موضوعات الشعر .

وقد تفتحت عقليته الفذة وذهنيته الواسعة على العلوم والمعارف ، فبدأ يستزيد ويلتهم كل ما يصادفه أمامه من زاد الفكر وكان يطمح بذلك أن يبلغ مرتبة مرموقة بين أدباء عصره .

وقد ساعدت معرفته باللغتين الفرنسية والإيطالية في تكوين ثقافته ، خاصة وأنه لم يترك كتاباً من كتب الغرب وصل إلى يده إلا وقراه ، فقرأ كتب الأدب والفلسفة والرياضيات والطب والفلك والعلوم والفنون ، واشتد ولعه بالرسم والموسيقى .

ولذلك كان كما وصفه العلامة قسطاكي الحمصي في كتابه (السحر الحلال في شعر الدلال) بأنه (أشبه بخزانة علوم وفنون) فلا يُسأل عن علم أو اختراع أو مسألة فلكية أو سياسية إلا ويجيب فيها الإجابة الشافية .

وأصبح جبرائيل الدلال موضع إعجاب من الكثيرين وهو لا يزال في العقد الثالث من عمره ، ولكن نفسه طمحت إلى الارتحال إلى الغرب ، وكانت حالته المادية لا تساعد على ذلك ، ولكن الأقدار أسعفته في الوقت المناسب ، فقد توفي عمه في القسطنطينية ولم يكن له أولاد ، وكان من أصحاب الثروات الضخمة ، فسافر إلى استانبول ليأخذ حصته من التركة .

وفي استانبول بقي فيها مدة ينعم بجمالها ويتمرغ في بحر لذاتها ويتأمل جمال مبانيها وبوسفورها ويتعرف إلى جوامعها وقصورها . وقد استطاع في هذه المدة الوجيزة أن يلفت الأنظار إليه لما توفر لديه من نبوغ وعلم وفطنة وثقافة فأصبح محط إعجاب الكثير من رجالات الفكر والدولة .

وبعد أن صفى أعماله ونال حصته من تركة عمه عاد إلى حلب فمكث فيها سبع سنوات تزوج خلالها فتاةً من أجمل فتيات حلب .

ولأن مدينة استانبول قد فتنته بسحرها فقد عاد إليها سنة ١٨٦٨ وبقي فيها مدة سنة ونصف واتصل خلالها بالشخصيات الكبيرة ومدح بعض الولاة وبعض رجالات العرب ممن عرفهم مثل الوزير جودت باشا رئيس مجلس الأحكام العدلية آنذاك ، ومدح صديقه الأمير محمد أمين أرسلان أحد أعضاء شورى

الدولة وغيرهم من الرجال المشهورين . وفي هذه الفترة تجول مع زوجته الحسنة في أرجاء المدينة الفاتنة ثم عاد إلى حلب ليتجه بعد ذلك بوقت قصير إلى أوروبا ليحقق بذلك حلمًا قديمًا كان يحلم به منذ أن كان فتى يقرأ مؤلفات روسو وفولتير وغيرهم من أحرار الفكر في أوروبا .

اتجه في أول سفره إلى فرنسا ثم إيطاليا ، وبعد أن طاف أجمل مدن أوروبا سافر إلى إسبانيا ذلك الفردوس المفقود ، وطاف في أرجاء قصر الحمراء في غرناطة ورأى فيه بدائع الفن في جامع قرطبة ، ووقف مشدود الفكر إزاء تلك الآثار العظيمة التي تركها العرب كآثر خالد من آثار عبقريتهم في شتى الفنون .

ثم اتجه بعد ذلك إلى البرتغال وجال فيها متملياً بجمال مناظرها الأخاذة ومتمتعاً بمقابلة ملكها وكان لهذه المقابلة أثر عظيم في نفسه .

وبعد رحلة طويلة في أوروبا استغرقت شهوراً ، أخذ طريقه عائداً إلى وطنه ، ولكنه ما أن وصل مرسيليا في فرنسا حتى أصيبت زوجته بمرض عضال توفيت على إثره ، فكانت وفاتها فجيرة كبرى للأديب الشاعر جعلته يعجز عن النطق شعراً ، وحاول جاهداً أن يرثيها ولكن الكلام استعصى عليه ولم ينطق إلا ببضع أبيات تعبر عن حالة العجز والحزن الذي هو فيه ، يقول :

لي حالة يكتمها تجلدي

إظهارها يصدع قلب الجلمد

قد شرد الفم جناني بالأسى

وقيد الهم لساني ويدي

فباطن تبكي له أحبتي

وظاهر تضحك منه حسدي

وما جرى نفى الكرى وفي الورى
بعد الذرى عدت أرى في العربد
من محنتي وفكرتي ولوعتي
تجلدي، تسهدي، تنهدي
وهمتي تأبى الخمول فتري الـ
سهّد مقيمي والقضاء مقعدي
على شبابي والبلاد والغنى
واحسرتي واحزني واكمدي

ولم يتابع سفره إلى الوطن بل عاد إلى باريس ومنها إلى الجزائر ثم إلى بلجيكا ثم عاد إلى باريس ، وهناك تعاقد معه وزير المعارف الفرنسي لتحرير جريدة (الصدى) العربية التي كانت تصدرها الحكومة الفرنسية لنشر رسالتها في الشرق وفي المغرب العربي . وكان ذلك عام ١٨٧٧ م فقبل العمل ليلهو به عن مصابه الفادح ، ولكنه لم يستمر في عمله طويلاً لأنه لم يكن يكتب فيها ما يريد بل ما يراد بإيعاز وزارة المعارف الفرنسية ، ولأنه الأديب الحر فقد ضاق بهذا التكليف فترك العمل وعاد إلى باريس .

وفي باريس أخذ يتصل بمختلف الهيئات والرجالات ، وكان يترجم بين سفراء الحكومات العربية الذين يقصدون باريس كوزراء مراکش وتونس وزنجانر وبين وزراء فرنسا وغيرهم من رجالات الدولة .

وفي باريس تعرف على الوزير الشهير خير الدين باشا فأعجب به الوزير واتخذة نديماً له ، وجعله أمين سره ، وكلفه بترجمة الكثير من الرسائل والمذكرات السياسية .

وبدأ الوزير التونسي يصحبه معه إلى كل مكان يقصده ، وكذلك أعجب جبرائيل الدلال بالوزير فنزل من نفسه منزلاً عظيماً ، ولما أسندت إليه رئاسة الوزراء في الدولة العثمانية (أي صدرأ أعظماً) كتب إلى جبرائيل الدلال يستدعيه إلى الأستانة ليكون سكرتيره الخاص ، فلبى جبرائيل طلب الصدر الأعظم صديقه خير الدين باشا وانضم إلى حاشيته وأخلص له .

وقد استطاع خلال هذه الفترة أن يوثق صلته بالكثير من الرجال الذين اعتبروه لسان حال الصدر الأعظم . وتميز في الأوساط الدبلوماسية بالكثير من المواهب التي كان يتمتع بها سواء في ميادين العلم أو في ميادين السياسة .

ولما استقال الوزير خير الدين باشا من منصب الصدارة العظمى استأذنه جبرائيل الدلال في أن يعود إلى وطنه ، إلا أنه لم يرجع إلى حلب لأنه تلقى رسالة من رئيس المكتب الملكي في فيينا يطلب إليه أن يكون أستاذاً أول في المدرسة الملكية ، فقبل المهمة ، وكان ذلك سنة ١٨٨٢ وسافر إلى فيينا وتولى التدريس فيها مدة سنتين .

وفي هذه الفترة ألف لتلاميذه رسالة في الهمزة وأحكامها ، ورسالة ثانية في قواعد اللغة العربية تساعد على فهمها من قبل الطلاب الغربيين .

ولم يقتصر عمله في فيينا على التدريس بل كان يتصل برجالها ويدرس أحدث نظم الحكم وكان يرسل من فيينا الجرائد العربية الكبرى فيكتب أدق الملاحظات السياسية والاجتماعية عن أحوال الغرب ، فكتب إلى جريدة (الجوائب) التي كان يصدرها في الأستانة الشيخ أحمد فارس الشدياق ، وإلى جريدة الجنان في بيروت و(الأهرام) في الإسكندرية و(مرآة الأحوال) في لندن التي كان يصدرها رزق الله حسون . فكان كثير النشاط يكتب في الأدب والسياسة وينظم الشعر ويؤلف الكتب .

وبعد أن طاف في أوروبا وآسيا وأفريقيا مدة سبعة عشر عاماً عاد إلى وطنه ليدرس اللغة الفرنسية في المدرسة السلطانية ، وكأنما كانت العيون تترصده ، فما كاد يعود إلى أرض الوطن حتى أخذ الوشاة يشيرون موضوع قصيدته (العرش والهيكل) وهي قصيدة ثورية عرض فيها إلى تصوير حقائق الحياة بشتى مظاهرها ، وأطلق لنفسه العنان وهو في باريس للتعبير عن آرائه الحرة في جور السلطان وشعوذة المشعوذين ، فكان مفكراً حراً لا يتقيد بنزعة ، وكان لهذه القصيدة الثورية صداها البعيد في مختلف الأوساط ، وكانت وسيلة بيد حاسديه لتحطيمه والقضاء عليه .

فقد بدأت الوشائات تنهال عليه من كل جانب من جواسيس السلطان ومن رجال الدين الذين تضرروا من مهاجمته لهم فراحوا يتهمونه بالهرطقة والتجديف ، وجواسيس السلطان يتهمونه بالغمز من قناة السلطان ، وكان نتيجة ذلك كله أن زج بالسجن بعد أن عزل من منصبه كمدرس في المدرسة السلطانية .

ولا شك أن هذه النهاية قد هدت أعصابه ، ولا سيما وهو إلى رقة شعوره ودقة إحساسه ممن عاشوا طوال حياتهم في الأجواء الفسيحة وأجواء الحرية الرائعة . ولقد تحمل جبرائيل في سجنه كثيراً وحاول أصدقائه بكل الوسائل لكي يستصدروا عفواً من السلطان عنه ولكنهم لم يفلحوا ، ثم نصحوه أن يلتمس عفو السلطان بقصيدة مدح . . وبالرغم مما يحسه الحرُّ من مضض هذا التكليف القاسي فقد نظم بكثير من التكلف قصيدة استعطاف ، ختمها بعد المدح بزيارته بالواشين :

يا ملك الزمان عطفاً على الجاني المعنى المصنى الكتيب الشريد

أنت ظل الله الظليل على الأرض ومأمونه وخير رشيد

كن من الكاظمين للغيب والعافين بالناس عن ذنوب العبيد

فاعفُ عني فأنت للعفو أهلٌ وأقلُّ عثرتي بفك قيودي

وأعدني لحسن رأيك إني خادمٌ صادقٌ وخير ودود

فالوشايات والسعايات من أعدائي بادي ضغائنٍ وحقوق

وأنا عائدٌ بحلمك راجٍ رحمةً منك للذليل الطريد

فانعطف سيدي ومالك رقي واستمع صوتٍ لائذٍ منكود

وابق فخرًا للملك تزهوبك الدنيا ودم سالمًا بعيشٍ رغيد

وعلى الرغم مما في هذه القصيدة من تزلف وتوسل فإن صرخته ذهبت أدراج الرياح ولم يلتفت إليه وإلى كلامه ، فظل في سجنه القاسي يعاني من الآلام المريرة مدة سنتين ، وما زال في ذلك السجن حتى توفي صباح يوم الرابع والعشرين من كانون الأول عام ١٨٩٢ وكان عمره آنذاك ستة وخمسين عاماً .

ونقل من سجنه إلى منزله ثم إلى المقبرة في موكب صامت بين الدموع والحسرات .

وكما ذكرنا فإن قصيدة العرش والهيكل هي التي أودت به إلى هذه النهاية المؤلمة ، وقد نظم هذه القصيدة في باريس متأثراً بأفكار فولتير وجان جاك روسو فلاسفة الفكر الفرنسي الحر .

يقول بشير يوسف صاحب جريدة (القاهرة) التي كانت تصدر في مصر سنة ١٩٠٣^(١) (إن المرحوم جبرائيل الدلال رحمه الله سافر إلى باريس في عنفوان العمر

(١) محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب - سامي الكيالي ص ٧٥ .

ومقتبل الشباب ، فاطلع على كتابات فولتير وغيرها ، وعنها نقل هذه القصيدة إلى اللغة العربية ، وهي شهادة ناطقة بفضله . . وقيل إنه ساعده بترجمتها المرحوم رزق الله حسون السياسي الشهير ، والمرحوم عبد الله مراش الكاتب النحير . .

وبعد ثلاثين عاماً من ظهور هذه القصيدة بامضاء المرحوم جبرائيل الدلال وبعد أن عاد عدة مرات إلى بلاد الدولة وبخاصة الأستانة وحلب وشى به أحد اللثام ، وهو مأمور محاسبة معارف ولاية حلب ، فصدرت إرادة سلطانية بسجنه ومحاكمته . . أما المحكمة فلم تجد وسيلة للحكم عليه بعد مرور كل هذه المدة ، إلا أنها لم تصدر إدارة بإطلاق سراحه ، فيئس ومات شهيد قصيدته (العرش والهيكل) ومنهم من يقول إنه مات مسموماً والله أعلم) .

وقد أعطى الشاعر جبرائيل الدلال لنفسه ملء الحرية في التعبير عن آرائه من خلال هذه القصيدة وفي مهاجمة الكثير من المعتقدات الفاسدة .

وقد بدأ القصيدة بالكثير من المواعظ وغاص إلى الأعماق في البحث عن ألغاز الحياة وأسرارها الغامضة ، ثم انتقل إلى وصف رجال الدين (المشعوذين منهم) ثم إلى تعاليم المسيحية الصافية وما في التوراة من قصص ومواعظ وما بين الهوى والعقل من صراع ، ثم انتقل إلى السياسة وطغيان الملوك الذين يتربعون على صولجان الحكم كأنهم آلهة ، وقد وصف ظلمهم وبطشهم ثم هز ضمير الأمة لتستيقظ وتخلع الشر عن رقابها .

وسنورد من قصيدة العرش والهيكل أبياتاً تفصح عن مضمون القصيدة بكاملها ، فهو يبدأ قصيدته بالمواعظ والحكم فيقول:

عسرت لك الأيام في تجربها

وسرت بك الأوهام إذ تجري بها

ومضت أويقات الهنا وتلاعبت
أيدي سبابع عيدها وقريبها
فإلام تعرض ناسياً ذكر البلى
وعلام تغريك الحياة بطيها
واللمة الشمطاء تنذر بالغنا
وتشيب صفو صفائها بمشيها
ولى الشباب وأخلقت أثوابه
واحسرتي لنضيرها وقشيبها
وتجشمت هول الزمان وجوهنا
وعن النضارة بدلت بشحوبها
والشمس تسطع في أوان شروقها
والاصفرار يكون عند مغيبها
وحياتنا بشروورها وغرورها
كُست فكان شروقها كغروبها
تصفو الحياة مع الشبية برهة
ويروق كأس العمر عن مشروبها
ومع المشيب غمضنا إكدارها
واخشيتي من مر طعم رسوبها

وينتقل بعد ذلك إلى وصف رجال الكهنوت وتهالكهم على المال ، وبعد ذلك يصف تعاليم المسيحية ومعانيها الجميلة ، ويختمها بوصف طغيان الملوك واستبدادهم فيقول:

وكذا الملوك فليس ينكر ما جرى

فيما من استبدادها وركوبها

أوجور من فتح الممالك عنوةً

وبغى على سكانها وغريبها

فبنصره خذل العلوم وأخربت

تلك البلاد جيوشه بحروبها

أودى بأسباب المعيشة بطشها

وعلى التجارة سد أصل دروبها

نزل البلاء على الفلاحة والبوار

فأحلت بغيراسها وحبوبها

فلم الخضوع لذي البغاة ومالها

عجباً تتيه بتاجها وقضيبها

أم كيف نحمل جورها ونقاد رغ

مما مرتضين بعزمها كنجيبها

وبعد أن يصف بذخها وقصورها وامتصاصها دم الشعب يقول:

يا غافلين تنبهوا من رقدةٍ

طالت لسعد الوحش في تأديبها

فيها قد افترستكمو مذ كشرت

عن شر أنياب لهول نبيها

ها انهضوا وبطردوا اجتهدوا فقد

ساد الدمار وعم من تخريبها

ثم يختم القصيدة بقوله:

وليحكم الجمهور من عقلائه

قوم تراعى خيرة كنسيتها

ولتستوكل الحقوق تعادلاً

فيعود صوت قصيرها كأريبها

حتى ترى كل الوردى فوق الثرى

بالأمن يرعى شاتها مع ديبها

إن هذه القصيدة تؤرخ لفترة من فترات نضال الفكر الحر فوق الأرض العربية، وتثبت أن دعاة الفكر الحر منتشرون في كل مكان فوق هذه الأرض للدفاع عنها وإعلاء راية الحق والعدل.

قسطاكي الحمصي

١٨٥٨ - ١٩٤١

يعتبر الأديب قسطاكي الحمصي من أشهر أدباء حلب الذين اهتموا بالدراسات الأدبية وشوارد اللغة، فكتب النثر ونظم الشعر، وكان له مقام مرموق بين أدباء عصره.

ولد قسطاكي الحمصي في حلب سنة ١٨٥٨ وعاش طفولته مع أسرته في وسط تجاري، فأسرته من أعرق البيوتات الحلبية نسباً وجاهاً وغنى، وكان لهم مصرف كبير وتجارات واسعة.

تعلق بدراسة الأدب منذ صغره فنظم الشعر وهو تلميذ في المدرسة، وتعلم الفرنسية والإيطالية، ثم أتم دراسته الثانوية في مدرسة الآباء (رهبان مار فرانسيس). وتابع دراساته فأكب على المطالعة وحذق النحو والصرف والعروض بالإضافة إلى اللغتين الفرنسية والإيطالية.

رحل إلى مرسيليا سنة ١٨٧٥ ومكث فيها قرابة سنة تتلمذ فيها هناك على يد أستاذ فرنسي اسمه (جاكمان) لقنه دروس الفلسفة ثم عاد إلى حلب، وارتحل مرة ثانية إلى باريس سنة ١٨٧٨ لزيارة معرضها، ثم زارها مرة ثالثة حين جاءه نعي أخيه سنة ١٨٩٢ لتصفية محل أخيه التجاري في مرسيليا، ورابعة سنة ١٩١٣ لزيارة قصورها ومتاحفها ويستفي بظل حدائقها ومباهجها.

وكان لهذه الرحلات أثر كبير في نفسه وفي تفكيره ، فقد تركت بصماتها واضحة على عقله ونفسه من خلال احتكاكه مع رواد الفكر الذين التقاهم في رحلاته ومما اقتبسه من البلاد التي زارها وعاش شعوبها الراقية .

ولأن السفر من أهم هواياته فقد سافر سنة ١٨٩٨ إلى إستانبول وسنة ١٩٠٥ إلى القاهرة ، وكان يغتنم فرصة سفره إلى الشرق والغرب ليزيد من ثقافته الأدبية ويتعرف إلى أكابر رجالات الفكر . وقد استطاع خلال هذه الفترة أن يؤلف كتابه (منهل الوراد) في جزأين ، وهو أول كتاب ظهر في النقد الأدبي في بدء النهضة الفكرية .

وفي سنة ١٩١٩ انتخبه المجمع العلمي بدمشق عضواً عاملاً فيه ، وقد كتب في مجلة المجمع الكثير من المباحث والفصول في الأدب واللغة .

كان قسطاكي الحمصي غنياً بأدبه كما هو غني بماله ، ولكن اعتزازه بثروته الأدبية كان أكبر وأعظم لأنه يعتبرها خالدة أبداً ، أما المال فإنه عرضة للزوال .

عاش حياته كلها في جهاد ونضال يحرص على قديم اللغة وتراثها الثمين ، وكان عربي القلب واللسان غربي التفكير ، وبذلك كان من أبرز رجالات اللغة المعاصرين الذين جمعوا بين القديم والحديث وإن كان نهجه الأدبي إلى القديم أكثر ميلاً .

كان ينظم الشعر في كل مناسبة ، فقد بدأ قول الشعر لأول مرة وهو في الثالثة عشرة من عمره هاجياً أحد رفاقه في المدرسة مما دفع المدير إلى توبيخه له ولكنه أطراه وأثنى على موهبته بشكل غير مباشر .

وكان الشعر وسيلته للإفصاح عن نزواته السياسية ونزعاته الاجتماعية والكثير من أغراض الحياة الطارئة . فما من حدث وطني إلا وسجله بمنظومة من منظوماته التي تصور طابع الأدب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

وهو صحيح الأسلوب في نثره وشعره ، والقارئ يلمس في مدوناته قوة السبك أكثر من روح الشاعرية ، ويرجع هذا إلى تمسكه بقوالب اللغة تمسكاً قد لا يلائم جو الشعر المنطلق ، يضاف إلى ذلك إقحامه الشعر في موضوعات ذات صلة بالمناسبات السياسية والاجتماعية .

كان قسطنطين الحمصي شديد الاعتزاز بالعربية والعرب ، وكثيراً ما أخذ على بعض اللبنانيين تفاخرهم بالفينيقية مع أن العروبة أقرب إليهم ، وهم منها وإليها . ففي نقده لكتاب الجبارة للأستاذ لييب الرياشي يقول:

(ولا نجد بداً من البوح بما أنكرناه على المؤلف من صعوده بقومه إلى الفينيقيين وهم أمة هلكت ودرست آثارها وعلومها ولغتها على حين أنه يتكلم بلغة عربية فاشية في بلاده منذ ألوف السنين وهي أفصح لغات البشر وأوسعها ألفاظاً وأفسحها للأوضاع العصرية صدرًا ، ولها ماضٍ مجيد قد امتد إلى ما أنسى من ذكر الفينيقيين . وقد أثارت معارفها وعلومها أكثر جهات الأرض ، وصديقنا نفسه من عشاق هذه اللغة ، وعلى حين أن مدينة بيروت هي مدينة المدارس والمطابع العربية ، بل مدينة العلوم العربية والعلماء والشعراء والخطباء فما باله ينصرف عن الانتساب إلى هذا الأصل العربي الرفيع المجيد ، ويحاول الالتصاق بقوم لم يبق على وجه البسيطة من آثارهم سوى الاسم .

نقول هذا له ولمن يرى رأيه من أصحابنا في ذلك البلد العزيز ، أونحن أقرب نسباً إلى قس بن ساعدة وقوم الأخطل أم إلى الفينيقيين؟! ألا ترضون بالغسانيين نسباً؟! (١)

وقد ترجم أدينا الكثير من الشعر الفرنسي إلى اللغة العربية ، ودخل مع الأب أنستاس الكرملي في مجادلات لغوية عنيفة تغلب وغلب وتمسك كل منهما برأيه .

(١) محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب ، سامي الكيالي ، نقلاً عن مجلة منيرف ، الجزء ٧ ، السنة ١٩٢٤/٢ .

وكان من أصدقاء إبراهيم اليازجي المخلصين ، وكان بينهما رسائل في الأخوانيات ، وكان اليازجي يقر بفضلله وينشر مقالاته وشعره في مجلة الضياء .

من كتبه التي ألفها:

١ - منهل الوراد في علم الانتقاد ، وهو ثلاثة أجزاء ، طبع في مصر عام ١٩٠٧ في جزأين ، أما الجزء الثالث فقد أصدره سنة ١٩٣٥ .

يتألف الجزء الأول من قسمين ، فالقسم الأول يبحث في تاريخ النقد وموضوعه ، ويبحث الثاني في قواعد النقد وفروعه ، ويعترف الكاتب أنه استفاد من موسوعات العلوم الفرنسية كثيراً ، وأضاف إليه من قريحته ومن ثمار بحثه وتنقيبه . ويذكر أن الفرنسيين لم يضعوا في النقد الأدبي كتاباً لأنهم يعتبرونه من الفنون الذوقية التي لا تخضع لقواعد علمية .

ويدل الكتاب على سعة اطلاع وكبير معرفة ، ففي فصله الأول يبحث في تاريخ النقد عند العرب . ويستشهد في كتابه بأقوال المتقدمين كابن المقفع وأبي فراس ، وابن العميد . ثم يسترسل إلى كتاب القرن التاسع عشر الذين كثر منهم المؤلفون ، وتعددت سبل التسهيلات لهم من مدارس ومطابع . ومع ذلك فالمجيدون منهم قليلون ، والمغرورون من الضعفاء كثيرون ، وما ذلك إلا لأن أهل التمييز من النقاد ضئيلون ^(١) .

أما الفصل الثاني ففي تاريخ النقد عند سائر الأمم ، وفيه يقول إن (أرسطو أول من قال يجب أن تكون أعمال العقل خاضعة لشرائع مقدرة كأعمال الطبيعة ، وهو أول من اكتشف هذه الشرائع وأول من وضع أساسها) .

والفصل الثالث في القرون المتوسطة ، والرابع في القرون الحديثة .

(١) منهل الوراد ، ٥-٦ قسطاكي الحمصي .

ثم يبحث في موضوع النقد ، ويقول في نقد أبيات أبي نواس في الخمر (ألا فاسقني خمراً .) إن هذا الشعر ليس إلا (كلام سكير قد جهل الفضائل الإنسانية ومزية العقل وسلامة الحواس ، وقيمة شرف النفس التي تقضي على الإنسان بالاعتدال في جميع أحواله ليتسنى له البلوغ إلى الكمالات الإنسانية).

ويبحث كذلك في أركان النقد ، والنقد عنده نسبي ، فإذا أراد الكاتب نعت كلب بالذكاء فلا يستعير له ذكاء أحد أفراد البشر ، وأن تتوفر فيه صدق الإرادة (أي أن يلج فيه الناقد في ضمير المنقود وتختلط روحه بروحه فيكشف لنا أسرار نفسه).

القسم الثاني يبحث في قواعد الانتقاد مستعيناً بآراء علماء النقد .

أما الجزء الثاني من الكتاب فيتحدث عن الحكم ويضع له قواعد خمساً تمهد سبيل الحكم وهي: نقد القول ، نقد القائل ، نقد المقول فيه ، نقد الزمان ، نقد المكان . ثم يذكر قاعدة في البت في الحكم الذي ينقسم إلى قسمين: الترجيح والتنزيل .

ومجمل القول فالكتاب يدل على اطلاع كبير ، وتعمق في اللغة العربية وآدابها ، مع إدراك لأغراض النقد بمدلولها الواسع عند الأمم الأوروبية ، وقد كلفه ذلك جهد ستة عشر عاماً من حياته عانى فيها مشقة كبيرة في تتبع سير النقد عند اليونان والرومان والعرب والفرنسيين . ومما يسترعي النظر في أسلوبه النثري تلك الازدواجية التي اختلفت فيها الصيغة اللفظية كل الاختلاف . فهو حين يحاول الكتابة العلمية؛ أو يطرق الموضوعات العامة ، يبدو حرصه الشديد على أناقة المبني إلى جانب (أسلوب سهل يتوخى فيه السلاسة والوضوح ولا يتقيد كثيراً بجرس اللفظ إلا إذا جاء عفواً) . وإذا ما حاول الوصف المحض أو كتب الرسائل ، بدت عنايته الفائقة باللفظ المنتقى ، والسجع المنمق وبدا زخرف الكلام مظهراً بارزاً في أسلوبه .

وفي بعض فصول الجزء الثالث من الكتاب يوازن الحمصي بين فيلسوف العرب المعري في رسالة الغفران وبين عبقرى النهضة الإيطالية (دانتي) في مؤلفه الشهير (الكوميديا الإلهية) ويحلل من خلالهما نفسية الأديبين ويذكر أوجه التشابه في أثرهما وأوجه الاختلاف .

الكتاب الثاني هو: (أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر) وطبع في حلب عام ١٩٢٥ و عام ١٩٦٩ . ويعد هذا الكتاب مرجعاً هاماً لأدباء حلب في القرن التاسع عشر وترجمة لهم . وهو عظيم الفائدة فيما يتعلق بمعرفة صور الأدب واتجاهاته في هذه الفترة . يحوي القسم الأول منه تراجم المتوفين منهم وعددهم أربعون . ويحوي القسم الثاني تسعة من الأحياء . وإلى جانب التراجم يعدد مؤلفات الكتاب والشعراء ولا يذكر سنوات الطباعة إلا ما ندر ، لكنه يورد استشهادات شعرية ويحكم عليها . ويلاحظ عنده أحياناً إغفال بعض التراجم وإثبات ما لا يلزم منها .

الكتاب الثالث: كتاب السحر الحلال في شعر الدلال ، جمع فيه أشعار خاله جبرائيل الدلال وضمنه ترجمة له . وطبع في حلب ١٩٠٣ وفي مصر ١٩٠٧ .

الكتاب الرابع: مجموعة رسائل ومحاضرات ومقالات في موضوعات مختلفة كالآدب والاجتماع واللغة والأخلاق والسياسة .

الكتاب الخامس: ديوان شعر كبير طبعت مجلة الكلمة الحلبية الجزء الأول منه عام ١٩٣٩ ، وكان الشعر وسيلته للإفصاح عن نزواته السياسية (كما ذكرنا سابقاً) ونزعاته الاجتماعية والكثير من أغراض الحياة الطارئة ، فما من حدث وطني إلا وسجله في منظوماته التي تصور طابع الأدب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وقصيدته (البدوية) تمثل لنا تلك الصور التي ذكرناها:

– البدوية –

بِاللهِ يانِسمات الرند والبان
من نجد جئتُ أم من روض غسانِ
فإن فيكن ريحاً من ملابسها
فطيب ليلي بأنفسا وأردانِ
وهل لثمتن من ليلي مباسمها
إني عليها غيور أي غيرانِ
إني أغار عليها من صواحبا
والحاسدات، ومن إنس ومن جانِ
فإن ليلي فتاة لا مثيل لها
صيغت من الحسن شكلاً ماله ثانِ
ويصف البداوة والبدوية على أنها اللغة العربية:
حروفها لمعان لا تطاولها
في حسنها بنت يونانِ ورومانِ
ألفاظها دررٌ تركيبها سورٌ
آياتها غررٌ في كل قرآنِ

غزيرة الفضل لم يجحد محاسنها
إلا جهولٌ بإيجازٍ وتبيانٍ
لها الفصاحة تعزى أينما وجدت
شهودها مثل قسٍّ أو كسحبانٍ
وفي البلاغة هل خوذٌ تضارعها
وأصلها صاعدٌ يسمو لقحطانٍ
والشعر محتدها من ذا ينازعها
فيه؟ وكم يتمت من ندٍّ حسانٍ
وهل أمية صالت واستقام لها
ملك وطرف ليلي غير يقظانٍ
وهل سما عرش هارون الرشيد على
ملك بنائه على عدلٍ وعمرانٍ
والأرض في ظلمة للجهل حالكة
وملكه مشرق من نور عرفانٍ
ألا وأعلام ليلي غير خافية
في كل مأثرة تعلو ببرهانٍ

وهل خليفته المأمون رد لنا

علم الأوائل من أقوام يونان

إلا بألفاظ ليلي غير ملتصق

في حسن تعريبها ألفاظ أعوان

ثم يختم قصيدته بقوله:

نم يا أخا العود لا تغضب لما أثموا

فليس لبنان ذا، بل بعض لبنان

وذلك البعض جزء البعض من نفر

فما لحزنك فينا غير غضبان

ليلاك آمنة ما دام من رهنوا

عهودهم عندنا من خير أعوان

* * *

مريانا مراش

١٨٤٨ - ١٩١٩

. تعتبر مريانا مراش من أهم الأديبات في شرقنا العربي في العصر الحاضر ، فهي سليلة بيت أدبي مرموق ، فأبوها فتح الله المراش الرجل الفاضل الذي اعتنى بالكتب والمطالعة وجمع مكتبة كبيرة حوت كل أنواع الكتب ، وأخوها عبد الله مراش وفرنسيس مراش كانا من أركان النهضة الأدبية في الشرق العربي في القرن التاسع عشر . أما مريانا فقد لمع نجمها في مجال الأدب ، واعتبرت أول امرأة تفتح صالوناً أدبياً في المنطقة العربية .

درست مريانا العربية على يد أخيها فرنسيس ، ودرست اللغة الفرنسية في مدرسة راهبات ماريوسف وأتقنت فنون العربية من نحو وصرف وعروض على يد أبيها . كما درست الموسيقى وكانت عازفة بارعة .

وما كادت ثقافة مريانا الأدبية تكتمل حتى أخذت تكتب في الصحف والمجلات ، فكتبت في جريدة (لسان الحال) وفي مجلة (الجنان) مقالات تنتقد فيها عادات بنات عصرها ، وتحضن على التزين بالعلم والأدب .

وكذلك راحت تنتقد أساليب الكتابة المتبعة في ذلك الوقت ، والتي كان الكتاب فيها يتقعون في ألفاظهم فدعتهم إلى تحسين أساليب الإنشاء وتنويع الموضوعات والتفنن بها .

وقد سافرت مريانا إلى أوروبا واطلعت على أخلاق الأوروبيين وعاداتهم
عن قرب فاستفادت منهم كثيراً، ثم عادت إلى وطنها تبث بين بنات جنسها
روح التمدن الحديث والأخلاق الصحيحة.

ومنذ عودتها أصبح بيتها ندوة يجتمع عندها الأدباء، يقرؤون ويبحثون
ويتطارحون الشعر، ويستمعون إلى عذب غنائها ويستمتعون بجمال الصوت
وعذوبة الغناء ولذلك اعتبر بيتها أول صالون أدبي في المنطقة العربية.

وقد نظمت عدة قصائد ومقطوعات في أغراض شتى، وجمعت أشعارها
في ديوان سمته (بنت فكر).

فمن شعرها الذي قالته أبيات ترثي فيها صبية ماتت محترقة. تقول:

عفافة نفس مع بديع محاسن

ورقة أعطاف، فله كم تسي

فقد جمعت ضدين في حد ذاتها

ففي اللحظ إيجاب يشير إلى اللب

وشغل قلبها برجل فتزلت به قائلة:

بذكر المعاني هام قلبي صباة

فيا نور عيني هل أكون على القرب

عسى الشمس في مراك للعين تنجلي

فتنقل للأبصار ما حل بالقلب

ونجد من خلال ذلك أن شعرها العاطفي كان شعراً رقيقاً مفعماً بالأحاسيس
وكانت ترسم نبضات قلبها بشعر رقيق ، فمن شعرها تشطيرها الأبيات المشهورة
(للعاشقين بأحكام الغرام رضا):

للعاشقين بأحكام الغرام رضا

يمسون صرعى به لم يألّفوا المرضا

لا يسمعون لعذل العاذلين لهم

فلا تكن يا فتى للجهل معترضا

روحي الفداء لأحبابي وإن نقضوا

ذاك الذمام وقد ظنوا الهوى عرّضا

جاروا وما عدلوا في الحب إذ تركوا

عهد الوفي الذي للعهد ما نقضا

قف واستمع سيرة الصبّ الذي قتلوا

وكان يزعم أن الموت قد فُرّضا

أصابهم سهم لحظ لم يبال به

فمات في حبهم لم يبلغ الغرضا

رأى فحبّ فرام الوصل فامتنعوا

فما ابتغى بدلاً منهم ولا عوضا

تقطع القلب منه بانتظار عسى

فـرام صـبراً فأعيا نيله فقضى

وقد وصف الأديب قسطاكي الحمصي الشاعرة مريانا مراش (وكان من معاصريها ومن رواد صالونها الأدبي) وصفها بقوله: (كانت مريانا مراش رقيقة الشمائل، عذبة المنطق، طيبة العشرة، تميل إلى المزاح، وقد تمكن منها الداء العصبي في آخر سني حياتها حتى كانت تتمنى الموت كل ساعة).

ولم تكتف الأديبة الشاعرة مريانا مراش بالغزل بل كانت تمدح بعض رجالات الدولة العثمانية، وبعض القناصل الذين كانوا على صلة وثيقة بها وكانوا يترددون على صالونها الأدبي.

وحياة مريانا مراش تشبه حياة الأديبة المعروفة (مي زيادة) التي كانت تعيش في مصر. فكما تمكن الداء العصبي من مريانا تمكن أيضاً من الأنسة مي زيادة. هذا الداء الذي أورثها الضيق والملل والانقباض حتى كانت تفضل الموت على الحياة.

وقد قضت مريانا نحبها في نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٩ كما قضت مي نحبها في نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٦ م.

* * *

عبد الله مراش

١٨٣٩ - ١٨٩٩

هو الأخ الأوسط في أسرة (آل مراش) فهو أكبر من مريانا وأصغر من فرنسيس. وكذلك لم يكن على سوية أخيه فرنسيس في مجال الشعر والشهرة ويقصر أيضاً أخته مريانا. إلا أنه لم يتجاوزهما في أدب الترسل.

وكان على جانب كبير من الثقافة العامة فكان أديباً بالإضافة إلى عمله التجاري وله أسلوب رصين جزل يفصح عن أدق المعاني بأرق الكلمات.

وقد سافر إلى أوروبا (كأخيه فرنسيس) واتصل بكثير من المستشرقين. وأثناء زيارته لباريس ولندن مر بمكتباتهما واطّلع على كثير من المخطوطات النادرة فعني بها عناية كبيرة ونسخ بعضاً منها.

وكان يدبج المقالات الأدبية والعلمية والسياسية دون توقيع، إلا أن أسلوبه يفصح عن شخصيته التي تميزت بتواضع وعلم غزير.

ويتحدث الشيخ إبراهيم اليازجي عنه فيقول:

(عبد الله بن فتح الله مراش وشقيق المرحوم فرانسيس المراش الشاعر والكاتب المشهور، من أسرة عريقة في الفضل والوجاهة، معروفة والأدب،

ولد في حلب في ١٤ أيار ١٨٣٩ ونشأ بها ، وتأدب على والده وغيره (وتلقى علومه الابتدائية في مدرسة الرهبان الفرنسيين في حلب ، حيث أصاب من أصول اللغة الإيطالية قليلاً) فتلقى في حداثة مبادئ علوم اللغة العربية والخط والحساب ثم دخل في أعمال التجارة فتخرج في فنونها ، ولما بدت نجاحته فيها انتدبته جماعة من جلة تجار حلب لعقد شركة تجارية ينشئ لها محلاً في مانشيستر من بلاد الإنكليز ، فسافر إليها في سنة ١٨٦١ ولبث بها إلى سنة ١٨٦٩ واشتهر بما كان عليه من الأمانة والدراية فكان له مقام محمود بين معامليه .

ثم انتقل سنة ١٨٧٠ إلى باريس فلبث بها إلى سنة ١٨٨٢ ، وبعد ذلك فارقها إلى مرسيليا ، وألقى بها عصاه ولم يزل مقيماً بها إلى أن توفاه الله في ١٧ كانون الثاني (١٨٩٩) .

ويتابع الشيخ إبراهيم اليازجي واصفاً الأديب عبد الله مراش :

(كان عبد الله مراش على حظ من الدنيا بلغ به مبلغ الرضا وهو الغنى كله ، فلم يكن بعد ذلك يحرص على حشد الدينار ، ولا يعاني الكسب ، ولكنه انصرف إلى المطالعة ، والتوسع في العلم ، وهو ما لم ينقطع عنه قط مع اشتغاله بالتجارة أيضاً . . فإنه كان كثير الاختلاف إلى مكاتب لندن وباريس يتصفح ما فيها من الأسفار قديمها وحديثها ولا سيما الخطية منها ، فأدرك حظاً وافراً من لغة العرب وتواريخهم وآدابهم ونسخ عنها عدة كتب عزيزة ورسائل أخرى كلها من غرر آثار الأقدمين ونوادير تأليفهم نسخها بخطه مع العناية والتوفيق في مقابلتها وتصحيحها ، وكان مليح الخط ، نقي الرقعة ، كثير التأنق كأكثر خطاطي حلب .

ويكمل حديثه قائلاً :

وكان رحمه الله من أكابر أهل الإنشاء ، حسن الترسل ، سهل العبارة ، واضح

الأسلوب، بصيراً باختيار الألفاظ والتراكيب، حسن النقد، حريصاً على البلاغة وضوح المعاني، آخذاً بالنصيب الأوفر من قوالب فصحاء العرب وألفاظ الخاصة من أهل الأدب، وكان مع ذلك متقناً للغة الإنكليزية، والفرنسية، والطيانية، يكتب فيهنّ جميعاً، وكان له باع طويل في التاريخ والفلسفة وعلم الأخلاق والأديان والشرائع المختلفة، مشاركاً في كثير من علوم المعاصرين كالطبيعيات والهيئة وسائر الفنون الرياضية، وكان بصيراً بالسياسة، مطلعاً على أسرارها ودقائقها، وله في كل ذلك مقالات ورسائل شتى، منها ما نشر في بعض الجرائد العربية، في لندن وباريس وجرائد ومجلات القطر المصري.

وأما صفاته الشخصية فقد كان ربعة القوام، معتدل الجسم، أبيض اللون، طلق المحيا، فصيح اللسان، مهذب المنطق، واسع الرواية، لطيف المحاضرة، وقد أتيح لنا لقاءه عند مرورنا في مرسيليا في أواخر سنة ١٨٩٥ وهو في نحو السابعة والخمسين من عمره، وقد وخطه الشيب، وأنضجه السن والتجربة، فالفينا فيه رجلاً جليل القدر، كامل الصفات، قد جمع بين رزانة الإنكليز ورقة الفرنسيين، وأريحية العرب، وكان على أعظم جانب من الزهد، وخفض الجناح، بعيداً عن الزهو والخيلاء، منزهاً عن الدعوى والكبر، حتى أنه مع سعة فضله ورسوخ قدمه في العلم والإنشاء وإجماع المطالعين على استحسان كلامه، كان يتفادى من ذكر اسمه في أكثر ما كتبه وما طبع له، ويشترط ذلك على كل من يروم نشر شيء من آثاره، وهذا لا جرم من عنوان تمام فضله وتناهيده في الكمالات الإنسانية^(١).

هذا ما ذكره لنا الأديب الشاعر الشيخ إبراهيم اليازجي من صفات خَلْقِيَّة وخُلُقِيَّة تميز بها الأديب عبد الله مراش، ونجد في هذه الصفات رجلاً تمتع بمزايا عديدة جعلته أديباً من صفوة أدباء تلك الحقبة.

(١) محاضرات في الحركة الأدبية في حلب، سامي الكيالي، نقلاً عن مجلة الضياء، السنة الثانية.

ولم تشغل الأعمال التجارية المراه عن المطالعة والتوسع في العلم ، فقد كان كثير الاختلاف إلى مكاتب لندن وباريس (كما ذكرنا) وأدرك منها خلال اطلاعه على ما فيها من فكر وثقافة وعلوم حظاً وافراً من لغة العرب وتواريخهم وآدابهم ونسخ كتباً عديدة عنها كانت من نفائس الكتب . ومن الكتب التي استنسخها في باريس (يتيمة الدهر) للثعالبي . ثم عارضها بنسخة لندن ، وأشار إلى أماكن الاختلاف بين النسختين . وأفاد أيضاً من إقامته الطويلة في أوروبا حتى قيل عنه أنه جمع بين رزانة الإنكليز ، ورقة الفرنسيين ، وأريحية العرب .

وقد أجمع معاصرو عبد الله مراه على استحسان مقالاته التي طرق فيها كافة الأبواب ، والتي أحيا فيما كتبه منها عن علم الهيئة ، ألفاظاً قديمة ذهبت بأكثرها الأيام إلا ما أبقت الأسفار المحفوظة في خزائن أوروبا .

وللمراه أيضاً انتقادات لمنشورات المستشرقين ، منها نقد مطول على ترجمة فرنسية لكتاب (مروج الذهب) للمسعودي ، أجمع من قرأه أنه كان جزيل الفائدة ، إلا أنه كان يتفادى من ذكر اسمه الصريح في ذيل المقالات التي يكتبها ابتعاداً عن الشهرة ورغبة عنها ، وكل ما بقي له رسالتان :

١- الأولى: (في علم الهيئة وتخطيط الأرض) .

٢- الثانية: (في الأخلاق والآداب) أعرب فيها عن خواطر الدوق (دي لاريشفو كو) .

ونقدم نموذجاً من نثره الذي اشتهر به وهو بعنوان (المعلم):

إن القدماء والمحدثين من أهل البلاد التي توفر حظها من المبدئية كانوا ولا يزالون يقدرون المعلم ، أي المربي والمؤدب ، حق قدره ، ويحلّونه وينزلونه فوق منزلة الحاكم ، لأن الطبيب إن داوى أسقام البدن وشفاهها - وهيئات - فلا يقدر أن يداوي أسقام النفس ويشفيها ، بل هذا من ولاية المعلم ، ولأن الحاكم إنما يعاقب

الجانبي إذا جنى ، ولكن ليس من ولايته أن يجعله عزوفاً عن اقتراف الجرائم . بل هذا منوط بالعلم .

والحاكم يقيم الحد على الشرير إذا أذنب ، وقد يقصيه أو يعتقله أو يؤدبه ، ويريح الناس من شره حيناً ما ، فمثله في ذلك مثل الجراح الذي يقطع من أعضاء الجسم ما كان مريضاً ليسلم سائرهما .

إلا أن المعلم يحاول استئصال الشر من جرثومته ، وكثيراً ما ينجح في ما يحاوله .

* * *

أبو الهدى الصيادي

١٨٤٩ - ١٩٠٩

هو علم من أعلام الأدب والفكر في القرن التاسع عشر. برز في مجال الفكر والشعر كما برز في مجال السياسة. بل إن الأدب والشعر كان طريقه إلى علو كعبه في السياسة حتى وصل إلى مقربة من ذروة السلطان.

وعندما نلتفت إلى قصته لنقرأها فإننا واجدون فيها من الأعاجيب ما يبهر السمع ويخلب لب القارئ.

فأبو الهدى الصيادي إنسان يملك طموحاً كبيراً زينه بدهاء عجيب وصبر وجد ودأب. بدأ صغيراً من قرية هي (خان شيخون) وهي من أعمال حلب، وراح فيها يطلب العلم وانتسب إلى إحدى مدارسها الدينية وتلمذ على مشايخها في الفقه والحديث والتفسير وكذلك في الأدب والأصول. فقد كانت تلك المدارس تجمع في تدريسها بين التعاليم الدينية والأدب العربي لكي يحصن الدارس نفسه لغوياً ويتمكن من ناحية اللغة، بالإضافة إلى توسيع علومه ومعارفه وأكثر ما يأخذ دارس العلوم الشرعية من الأدب الشعر الديني وما يدعو إلى تهذيب الأخلاق.

بدأ حياته بنظم الشعر فعرف في حلب شاعر مدح لطيف العبارة أنيقها جزل اللفظ متين التركيب. ومن شعر الغزل في تلك الفترة قوله:

ما هب نشر الصبا إلا فؤادي صبا
والتفتت همتي لريم ذاك الخبا
يا ساكناً مهجتي صيرتها كالهبا
رفقاً بذي لوعة رأى الهوى مذهبا
لأجل خديك قد يُعشق وردُ الربى

وسنقرأ بعد ذلك في شعره الصوفي كثيراً من نسمات الشوق والحب الذي قرأناه الآن مع مطلع شعره الغزلي .

وقد كتب في النثر كما كتب في الشعر إلا أن نثره كان أقل ولكنه كان يتميز بلونه الصوفي المشرق .

يصف أبو الهدى الفراق فيقول^(١):

« الفراق عند النظيرين سر لطيف يتصل بالقلب من طريق المخيلة ، فيمر بالحافظة ، ويقيم لبصرة القلب مشهداً تراه بعين رؤيتها ، فهي إذا رآته هزت القلب فاعترك عليه البث والحزن ، فتشوقت العين لرؤية ذلك المشهد ، وحيث لم تشهده للبعد والفراق ، بكت حينئذ العين ، وحنّت الروح ، وخفق القلب ، وانتشر سر ذلك الوجد والألم على الجوارح فألقى على العين رمداً وعلى الجسم كمداً ، ولا دواء لداء الفراق سوى التلاق ، غير أن كلّ مفارق لا يبقى فيمن فارقه ذلك الأثر ، إذ الروح لطيفة نورانية أمرية تحن إلى كل لطيفة معنوية أو مادية لا ينبعث منها الحسن إلى كثيف أصلاً ، إذ الكثائف سافلة واللطائف عالية ، وحنين الروح لمن يفارقه ذو الروح لا يكون إلا لمعنى في المفارق لطيف ، تدركه الروح ولو أغفله الإنسان لما ينصب لمنافذ بصيرته من الحجب الكثائف ، ولما يكون في لطيفة فكره من الضيق ، وفي حبل نور عقله من القصر حتى ينصرف لمجرد مرئي من مال أو جمال أو شأن أو حال لا حظ

(١) محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب - سامي الكيالي ص ١١٧ .

للروح به ، وأرباب الأفكار الوسيعة والعقول النيرة الطويلة ولو طرقتهم طوارق الميل
للكثائف فهم يعلمون أن سر الحب للطائف يعرف ذلك العارف» .

وفي حلب اتخذ أبو الهدى الشعر وسيلة للظهور وفرض شخصيته على
المجتمع الحلبي . وكان ينظم قصائد المدح ويطوف على بيوت كبار الأسر وأعيان
الدولة ليمدحهم .

وكان أبو الهدى الصيادي من المنتسبين إلى الطريقة الرفاعية في التصوف
أخذها عن طريق والده بإذن من ابن عمه الشيخ علي خير الله الصيادي شيخ
مشايخ حلب ، وأتم الطريقة على يد شيخه السيد بهاء الدين الصيادي الشهير
بالرواس . وبعد ذلك أصبح شيخ طريقة وعرف بهذا الوصف .

وتسلم بعد ذلك ولاية خان شيخون (بلده) دينياً وبحكم محكمة ولاية
سورية سنة ١٢٨٥ هـ وعمره آنذاك تسعة عشر عاماً وقد تولى منصب الإمامة
في بلده بسبب نسبه الشريف إلى الإمام علي الصيادي ابن السيد الرفاعي ثم إلى
الصحابي الشهير خالد بن الوليد .

ولكن مقامه هذا لم يحقق له شيئاً من طموحه كما لم يجد في حلب ما
يشبع طموحه فقد كان في نظر اسر حلب (شيخ طريقة وشاعراً مداحاً) أما هو
فقد كان يرى في نفسه قمة أهل زمانه وهذا الطموح لا تتسع له حلب أو خان
شيخون إذاً فلا بد من (استانبول وإن طال السفر) .

انتقل إلى استانبول ونزل في أحد خاناتها ، وفي إقامته في استانبول يصفه
المرحوم محمد كرد علي في مذكراته نقلاً عن أبيه بقوله:

« كنا بضعة تجار من الشاميين في استانبول في خان من خاناتها ، ولم تكن
الفنادق يومئذ معروفة وكنا نتألف ونشترك في النفقة والسمر ، وكان يزورنا
درويش شاب ، أسمر اللون ، جهوري الصوت ، تبدو أمارات الذكاء عليه

وله جدائل يرخيها على ظهره ، يعتم بمئزر ، ويكتسي عباءة وقفطاناً ، ويضرب بالدف ، وينشد أشعاراً على طريقة القوم ، وما كان يشاركنا في النفقة ، ومهمته أن يسلينا بأناشيده كل ليلة ، وهذا الفتى هو محمد بن حسن وادي المعروف بأبي الهدى الصيادي الرفاعي» .

وفي الأستانة (استانبول) أخذ يتصل بكبار رجال الدولة ممن عرفهم الذين أعجبوا بفطنته وذكائه فولوه نقابة الأشراف لقضاء جسر الشغور ثم قاضياً عليها مع احتفاظه بنقابة الأشراف فيها ثم رقي إلى نقيب أشراف ولاية حلب وعمره لا يتجاوز آنذاك الخامسة والعشرين .

وبدأ يرتفع سهم مكانته بين الناس وراحوا يتقربون إليه ويلتمسون منه العطف والرعاية وخاصة بعد أن خصص له السلطان عبد العزيز خان راتباً خاصاً وبعد أن فوضه نقيباً لأشراف الدولة العثمانية .

ومع كل هذه المناصب التي تقلدها والمكانة التي توصل إليها لم يكن راضياً عن مكانته ووضعه فقد كان طموحه أكبر من ذلك .

ولم يجد له طريقاً يرفعه أكثر مما هو عليه سوى طريق التصوف والتشبه بسير الأولياء والصالحين .

فاتخذ طريق التصوف وقصائد المديح النبوي التي كانت هي الطريق الميسر في هذا المجال نظراً لأن للدين قداسته عند الخلفاء العثمانيين .

وضع شيخنا أبو الهدى الصيادي نصب عينيه أن يصبح شيخ السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ووصيفه . وقد ساعده في ذلك نسب عريق فهو من الأشراف من نسل السيد الرفاعي ويمتد نسبه إلى الإمام علي (كرم الله وجهه) وهو بالإضافة إلى ذلك من المتصوفة بالإضافة إلى ذلاقة لسانه وشاعريته الفياضة وذكائه الشديد .

وصدف أن مرضت زوجة ناظر الضبطية وعجز الأطباء عن شفائها فاستدعي أبو الهدى الصيادي لعلاجها وساعده الحظ فقد شفيت من مرضها بعد أيام من عنايته بها فعظم مقام الشيخ في عين الناظر وكبار رجال الدولة .

وعظم حظه أكثر فاستدعي لمداواة جارية السلطان عبد الحميد بما أصيبت به زوجة الناظر ونجح في علاجها مرة أخرى فعظم قدره في عين السلطان وأعلى مرتبته فعينه رئيس مجلس مشايخ دار الخلافة واستدعي لمقابلة السلطان فكتب قصيدة يفخر بها بما وصل إليه فيقول:

كيف لا تزدهي بنا العلياء ولنا المجد طينة ورداء

وقضى الشيخ ثلاثين سنة إلى جانب السلطان فكان من أكبر ثقاته ، وكان خلال هذه الفترة مقصد المحتاجين ، وكان قصره قبلة كل طلاب الحاجة المادية والمعنوية ، وكان لا يرد أحداً بل يساعد كل من يقصده فكلمته سارية على كل رجال الدولة .

وكان شيخنا أبو الهدى كلما ازداد رفعة عند السلطان كلما كثر حاسدوه واشتجرت الخصومة في هذه الفترة بينه وبين الشيخ جمال الدين الأفغاني فقد كان كل منهما يهدف إلى غاية تختلف عن غاية الآخر . ولذلك قامت بينهما خصومة عنيفة جعلت السلطان يستغني عن خدمات جمال الدين الأفغاني وبذلك انتصر أبو الهدى الصيادي عليه وأزاحه من طريقة ولكن . . ظهر خصم جديد هو عزة باشا العابد الذي تقرب من السلطان حتى أصبح كاتبه فضاق أبو الهدى بنفوذه كما ضاق عزة العابد بنفوذ الشيخ واشتدت بينهما الخصومة إلا أن كل ذلك لم يضعف من مكانة أبي الهدى عند السلطان العثماني وبقي صديقاً ووصيفاً وشيخاً له إلى أن حدث الانقلاب التركي على السلطان عبد الحميد وأخذ مع مليكه إلى جزيرة الأمراء وبقي هناك مريضاً إلى أن قضى نحبه .

اشتهر الشيخ أبو الهدى بشعره الصوفي الذي كان يتميز بالصفاء والرقّة
والتهذيب ويكاد في بعض قصائده يشبه شعر ابن الفارض وسنذكر له بعضاً من
هذه القصائد.

يقول في إحداها:

يا غائباً في القلب حاضراً	لمتى.. وأنت أحب هاجر
أخفيت شرك والهوى	في باطني ما زال ظاهراً
أرحم عشيرك يا حبيباً	حسنه فتن العشائر
مالي وطرفك وهو هذا	ثائرو عليّ قاذراً
فكري بلطف جميل ذاتك	يارقيق الخصر حائر
وحياة عينيك لم أزل	طول الدجى بهواك سائر
أبكي ودمعي ناظم	دراً ملاً لآة وناثر

إلى أن يقول:

أحيا وصالك مهجتي	لكنه زاد المسافر
وأذابني هذا البعاد	وعنك قلبي غير صابر
أرفق بجسم هـد لكن	في خفاء هواك عامر
بك هام طُوراً سره	وأولوا الهيام لهم سرائر
فأرحم لترحم واغتنم	أجري وكن للكسر جابر

ومن قصيدة أخرى يقول:

من الهوى آه	والصب أوأه
أفنى الهوى كلي	والقلب يرضاه

ويلاه من ريم	في القلب مثواه
لم يشتغل فكري	واللب لولاه
يطيب لي معنى	يفيد ذكراه
والعين لم تبصر	والله إلاه
أقام في سري	والروح عناه
وثغره الألى	ياما أحياه
سبحان من فضلاً	بالحسن حلاه
كم طرفه أدمى	فؤاد مضناه
متى ترى عيني	سنا محياه
ويشتفي العاني	بلثمه فاه
كانه بدر	في برج مجلاه
أذاب مضناه	دلال علياه
كم أوقعت فيه	النبال عيناه
يامن غدت روعي	بالوجد ترعاه

وفي قصيدة الثالثة نلمس تأثير صوفية ابن الفارض في شعره فمطلع قصيدته يشبه مطلع قصيدة ابن الفارض في الإلهيات:

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً سكرنا بها من قبل أن تخلق الخمر

فيقول:

سهرنا على ذكر الأحبة يا هند	فما انكشف المعنى ولا أنجز الوعد
نعد نجوم الليل من فرط وجدنا	ويعبث فينا الليل والوجد والعد
ونبكي إذا الحادي حدا بنعوتهم	فيعجب إذ نبكي ونعجب إذ يحدو

وتأخذنا الأشواق من كل جانب
عسى نفحات الغيب تمنح باللقا
أحبنا طالت ليالي صدودكم
تطوف بنا أرواحنا كل لحظة
تقلبكم منا القلوب بسرّها
إذا سكنت من خافق الوجد طرفه
ولطف معانيكم وساعات قربكم
سراثرنا أنتم نظام فنونها
شكونا فأبكتنا الشكاية في الهوى
وطبنا بكم والكل أنتم ولم يكن
متى يسعف السعد النوم بوصلكم
وحق الهوى من يوم غابت شخوصكم
يحن لنا الصخر الأصم ترحماً
أعيدوا لنا بالله عادات بركم
ومنوا علينا بالوفا بعد هجركم
طوبنا بلبّ السر ناراً لأجلكم

فلا طوقنا طوق ولا جهدنا جهد
ويطوى بساط القرب ما مده البعد
متى يضع الوصل يندفع الصد
ويشملها من كل أطرافها الوجد
ويطبع فيها الصدق والحب والود
تكاد بشرع الحب تهوى وترتد
وكاسات وصل دون لذتها الشهد
وفي سرحها الممدوح جوهركم فرد
وغنا فلا قبل سواكم ولا بعد
سواكم له في السر أخذ ولا رد
ويحصل ما نهوى ويستيقظ السعد
فلا غورنا غور ولا نجدنا نجد
ويلحظنا بالرافة الحر والبد
ورفقاً بدمع شق من سيله الخد
فليس لنا والله من دونكم قصد
يذوب لها يا قومنا الحجر الصلد

* * *

عبد الرحمن الكواكبي

١٨٤٩ - ١٩٠٢

عرف الشرق العربي منذ منتصف القرن التاسع عشر ، صفوة من أحرار الفكر أخذوا على عاتقهم النهوض بأوطانهم ورفع شأنهم وأن يرتقوا بهم إلى ذرى المجد بعد أن يحرروها من العبودية والأسر .

ومن أبرز هؤلاء فارس القلم الذي ملأ دنيا الفكر والسياسة والأدب بأفكاره الجريئة ومواقفه الشجاعة في مواجهة الاستبداد والفساد والظلم .

إنه عبد الرحمن الكواكبي .

ولقد نشأ الكواكبي في بيئة ضيقة لا يتسع نطاقها للعمل الحر . . وهو منذ نشأته الأولى ثورة لاهبة ضد الظلم والفساد . وقد حاول الإصلاح في وطنه عن طريق الكتابة ولكن قيود العهد المعروف بالعهد الحميدي (عهد السلطان عبد الحميد الثاني) كان ثقيلة وكانت عيون عبد الحميد في كل مكان يعدون على الناس حتى أنفاسهم فاضطره هذا إلى الرحيل عن الوطن . ولكن . . لم نستبق الحدث فلنبداً الحكاية منذ بدايتها لنعيش مع قصة رجل خلده فكره ورفعته إلى مصاف عظماء الإنسانية .

ولد عبد الرحمن الكواكبي من أسرة كريمة سنة ١٨٤٩ . وبدأ تعلم القراءة والكتابة في المدرسة الابتدائية ، وبعد أن استوفى علومه فيها أحضر له والده أستاذاً خاصاً لتعليمه التركية والفارسية (وكانت التركية لغة الدولة الرسمية) ثم انتسب إلى المدرسة (الكواكبية) المنسوبة إلى أسرته فدرس فيها العلوم العربية والفقه والمنطق .

وكانت في نفسه هذه النزعة للإحاطة بشتى العلوم فعكف على دراسة الرياضيات والطبيعة. ولذكائه الحاد برع بكل تلك العلوم وتفوق فيها جميعاً.

ويصف لنا الشيخ كامل الغزي المؤرخ المعروف لمدينة حلب (وقد كان صديقاً للكواكبي) بأنه منذ حداثة سنه تلمح في محياه مخائل النجاسة والشهامة وعلو الجنان، ويزيد على ذلك بقوله: «كان سخي الطبع، لا قيمة للمال عنده، ولوعاً بالتفضل على أقرانه وخلانه، لا يرضى أن يسبقه بالبذل عليهم غيره، يأنف من الكذب والتدليس والغيبة والنميمة، ويرى التلبس بهذه الخلال الذميمة دناءة وغدراً وخوراً في الطبع، وكانت نفسه العزيزة تأبى عليه الخضوع لأهل المجد الباطل ولا يرى شيئاً يطفئ نار غضبه منهم أفضل من قهرهم وإذلالهم»^(١).

ونرى من خلال ما قرأناه عن أدينا الكواكبي على لسان صديقه الغزي أنه كان يحمل صفات تميزه عن أقرانه من أنفة وكرم وسخاء وحدة طبع كل هذا مقروناً بمثالية تجعله دائم المواجهة مع الاستبداد.

ومنذ أن كان في عهد الشباب الأول برزت مواهبه ولفت إليه أنظار كبار رجال الدولة في حلب فعين وهو في الثامنة والعشرين من عمره محرراً في جريدة الدولة الرسمية (جريدة الفرات) وكانت الجريدة تصدر بالعربية والتركية، ولأن الكواكبي يجيد اللغتين فقد وقع الاختيار عليه للقيام بمهمة الترجمة.

ولكن العمل في جريدة الفرات لم يرق للكواكبي لأن قلمه قيّد ولم يستطع أن يعبر عن رأيه بشكل حر. فترك العمل في الصحيفة وانصرف إلى الأعمال الحرة. ولكن الخائفين من قلمه الحر من رجال السلطة احتالوا عليه وأعادوه إلى العمل الرسمي فعين في ديوان المعارف ثم نقل إلى كتابة العدل ثم إلى رئاسة بلدية حلب، ثم رئاسة المحكمة الشرعية، فترأسه المصرف الزراعي وقد كان سبب تنقله هو جديته في العمل مما يجعلهم يصطدمون معه فينقل من مكان إلى آخر.

(١) محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب - سامي الكيالي.

ولكن عمله الأبرز هو الصحافة وكان الكواكبي أول أديب يعمل في الصحافة فقد أصدر جريدة الشهباء سنة ١٢٩٣ هـ وجعلها منبراً للصوت الحر، ولكن العهد الاستبدادي لم يترك لهذه الصحيفة متنفساً فأوقفها عن الصدور وأسكت بإيقافها صوت الحق والعدل ولكنه لم ييأس بل عاد لإصدار صحيفة ثانية سماها (الاعتدال) سارت على نفس نهج الصحيفة الأولى . . ولم يكد يصدر منها عدة أعداد حتى سارعت الحكومة إلى إغلاقها، فأحكم أمره أنه لا بد أن يجد سماء جديدة يجد فيها متنفساً له ولقلمه فلم يجد أمامه سوى مصر فيئاً يستظل بظلها ويطلق منها كتابه (طبائع الاستبداد) نشره بدايةً على صفحات (المؤيد) التي كانت من كبريات الجرائد المصرية.

أما كيف رحل إلى مصر فستترك لصديقه الشيخ كامل الغزي رواية القصة:

«في عام ١٣٠٧ هـ عينت الدولة عارف باشا أحد كبار رجال الدور الحميدي والياً على حلب، وكان سيء الإدارة منهمكاً بالرشاوى فتسلط الكواكبي عليه جرياً على مناجهه الذي كان ينتهجه مع أمثاله من الولاة فطفق يتتبع سقطاته ويفضح عوراته، ويندد به في صحف الآستانة وبيروت، ويكتب بمساوئه إلى المراجع العليا حتى نكد عيشه وسلب راحته وصار الوالي يتمنى أن لو ظفر به بسقطة يتسلط بها عليه لينتقم منه فلم يظفر له بشيء من ذلك.

وحدث في يوم ما أن قنصل إيطالية في حلب كان راكباً في عربته ويمر من محلة الجلود التي هي محلة السيد عبد الرحمن الكواكبي فوقع على ظهره حجر عاثر صدمه صدمة عنيفة تألم منها جداً بحيث اضطرت له أن يعود إلى منزله وأن يرسل إلى الوالي تقريراً يطلب فيه البحث عن الضارب وإجراء العقوبة القانونية».

وفتحت هذه الحادثة للوالي الباب لكي ينال من الكواكبي لأن الحادثة

حصلت في محلته فاتهمه بافتعال الحادث واستصدر أمراً من السلطان بإلقاء القبض على الكواكبي ، ولكنه استطاع أن ينجو من هذه الحادثة ، ولكنها تركت أثراً عميقاً في نفسه وجعلته يمل المقام في بلده وهو في هذا الجو الموبوء بالدسائس والوشايات . فوطن نفسه على الهجرة ، ولكن إلى أين؟! . . .

ويروي لنا الأستاذ الغزي قصة سفره إلى مصر فيقول:

«وقبل سفره بيوم واحد (ويعني الكواكبي) زارني في منزلي يودعني ، وأخبرني أنه عازم في غده السفر لتبديل نيابته (أي نيابة قضاء راشيا) وكنت عالماً بكتابه (جمعية أم القرى) وقد شعرت منه العزم على طبعه ، فوقع في نفسي أنه سيعرج على مصر لطبعه ونشره إذ لا يمكنه أن يطبعه في غيرها . فحذرته من ذلك وقلت له إياك يا أخي والسفر إلى مصر ، فإنك متى دخلتها تعذر عليك الرجوع إلى وطنك لأنك تعدّ في الحال من الطائفة المعروفة باسم «جون تارك» لا يتأخر وسمك بهذه السمة قيد لحظة لما اشتهرت وعرفت به من شدة المعارضة وانتقاد الأحوال الحاضرة . فقال لم أعزم إلا على السفر إلى استانبول للغرض الذي ذكرته لك ، وقد كتم سفره حتى عن أعز أصدقائه . . ثم ودعني ومضى وأنا أسأل الله تعالى أن يرعاه بعين رعايته ، وأن يجعل التوفيق رائده والنجاح مرشده وقائده ، وكانت مبارحته حلب في أوائل سنة ١٣١٦ هـ . وبعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوماً لم نشعر إلا وصدى مقالاته في صحف مصر ، وأخذت جريدة «المؤيد» تنشر تفرقة كتابه «طبائع الاستبداد» الذي لم يطلعنا عليه مطلقاً بخلاف كتابه «جمعية أم القرى» فقد أطلعنا عليه مراراً ، ثم إنه طبع الكتابين المذكورين ، وقام لهما في «المابين السلطاني» ضجة عظيمة وصدرت إرادة السلطان بمنع دخولهما إلى الممالك العثمانية ، بيد أنهما رغمًا عن ذلك كله وصلا إلى حلب بصورة خفية ، وقرأناهما في سرنا المرة بعد المرة» .

وفي مصر شعر أنه يعيش في وطن حر عربي يستطيع فيه أن يعبر عن أفكاره

بكل حرية وجرأة. فأخذ يرسل صيحاته المدوية التي نراها في كتابه «طبائع الاستبداد». وقد اتصل الكواكبي في مصر بالشيخ علي يوسف صاحب جريدة «المؤيد» بواسطة السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار، فتمكنت بينهما روابط الصداقة والود.

يقول الأستاذ إبراهيم سليم النجار عن هذه الصداقة: «وكنّا نجتمع كل يوم في حلقتنا المعروفة في القاهرة، فكنت والسيد رشيد رضا والكواكبي ورفيق العظم والأستاذ كرد علي نؤلف حلقة مستقلة فلا نفرق ليلة إلا ونعود إلى الاجتماع في الغد، وحدث أن صدر «المؤيد» ذات يوم يحمل إلى قرائه كتاباً غريب الشكل واللهجة والأسلوب والموضوع. لم يسبق للمقظم أو سواه في الصحف التي عرفت يومئذ بكتاباتها الحرة أن كتبت مثله، فلفت الكتاب إليه الأنظار وشغل الخواطر، وأخذت الدعوة الحرة تلبس شكلاً جدياً. وأخذ الكتاب والقراء يتساءلون عن صاحب هذا الأثر البديع في جريدة المؤيد التي سلكت مسلك الصحف الحرة على رغم اتصالها الشديد بالخدوي عباس الثاني وبالأستانة، ويقولون: (ترى من يكون صاحب كتاب طبائع الاستبداد؟) فاعتقد الجمهور لأول وهلة أنه من إنتاج قلم وتفكير الشيخ محمد عبده لولا الجفاء الذي كان مستحكماً بين صاحب «المؤيد» وبينه حتى قبل حادثة «الموقوزة» ولولا بعد الشيخ محمد عبده رحمه الله عن كل من يتصل بالخدوي قريباً أو بعيداً. فلم تمض أيام على انتشار ذلك الكتاب في «المؤيد» حتى عرف الكتاب للكواكبي فوضعه دفعة واحدة في الدرجة الأولى بين رجال التفكير والقلم، وأنزلوه منزلة الشيخ محمد عبده فعرفوا له منزلته وأعلوا قدره».

ومن خلال صلاته الوثيقة بأدباء ومفكري مصر الكبار في تلك الفترة استطاع الكواكبي أن ينشر كتابيه العظيمين «طبائع الاستبداد» و «أم القرى» وأن يفضح طبيعة المستبد ويكشف عن ممارساته الظالمة وكانت رسالته الأساسية تحريض الجماهير على الوقوف في وجه المستبد والتصدي له فكان يصرخ من

أعماقه «الاستبداد أشد وطأة من الوباء . . أكثر هولاً من الحريق . . أعظم تخريباً من السيل . . أذل للنفوس من السؤال . .

الاستبداد يقلب الحقائق في الأذهان حتى إنه قد مكن بعض القياصرة والملوك الأولين من التلاعب بالأديان تأييداً لاستبدادهم ، وقد وضع الناس الحكومات لأجل خدمتهم ، والاستبداد قلب الموضوع فجعل الرعية خادمة للرعاة . وقد قبل الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه من اعتقاد أن طالب الحق فاجر ، وتارك حقه مطيع ، والمشتكي المتظلم فاسد ، والنبية المدقق ملحد ، والخامل المسكين هو الصالح الأمين ، وقد اتبع الاستبداد في تسميته النصح فضولاً ، والغيرة عداوة ، والشهامة عتواً ، والحمية جنوناً ، والإنسانية حماقة» .

ويكمل . . «قد يبلغ فعل الاستبداد بالآمة أن يحول ميلها الطبيعي من طلب الترقى إلى طلب التسفل بحيث لو دفعت إلى الرفعة لأبت وتألمت كما يتألم الأجير من النور ، وإذا ألزمت بالحرية تشقى وربما تضنى كالبهائم الأهلية إذا أطلق سراحها ، وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها» .

«المستبد يتحكم في شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم ، ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المتعدي فيضع كعب رجله على أفواه الملايين يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته» .

ويؤكد أن المستبد لا يتوقف عند حد معين إذا لم يجد من يردعه فيقول:

« المستبد يتجاوز الحد لأنه لا يرى حاجزاً فلو رأى الظالم على جانب المظلوم سيفاً لما أقدم على الظلم وكما قيل . . الاستعداد للحرب يمنع الحرب» .

وعندما يتحدث عن الاستبداد والعلم فإنه يرى أن العداوة مستحكمة بينهما لأن الاستبداد صورة للجهل والعلم رمز للمعرفة والتقدم والحرية فيقول:

«إن بين الاثنين عداوة وحرباً دائماً وطراداً مستمراً ، يسعى العلماء في نشر العلم ، ويجتهد المستبدون في إطفاء نوره ، والطرفان يتجانبان العوام . . ومن هم العوام؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا إذا خافوا استسلموا وهم الذين متى تعلموا قالوا ومتى قالوا فعلوا . . والخلاصة أن الاستبداد والعلم ضدان متغالبان ، فكل إدارة مستبدة تسعى جهدها في إطفاء نور العلم وحصر الرعية في حالك الجهل . وكذلك بعض العلماء الذين ينبتون في مضائق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير الناس ، والغالب أن رجال الاستبداد يطاردونهم وينكلون بهم ، والسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره» .

وقد كان لظهور طبائع الاستبداد في تلك الفترة أثره في نفوس الكثيرين ، وقد اتهم الكواكبي من قبل بعض حساده بأنه نقل الكتاب عن الإيطالية .

ومنهم من قال إنه منقول عن المفكر الفرنسي الفيلسوف (جان جاك روسو) وذهب بعضهم إلى أن هذا الكتاب هو خلاصة آراء بطل الحرية مدحت باشا وقد رد الشيخ رشيد رضا صاحب « المنار » على هذه الاتهامات بقوله: «وقد زعم زاعمون أن معظم ما في هذا الكتاب مقتبس من كتاب لفيلسوف إيطالي ، ومن كان له عقل يميز بين أحوال الإفرنج الاجتماعية وأحوالنا وذوقهم في العلم وذوقنا يعلم أن هذا الوضع وضع حكم شرقي يقتبس علم الاجتماع والسياسة من حالة بلاده حتى كأنه يصورها تصويراً . وإذا لاحظ مع ذلك أن هذا الكتاب كان مقالات مختصرة نشرت في « المؤيد » ثم مدها صاحبها من الأديم العكاظي وزاد فيها فكانت كتاباً حافلاً يتجلى له عمله الأول بصورة أوضح وأجلى ، وإذا علم بعد هذا كله أنه نقحه بعد الطبع فحذف منه قليلاً ، وزاد فيه كثيراً يعلم علم اليقين أن ينبوع علم هذا الرجل صدره وأنه كان يزداد في كل يوم فيضاً وتفجيراً» .

ونتيجة للحملات العنيفة التي شنّها الكواكبي على سلطة الاستبداد والتي

كان يقصد بها السلطان العثماني (عبد الحميد الثاني) وأعوانه فقد أرسل السلطان أحد أعوانه إلى مصر فدرس للكواكبي السم وأنهى حياته وهو لم يتجاوز الخمسين من عمره بسنتين .

وقد روت جريدة المؤيد خبر وفاته بالتفصيل وجاء فيه: أنه كان في ليلة الوفاة يسمر معه صديقه التاجر الحلبي المرحوم عبد القادر الدباغ ومعهما صحبة من الفضلاء والتجار يذكر من بينهم عبد العزيز الثعالبي والسيد محمد رشيد رضا وغيرهم . . في مقهى استانبول بجوار العتبة الخضراء ، وانصرف الجميع بعد منتصف الليل إلى بيوتهم ، أما السيد الدباغ فقد رافق الكواكبي وابنه حتى مسكنهما ، ثم سار في طريقه قاصداً منزله ، وبينما كان يخلع ثيابه قرع الباب بعصبية وشدة . وما إن فتحه حتى وجد ابن الكواكبي يستنجد به قائلاً: «الحقني يا عماء ، الحق والدي لست أدري ما به» . فعاد التاجر الدباغ على عجل إلى حيث وجد صديقه يتلوى من الألم فانكفاً هذا على صدر صاحبه وهو يلفظ آخر كلمة من كلماته «لقد سَمَموني يا عبد القادر!» .

تلك نهاية مفكر من أعظم وأجراً مفكري العرب في العصر الحديث . نالته يد الغدر الظالمة محاولة إسكات صوت الحق والعدل في صوته ، ولكنها لم تعلم أن صوت الحق ما إن ينطلق حتى يأخذ في طريقه كل ظالم وفاسد ومستبد .

أما كتبه فقد أصدر كتباً عديدة لم ينج منها من أيدي الطغاة سوى كتابيه الشهيرين (طبائع الاستبداد) و(أم القرى) .

وله كتب أخرى فقدت هي:

١- صحائف قريش .

٢- كتاب «العزة لله» .

٣- مذكرات عن رحلاته التي قام بها .

ميخائيل الصقال

١٨٥٢ - ١٩٣٧

أديب وشاعر غلبت عليه صفة المؤرخ لأنه تصدى لتأريخ حلب في كتابين ضخمين تحدث في الجزء منهما عن تاريخ حلب القديم وفي الجزء الثاني عن تاريخ حلب الحديث .

ولد في مالطة حيث كان يقيم والده وعاد إلى حلب وهو طفل .
درس اللغة العربية وأتقنها إتقاناً جعله يصبح في طليعة أهل الأدب .

وأخذ عن أبيه بعض العلوم ، كما أخذ عنه السليقة الشعرية ، ونظم الشعر في السادسة عشرة من عمره ، وأصبح شاعراً مجيداً . امتاز بوفرة ذكائه وسعة مداركه . تغلب على شعره مسحة التشاؤم إذ كان يجد العالم مسرحاً للمآثم والشروور .

تعاطى أكثر من مهنة منها مهنة التعليم ولكنه انصرف عنها سريعاً ثم تعاطى مهنة المحاماة .

وقد كتب ميخائيل الصقال القصة ومارس الصحافة . فحين سافر إلى مصر سنة ١٨٩٧ أصدر مجلة "الأجيال المصورة" ويعتبرها مؤرخو الصحافة أول مجلة مصورة ظهرت في العربية . واستمرت هذه المجلة مدة سنة ونصف ثم توقفت .

وعاد بعدها إلى حلب ، فنشر كتباً عديدة ولكنه رغم أن ثقافته غربية إلا أنه لم يستطع أن يتحرر من سلطة أدب الانحطاط فكان كثيراً ما يزين كلمات كتبه بالمحسنات اللفظية والنكات والألغاز .

فمن قول له في غانية أشعلت لعبة في يدها كعنقود من نور جعلت تديرها:

وخود مذ بدت تسعى أرtnي غصين البان يشرق منه نور
فقلت لها ألسـت الشمس قالت ألم ترها على كفي تدور

أما أهم كتبه فهي:

١- كتاب العبر: وهو كتاب شعر يتجاوز الخمسمائة بيت ، طبع في حلب (١٩١١) وجرى فيه مجرى الشعر القصصي معرفاً عن أحوال الكون ومعتقداته ، وشؤون الشرق وعاداته ، وأمور الدنيا وأدوار الحياة . وقد ذكر كل ذلك على شكل رواية غرامية تهذيوية تضمنتها الحكم والنصائح والعظات . ومن يتصفحها يطالع خلالها آراء الشاعر في الحياة وأوجهها المختلفة . فالدين مثلاً عنده هدى للعالمين ووجد لسعادة البشر ورفاههم ، وهو ليس طقوساً ومراسيم تردد بألفاظ وحرركات . بل هو أمر بالمعروف ونهي عن المنكر . ويجب أن يسيطر العقل والعلم على كل مرافق الحياة حتى يتخلص من الخرافات والأوهام ، وحتى يتعد السياسيون عن إراقة الدماء تحت ستار الدين .

ولكنه يعود إلى التأكيد على أن آفة الدين الكبرى هي من يفسر هذا الدين بما توحى إليهم أهوائهم كما يقول في الكتاب «فتجري الخدائع بين الناس باسم الدين وهو عنها بعيد ، لأنه ليس إلا تسكين النفوس بالعدل والإحسان والتعزية» . وفي كتابه هذا يستنهض الشرق من غفلته فيدعوه إلى هجر الرقاد والخمول والبلادة مستشهداً بغطارسة وسادات الشرق الأقدمين الذين يجب أن تتمثل أعمالهم دون أن نسرف

في ذكرهم لأن كثرة عنايتنا بالماضي وإشاداتنا فيه قد أخرتنا دهرًا بينما يشيد الغرب بمستقبله ولهذا ساد وارتفع .

٢ - ديوان شعر: وهو مؤلف من أربعة أجزاء صدر منها الجزء الأول فقط .
وطبع في حلب (١٩٢٥) وهو مرتب على القوافي .

وشعره في هذا الديوان رقيق سلس ينساب بلطف إلى الأذن والقلب ، وفي أجزائه الأخرى التي لا تزال مخطوطة يجري في سياقه على طريقة كتاب العبر ، إذ يؤكد على إيمان المرء وورعه الداخلي ويرى أنه يجب اجتثاث الأحقاد والضغائن من قلوب أهل المذاهب لكي تصفو الحياة ويتساوى الناس في الدين وحقيقته وهو في شعره يكره الحروب ، ويلح على وجوب تعليم المرأة .

٣ - لطائف السمر في سكان الزهرة والقمر: وطبع في مصر (١٩٠٧) وفي حلب أيضاً (١٩١١) ويقع في ٢٨٤ صفحة من الحجم الكبير .

وهو في أسلوبه كان رقيقاً وكان قوياً في تراكيبه ، والكتاب كرواية خيالية قصّ له والده ما يجري فيها في العالم الآخر ، ويصف له ذلك العالم وما فيه من مدن وطرق ومدنيات والمقارنة بينها وبين ما هو موجود في العالم الأرضي .

وتضمن الكتاب نصائح أدبية وفوائد كثيرة . فهو يتحدث عن النظافات والعبادات والأديان والأحكام الحقوقية والتربية ، وواجبات الوالدين ومدارس وعلوم سكان الزهرة . ويتحدث عن المعلمين واللغة وعن المطابع والنساء والشعراء ، والحب والعفاف والاختلاط والمعاشرة واختيار الزوجات ، وعن الخطبة والمهر وغير ذلك . ثم يتحدث عن وجود الله وتوحيد الأديان ويرد على من يقول إن الأديان أنتجتها عقول البشر ، ثم عرض لآراء المجوسية والوثنية والتقمص . ونعرض هنا لجانب من آرائه في الدين: ففي العبادة يقول: «إن الله يريد من كل عبد قلبه ، وأن على أبواب معابد العالم الآخر يقرأ الداخل كلمة «الله» مكتوبة على لوح . . . ويقرأ أيضاً تحت هذه

الكلمة الجليلة كلمات العبادة الأربع «المحبة . . الصدق . . العفة . . التواضع» وفي التربية وواجبات الوالدين يحذر من هز سرير الطفل النائم لأن ذلك يسبب أخطاراً كبيرة لأن الاهتزاز يؤثر في أعصاب الطفل ويحدث له القياء ، وأن على الوالدين أن يتحلىا بالتهذيب قبل أن يأخذا في تهذيب ابنهما . . إلخ .

وفي اللغة يرى ما وصلت إليه العربية من ضعف ناجم عن تعلم التلميذ عدة لغات في وقت واحد ، فيخرج من المدرسة وهو لم يتقن لغته ولم يحسن اللغات الأخرى ، ولو لم تكن العربية لغة الدين لانقرضت منذ أجيال كما انقرضت القبطية وغيرها من اللغات ، ولهذا ينصح بتأليف جمعية علمية لها رجالها في البلاد العربية الشهيرة يرجع إليها في كشف المخبئات وفي الترجمة والتعريب . [وقد أحدثت فيما بعد المجامع اللغوية التي اهتمت بهذا ولا تزال بهذا الشأن] .

ويحلم الصقال في كتابه باختراع آلات طباعة لتعمّ المطابع وتنقل بأسرع من لمح البصر ما يقوله أمامها الرجل الواقف بحروف جليلة واضحة ينبعث منها من خلال السطور نور لطيف يساعد ضعاف البصر .

ولا يكره الصقال شيئاً أكثر من كراهيته للمرأة الجاهلة وهو يخاطبها قائلاً: «يا أيتها المرأة . إنك لعظيمة أعظم مما تعلمين ، لقد هابك الرجل الأول فأذلك ، أما الآن وقد علمت كيف تسودين فلماذا لا تتعلمين . تعلمي ليرى الرجال عظمتك . ليرى الرجال منك عظمة مزينة بالمحبة الخالصة السالمة من شائبة التنقل والملل ، وهم يحتاجون إلى الثبات فتقوى قلوبهم بك ويحترمونك»^(١) .

ويحض على احترام العلماء أيضاً لأنهم هم الذين يهذبون الأخلاق ويدروون الأعداء ، ويرشدون إلى الخير والنجاح . يقول: (إذا رأيت عالماً فقيراً في مدينة فاستدل بفقره على جهل أهلها) . ولكنه يحظر على الشعراء المسنين إلقاء شعرهم على الناس لكي لا تفسد لغة حافظيه . بل يجب على الشاعر الذي يتوسم من نفسه المقدرة على

(١) لطائف السمر - ميخائيل الصقال (من كتاب الحركة الفكرية في حلب) عائشة الدباغ .

النظم أن يعرض إنتاجه على الندوة الشعرية ، فإن أقرته أجازته وعينت له الحقل الذي يجب أن ينظم فيه .

ويتطرق بعد ذلك إلى تحزب الأديان فيهاجم هذا التحزب ويرى أنه يجب توحيد الأديان ويوصي بتأليف مجمع عام يعظم فيه الأنبياء والرسل ويعبد الناس جميعاً الله تعالى بكلمة واحدة . ويرفض قول من يقول إن الأديان وضعها عقلاء البشر (كما ذكرنا سابقاً) .

أما المجوسية والوثنية فإن الصقال يرى أن قصد واضعيها كان أن يعبدوا الله ويكفوا عن المعاصي ، إلا أنها انقلبت وثنية محضة لأن الشعوب القديمة لم تكن تؤمن إلا بما يقع تحت حواسها .

٤ - كتاب طرائف النديم في تاريخ حلب القديم: وهو مخطوط ضخمة يقع في ٨٥٣ صفحة . ويبحث الجزء الأول في تاريخ حلب الشهباء القديمة قبل العهد المسيحي ، ويتكلم عن الإنسان القديم وعن حلب وأسمائها وتخومها وأسوارها ولغاتها .

ويبحث الجزء الثاني والمسمى «لطائف الحديث في تاريخ حلب الحديث» في تاريخ حلب بعد المسيح فيتحدث عن الملوك الرومانيين ، ويتحدث عن المسيحية وتاريخها في حلب يبحث مستفيض ، ويبين الجوامع التي أصلها كنائس ويعدد أساقفة حلب وقديسيها ، ولا يهمل شعراء حلب كأبي الطيب المتنبي وأبي فراس وغيرهم . .

* * *

كامل الغزي

١٨٥٣ - ١٩٣٣

الشيخ كامل الغزي هو الأخ الأكبر للشيخ العلامة قاضي قضاة حلب بشير الغزي . وقد تميز الشيخ كامل الغزي بأنه أحد الثلاثة الكبار الذين كرسوا أنفسهم لحلب فأرخوا لها ونقلوا النصوص التي كتبت عن حلب وتاريخها بأمانة وإخلاص . هؤلاء الثلاثة هم: كامل الغزي ، وراغب الطباخ ، وميخائيل الصقال .

والشيخ كامل شاعر وأديب وباحث ومؤرخ . تميز بطبيعته السمحة وتواضعه الجم . درس على أساتذة مختصين ونال من علوم الفقه والحديث واللغة والمنطق والشعر . تفوق في دراسته الأدبية والتاريخية ، وكان يغوص على القديم فيستخرج من نصوصه اللآلئ لينثرها على طلاب المعرفة .

اشتهر بتسامحه الديني فكان على اتصال بكل الديانات وكان أصدقائه معظمهم من مسيحيي حلب .

وأسس جمعية العاديات بحلب ، وقام معها برحلات للتنقيب عن آثار حلب وما حولها ، ونشر تقارير تلك الرحلات وصورها في المجلة الخاصة بالجمعية التي كان يتولى الكتابة فيها .

وكان الرجل مؤمناً بالقومية العربية على أساس إسلامي والتي جمعت بين

دفتيها كل فرد من أفراد هذه الأمة من نصارى ويهود ووثنيين و كانوا يعيشون في بحبوحة من العيش والأمان والسلام .

وقد ألف أدينا المؤرخ كتباً كثيرة بقي بعضه مخطوطاً .

وأهم مؤلفاته هي :

١ - نهر الذهب في تاريخ حلب :

وهو ثلاثة أجزاء تم طبع أجزاءه سنة ١٩٢٦ . ويبحث الجزء الأول منه في تاريخ حلب وأسمائها وجغرافيتها ، وتجاريتها وصناعتها ونباتاتها ، ويبحث فيه عادات الحلبين وصفاتهم والملل والنحل ثم بحث في أقضيتهما وتوابعها .

ويبحث الجزء الثاني في أسوار حلب وحراراتها ، وما فيها من مساجد ومدارس وبيمارستانات وغير ذلك من الآثار .

والجزء الثالث يبحث في تاريخ الأمم التي تولت حلب قبل الفتح الإسلامي ، ثم من تولاها بعد الفتح المذكور ، وتاريخ حلب خلال هذه الفترات . ثم يتحدث عن الحرب العامة وأسبابها الأصلية والثانوية ، وأغراض كل دولة منها ، ثم حكومة الأمير فيصل ، ثم فرنسا في حلب . ولا ينسى خلال ذلك من الوقوف أحياناً ليستطرد في الحديث عن الانكشارية وأصلها وأعمالها وتطورها .

ويبدو أن هناك جزءاً رابعاً لا يزال مخطوطاً يحوي تراجم بعض الشخصيات الحلبية والأسر الحلبية .

وتاريخ الغزي في كتابه (نهر الذهب) متسلسل ومرتب على السنين وهو تاريخ جامع شامل يذكر فيه أحياناً المصادر التي يستقي منها معلوماته فيعطي رقم الجزء والصفحة وتاريخ الطباعة .

٢ - كتاب القول الصريح في الأدب الصحيح:

وهو مخطوط يتألف من ١٩٢ صفحة ألفه كما يذكر في مقدمته "ليبقى لولده الذي رزق به في سن متأخر تراثاً أدبياً يتمثله متى أصبح في سن ناضجة فيصبح مرشداً سوياً وناصحاً أميناً يقوم مقام والده. وهذا المخطوط قصيدة لامية نظمها في تاريخ مولد ابنه كما أسلفت وعلق عليها شرحاً موجزاً بسط فيه ما انطوت عليه القصيدة من المطالب والمقاصد. واستعان فيها بفصول من كتاب الأدب الكبير لابن المقفع.

وهذه القصيدة (الأرجوزة) جاءت في مائة وعشرين بيتاً نظمها وهو في الثامنة والستين من عمره، بعد أن منّ الله عليه بولده الوحيد (فيصل). وهي نصائح أب يودع الحياة إلى ابن في فجر الحياة، وقد ضمنها الكثير من الآداب الإسلامية وآداب عصره وتقاليده.

قال بعد أن حمد الله:

هو بالودائع خير من يتكفل	أبني أنت وديعة الله الذي
لأخال شمسي عن قريب تأفل	أبصرت نجمك في الديار وأنني
نعم الوكيل لنا ونعم الموئل	فإلى الإله وكلت أمرك إنه
وحباك سعيًا بالنجاح يكلل	أولاك مولاك السعادة والرضا
وعليك فيما ترجي يتفضل	ووقاك من غدر الزمان ومكره

*

* *

هو وحده ما شاء فينا يفعل
ما قال فيها ملحد ومضلل
ما قال فيه مجرّ ومعطّل

أبني ثق بالله واعلم أنه
الجا إلى ظل الديانة وأطرح
أمسك عن الأبحاث في قدر وفي

وقد جاءت القصيدة في ١٩٠ صفحة مع شرحها ، والسبب في ذلك أنه كان يقف عند كل مقطع من مقاطع القصيدة فيشرح ما أراد أن يزود ابنه من النصائح والآداب الإسلامية ، فإذا وقف عند بيت :

أمسك عن الأبحاث في قدر وفي ما قال فيه مجبر ومعطل

مثلاً: يشرح عقيدة القدر شرحاً وافياً ، فيقول تحت عنوان «ترك البحث بالقدر»:

جميع الفرق الباحثات في القدر يطلق عليها كلمة «القدرية» فهي كلمة مشتركة بين أربع طوائف . . اثنتان منها غلاة هالكون . إحداهما الطائفة التي نفت القدرة والإرادة عنه تعالى ، وجعلت أفعال العباد كلها حركات النفس والروح . وثانيهما الطائفة الجبرية التي برأت العبد من المؤاخذة في المعاصي لأنه مجبور عليها ، وأنه سبحانه واجب عليه أن لا يؤاخذ عليها ، وأن مؤاخذتها عليها تعد منه ظلماً (تعالى الله عن ذلك) . أما الطائفتان الأخريتان منهن من الطوائف الناجية أحدهما: الطائفة الأشعرية المنسوبة إلى أبي الحسن الأشعري المعتدل في عقيدته بين الجبرية والقدرية ، أي الذين ينسبون القدرة للعبد على خلق أفعال نفسه حيث قال: إن الخير والشر مقدوران للعبد غير أن للعبد كسباً أي جزءاً اختيارياً يجعل له مندوحة عن اقتحام الشر ويحدو به إلى اختيار الخير ، وهذه العقيدة هي التي عليها أهل السنة والجماعة .

وثانيهما أي الطائفة الثانية الناجية هي الطائفة السلفية القائلة بأن الخير والشر جميعها مقدوران من الله تعالى ، كما أرشدهم إليه صاحب الرسالة e وأن الخلق خلقه تعالى والأمر أمره له أن يثيب العاصي ، ويعاقب الطائع ، وبالعكس لا يجب عليه أحد الأمرين ، ولا يعد ذلك منه ظلماً ولا رعونة لأنه هو الموجد للآيتين والبارئ والمصور للطائع والعاصي يحق له أن يتصرف فيما خلق وبرا وصور كيف شاء وأراد ، كما يحق للمالك أن يتصرف في ملكه كما يشاء ويريد .

هذه هي طريقة السلف الصالح واعتقادهم في القضاء والقدر ، لا يزيدون ولا ينقصون ، غير مكترئين بتطبيق اعتقادهم هذا على علم الميزان ولا ناظرين إلى التعارض والتناقض الذي لا يؤدي إليهما أبحاث أهل هذا الفن .

ثم يلتفت إلى ولده فيعظه قائلاً له :

«فَمَرَّنْ نَفْسَكَ يَا بَنِي عَلَى الرِّضَا بِهَذَا الْعَقْدِ ، وَانْقَشْهُ فِي لَوْحِ مَخِيلَتِكَ وَثَبِّتْهُ فِي سَجَلِ حَافِظَتِكَ ، حَتَّى يَصْبِحَ الْفَأْ وَعَادَةً وَطَبْعًا ، وَاحْذَرْ كُلَّ الْحَذَرِ أَنْ يَكُونَ عَقْدُكَ هَذَا نَاسِخًا ، أَوْ مُعَارِضًا لِعَقْدِكَ الْآخَرِ ، وَهُوَ ارْتِبَاطُ الْأَسْبَابِ بِالْمُسَبِّبَاتِ ، وَأَنَّ الْقُدْرَةَ الْإِلَهِيَّةَ جَعَلَتْ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ، لَا تَجْعَلُ عَقْدُكَ أَنْ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَقْدُورَانِ مُعَارِضًا لِأَعْمَالِكَ وَدَاعِيًا لِإِهْمَالِكَ السَّعْيِ ، وَالْإِهْتِمَامِ بِشُئُونِكَ وَمَقَاصِدِكَ . بَلْ اجْتَهِدْ أَنْ تَطْبُقَ أَعْمَالَكَ عَلَى الظَّاهِرِ الْمَحْسُوسِ ، وَهُوَ أَنَّ الْمَقَاصِدَ الَّتِي هِيَ جَلْبُ النِّفْعِ وَدَفْعُ الضَّرَرِ لَا تَحْصُلُ غَالِبًا إِلَّا بِالسَّعْيِ وَالْعَمَلِ ، وَلَا عِبْرَةَ لِنَفْعٍ يَحْصُلُ وَضُرَرٍ يَنْدَفِعُ بِلا سَعْيٍ وَبِلا عَمَلٍ ، فَإِنْ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَصَادِقَةِ وَالْإِتْفَاقِ» .

وبعد أن يسهب في شرح موضوع القضاء والقدر يعود مرة أخرى لينصح ابنه بعدم الاستسلام إلى التواكل فيقول :

«اتْرِكِ الْبَحْثَ بِالْقَدْرِ ، كَمَا تَرَكَهُ السَّلَفُ الصَّالِحُ ، فَإِنَّا لَمْ يَلِغْنَا عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالصَّحَابَةِ الْمَكْرَمِينَ الَّذِينَ ثَلَوُا الْعُرُوشَ وَأَذَلُّوا الْجَبَابِرَةَ ، وَقَهَرُوا الْقِيَاصِرَةَ وَالْأَكَاسِرَةَ ، أَنَّهُمْ بَحِثُوا فِي مَسْأَلَةِ الْقَضَاءِ الْقَدْرِ ، بَلْ أَخَذُوهَا عَلَى مُحَكِّ قَضَايَا عِلْمِ الْمِيزَانِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا فِي أَيَّامِ سِيَادَتِهِمْ ، بَلِ الَّذِي قَرَأْنَاهُ فِي بَعْضِ أَخْبَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ فَسَمِعَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ بِشَيْءٍ عَنِ الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ ، فَزَجَرَهُمْ وَأَمَرَ بِجُلْدِ بَعْضِهِمْ» .

وقال الغزي: «البحث في القدر هو الذي فتح على المسلمين أبواب الزندقة والإلحاد قديماً وحديثاً، وكان من أعظم أسباب ما حدث في العالم الإسلامي من الفتور والجمود، وخمود نار الهمم».

ويقول أيضاً:

إن تطبيق الأعمال على الاعتقاد بالجبر قد أوقع بالمسلمين ضرراً عظيماً لأنه اضطر السواد الأعظم منهم إلى الاستسلام والتواني، وترك العمل والقناعة باليسير، وأرسخ في غرائزهم عقيدة التواكل المغلوط الفاسد. فأخذوا إلى الهدوء والسكون وفترت هممهم وبردت عزائمهم، فوقعوا في أمراض الضعف والمسكنة حتى أصبحوا لقمة سائغة للأمم الأجنبية التي نفضت عنها غبار الأوهام، ولم تُعر البحث في القضاء والقدر التفاتاً. بل نبذته وراء ظهرها، ورأت أن المقاصد لا تتسنى إلا بالعمل والسعي فقامت تجدد وتجتهد وراء الرقي والتفوق على الأمم الشرقية حتى بلغت الغاية القصوى في العلوم والصنائع والفنون، وقبضت بيديها الحديديتين على أعناق المسلمين، وغيرهم من أمم الشرق التي بقيت مطروحة في زوايا الخمول مكتوفة الأيدي عن السعي والعمل مقيدة بسلاسل اعتقادها المغلوط في القضاء والقدر».

وهكذا نجد أن كل مقطع من مقاطع الأرجوزة الكبرى قد أتبعه الكاتب الشاعر باستطرادات وشروح مطولة جعل الرسالة مجموعة واسعة من الآراء والتوجهات التي تفصح عن ثقافته وأدبه ورأيه في شتى ظواهر الحياة وتبين فيها نزعة التجدد عنده وأنه يسخر من روح الجمود التي كانت الطابع العام لعصره.

٣- الكتاب الثالث هو انتقاد العادات السيئة:

وهي محاضرة ألقاها سنة ١٩٢٠ في نادي الشهباء، وهي محاضرة في الحث على النظافة وبيان ما لها من فوائد وفضائل.

٤ - رسالة في الموسيقى: وهي مخطوط.

ألقاها في محاضرة تقع في خمس عشرة صفحة. وصف فيها الآلات الموسيقية المتنوعة، وفعل الغناء والتطريب. ويكمل حديثه عن شهرة حلب بالموسيقى والموسيقين، وتاريخ دخول بعض الآلات مدينة حلب وختمها بوصف ما يجب أن يتحلى به الموسيقي أو المطرب.

٥ - ترجمة حياة الشاعر الصنوبري: وقد جمع في هذا المخطوط أشعار الصنوبري التي بلغت أربعمائة بيت مع شيء من أخباره وحياته.

٦ - الروزنامة الدهرية: وقد طبعت في حلب عام ١٩٢٢ وتبحث في التقويم الفلكي لحلب، وطولها وعرضها الفلكيين. أي باعتبار أن وقت الزوال مبدأ للأوقات الخمس من السنة الشمسية الميلادية الغربية. وباعتبار أن وقت الغروب مبدأ للأوقات المذكورة من السنة الشمسية الرومية الشرقية. وذيل التقويم بأربعة جداول مفيدة.

٧ - كتاب إتحاف الأخلاف في أحكام الأوقاف:

وترجمه عن التركية لمؤلفه عمر حلمي، وطبع في حلب سنة ١٩٠٩ وفيه أبحاث اصطلاحات تتعلق بالوقف، واصطلاحات فقهية وقانونية، وفي انعقاد الوقف وسببه وشروط الأوقاف الصحيحة وغير الصحيحة.

٨ - الروضة الغناء في حقوق النساء.

٩ - على الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات.

١٠ - جلاء الظلمة في حقوق أهل الذمة.

١١ - ديوان شعر كبير.

وفي الختام نورد ما قاله في وصف معاصره الأديب قسطاكي الحمصي:

«أحد معاصرنا الألباء وأصحابنا الشعراء . . وهو فرد من الأفراد الجامعين بين الأدب والظرف ، وخفة الروح وعذوبة المنطق واللفظ ، بصير بمذاهب الكلام ، حلو المعاشرة ، ظريف المحاضرة ، ذكي المشاعر ، سريع الخاطر ، يميل إلى المزاح ، جوابه على رأس لسانه ، ونظمه على رأس القلم ببيانته» .

* * *

بشير الغزي

١٨٥٧ - ١٩٢١

هو قاضي القضاة العلامة الكبير بشير الغزي . أخو المؤرخ الشهير كامل الغزي من أمه ، أخذ عنه لقب (الغزي) لأنه رباه صغيراً وأخذ عنه علمه . كان بـحراً في علوم اللغة والأدب ، وإماماً في الفقه والحديث والمنطق . امتاز بقوة حافظته وسرعتها . ويمثل بالنسبة للأدباء المدرسة القديمة ويمثل الإمام الشنقيطي والمرصفي في علمهما . وكان حجة في علوم الفقه ، وعندما يشرح آية أو قصيدة لشاعر قديم فإنه يبدو كالبحر الزاخر في شرحه وتفسيره .

وقد تصدر للتدريس في أشهر مدارس حلب ، وكان كبار المدرسين يحضرون دروسه وكان موهوباً في نظم الشعر فتراه ينظم شعراً على البديهة وارتجالاً عندما يطلب منه ذلك .

كتب أخوه الشيخ كامل الغزي فقال : «عرف منذ صغره بالذكاء وسرعة البديهة ، وقد حفظ ألفية ابن مالك وهو في الثالثة عشرة من عمره في عشرين يوماً ، كما حفظ في بدء نشأته جملة وافرة من أشعار العرب ، ونبذاً كثيرة من مختارات الأدب . وكان محصوله من العلوم : التفسير والحديث وعلمي الفرائض ، والعروض والمنطق وأدب البحث والمناظرة والمصطلح ، وهي العلوم التي كانت تدرّس في المدارس الدينية وقد ألّم بها إماماً واسعاً ودرس الفلسفة والطبيعات وعلم الهيئة والفلك .

وبعد أن كملت ثقافته الدينية والأدبية ، انصرف إلى اللغة والأدب وقرأ أكثر الكتب الأدبية وحفظ أكثرها ، فكان يملئ من حفظه كتاب (الأغاني) و (شرح ديوان الحماسة) لأبي تمام و(أمالى القالي) و(الكامل) للمبرد وغيرهم كثير .

وكان المعري من الشعراء المفضلين عنده . . . ولفرط حبه له آمن بمذهبه فلم يتزوج ورفض الفكرة رفضاً تاماً متمثلاً قول المتنبي في رده على كل من يعرض عليه فكرة الزواج:

وما الدهر أهل أن يؤمن عنده حياة.. وأن يشترك فيه إلى النسل

وصفه الأستاذ الأديب قسطنطين الحمصى في كتابه (أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر) بقوله:

«طود حلم ووقار ، وقطب أهل العلم في هذه الأقطار ، كان متبحراً في علمي اللغة والأدب ، يحفظ ويروي من نوادرهما ما يورث العجب ، وكان إماماً في علوم الفقه والحديث ، والمنطق» .

ويكمل الأستاذ الحمصى حديثه فيقول:

«كان بيننا وبينه صداقة أكيدة ومعاشرة طويلة العهد وطيدة ، فخيرنا منه فاضلاً زهيد العين ، عزوفاً عن الدنيا ، حصين الضمير ، غضيض الطرف ، صادق العهد ، مهذب اللسان ، فصيح العبارة بليغها ، رخيم الصوت ، يرتل القرآن ترتيلاً ، ترتفع له حجب الأسماع» .

وبقي مجاوراً للمدرسة الرضائية زمناً طويلاً حتى بلغ الخمسين من عمره ينهل من بحر العلم وفنونه حتى ذاع فضله في العلم واشتهر أمره ، فتوجهت الأنظار إليه وقصده طلاب العلم من كل البلاد للإفادة من فضله وعلمه فانتخب نائباً عن حلب في مجلس المبعوثين (مجلس النواب في ذلك الوقت) . وشغل

عدة وظائف في القضاء المدني والشرعي حتى عين أخيراً قاضي القضاة في حلب وذلك في عهد الاحتلال الفرنسي حين قسموا سوريا إلى دويلات ، وجعلوا من حلب وضواحيها دولة مستقلة .

وعلى الرغم من أن الأستاذ بشير الغزي كان عالماً متبحراً في علوم العربية وأسرارها إلا أنه لم يصنف كتاباً واحداً في الأدب أو اللغة لأنه كان يعتقد أن العلم مكنوز في خزائن الكتب ، وما على العلماء إلا الكشف عن هذه الكنوز ، فالعلم في رأيه هو «فهم ما تركه السابقون» .

ومع ذلك فقد وضع كتاباً في اللغة ضمّنه ما في (مختار الصحاح) من الكلمات اللغوية وجعله على أسلوب حكاية سائح يذكر في حكايته الكلمة ويعطف عليها مرادفها تفسيراً لها . ووضع أيضاً رسالة في التجويد ونظم قصيدة في مائتي بيت ونيف سماها (الشمسية في علم المنطق) تميزت بقوة السبك ومتانة العبارة . لا يظهر فيها أثر للتكلف الذي يظهر عادةً في منظومات المتون العلمية ، ونشر كتاب (أحكام القرآن) للإمام أبي بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالخصاص .

وترجم عن التركية قصيدة المرحوم ضيا باشا الفيلسوف التركي الشهير . وقد أجاد في ترجمتها وأبدع حتى جاءت كأنها عربية الأصل ، وقد سماها (حدائق الهند) .

وحين ذاعت هذه القصيدة منع تداولها في عهد السلطان عبد الحميد لأنها تضمنت البيتين الآتين :

ظلم القوي للضعيف جار	في الأرض والهواء والبحار
كأنه لم يكفنا الأهوال	حتى تولى حكمنا الجهال

ولأهمية القصيدة سنورد بعضاً من مقاطعها لما تحويه من حكم وإبداع.

يقول الشيخ بشير مترجماً:

كم في السماء من كرات جلّت

والأرض عندها كبعض ذرة

وكم من الشمس والأقمار

بها وكم من ثابت وجار

وكل شمس معها تابع

وكل تابع له متابع

وكل شمس فيضها منتشر

ملاحق وسرّ ذا مستتر

بسير كل هابل وقوف

في مركز ومحور معروف

وألّف موجود بكل بقعة

وألّف عالم بكل قطعة

وكل موجود لألف مصور

وكل عالم لأدن مظهر

وكل ذرة بفيض خُصِّصت
وكل جثة بروح ميّزت
لكل أقوام عصور تختلف
كما زمان كل أرض مختلف
بحر خضم ربطت سواحله
بحيرة فالفكر لا يواصله
سبحان من قد حير العقولا بصنعه وأعجز الفحولا
لا تنتهي ذرات هذي الأرض
وليس يمكن انفكاك البعض
وجوفها مشتعل بالنار
وقشرها قد شقّ بالبحار
وحجمها مع قشرها المشقّق
كقبة قد فرشت بالورق
وذلك القشر بكل آن
يسعى ليعطي الرزق للحيوان
وربما تنفت كالثعبان
فزلزلت مع ثورة النيران

وهي كمصباح بشمع وقد

وفي نواحيها النسيم انعقاد

مائدة لسائر العوالم

ليرزقوا منها بوجه دائم

ونقطة منها الجهات تدرك

والعقل منها لسواها يسلك

فيها لكل كائن حياة

وكلهم لهم بها وفاة

قد نامت النفوس باطمئنان

عن نارها في فُرْش الأمان

سبحان من قد حير العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

حار السورى في ربهم قديما

فاعتقدوا الجماد والنجوم

والشمس والعجل وأهرمان^(١)

والنور والظلمة والنيران

(١) أهرمان: إله النور عند المجوس ويزدان إله الخير عندهم .

وعبدوا العقول والأوثاننا
والعشق والجمال والحسانا
وكم بدت من فتنة في الخلق
لما بدا توحيد ذات الحق
وقيل بالعين وبالفيرية
وقيل بالجمع وبالفريقية
قالوا الصفات عين ذاته أتت
وقيل في أصل أصول رُكبت
وكل شخص قاده تصوره
لسرية كما اقتضاه عصره
تخالف الأنعام في الأصول
تخالف الأشكال والعقول
تخاصموا وفي خصامهم حكم
وكلهم يقول مسلكي أمم^(١)
وقصدهم من ذلك الشقاق
أن يخلصوا للواحد الخلاق

(١) الأمر المستقيم الواضح .

سبحان من قد حير العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

يا رب ما بال اللبيب في الزمن

معدَّب بعقله وممتحن

يا رب إنك ابتليت العارفا

بقدر ما أوليته معارفا

من كل وجه مبصر عناء

وفوق عقله يرى الأشياء

هل يمكن التحقيق والإتقان

العقل بالظن له اتزان

وكيف بالعلم والاستيعاب

لعاجز ناء عن الصواب

كأنه لم تكفنا الأهوال

حتى تولى حكمنا الجهال

ولست أدري هل نظام العالم

تقضي لذي جهل بعزائم

ولم يزل من سالف الأزمان

يستعد الأحمق ذا العرفان

وفي يفاع العز يرقى الجاهل

وفي حضيض الذل يلقي الفاضل

بالحظ قد صار الجهول نائلا

آماله والشبهم أضحى عائلا

سبحان من قد حير العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

إلى أن يقول:

يا عجباً لظالم ختال

لا يخطر الإثم له ببال

وسارق يأنف إن قيل سرق

وقاتل لا يخشى من خلق

وكل من تسأله عن حاله

يريك وجه الحق في أفعاله

يُصلب قاطع الطريق في بلد

وسيداً في بلدة أخرى يُعدّ

تبرج النساء عيباً ظاهر

وفيه عند معشرٍ تفاخر

بعض يرى الحرمة وهو يشرب

والبعض يستحل ما يتهب

إن شئت عاشر كاملاً مهذباً

معلومة أطواره مجرباً

تبصر بعد البحث عن شئونه

دلائلاً تنبئك عن جنونه

فكر الفتى يظهر في الأفعال

وليس يرضى نسبة الضلال

والبيان الحق والبطلان

والعقل والجنون من ميزان

سبحان من قد حير العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ

ويولج الظلام في الأسفار

يَحُولُ الشِّتَاءُ لِلْمَصِيفِ

ويقلب الربيع للخريف

محيٍّ مُمِيتٌ من ترابٍ قد برى^(١)

آدم ثم منه قد أبدى برى^(٢)

نار الخليل ردها أنوارا

وصاغ من نور الحكيم نارا

قد زين العشوق بالبهاء

وأوقع العاشق بالبلاء

يولهُ الطامع طول عمره

يُدِّلُه الأمل مدَّ دهره

يخرب ملكاً لحريص جائر

يُشتت قوماً لخوون داعر

يُرُبُّ جسماً في النعيم دهرا

ثم تغوله المنون قهرا

يودع صدر المرء أنوع الحكم

ثم يردّه تراباً في الرجم

من يعترف بالعجز فهو العالم

من يعتبر بالدهر فهو الحازم

(١) معناها: خلق .

(٢) معناها: التراب .

في ملكه يفعل ما يريد

إن شاء يبدي أو يشاء يعيد

سبحان من قد حير العقولا بصنعه وأعجز الفحولا

وتستمر الأرجوزة الشعرية على هذا المنوال إلى آخرها يحكي فيها قصة
الخليقة وما جرى فيها من أحكام وأحوال وقدرة الله تعالى التي حيرت العقول
وأعجزت كل جبار فوق الأرض.

* * *

عبد المسيح الأنطاكي

١٨٧٤ - ١٩٢٣

عبد المسيح بن فتح الله الأنطاكي يوناني الأصل سكن أجداده أنطاكية وانتقلت عائلتهم إلى حلب سنة ١١٦٣ هـ واستقروا فيها . وفيها ولد أدينا .

كان نشيطاً وطموحاً وذكياً ، كافح وجاهد سعياً إلى احتلال مكانة متميزة في عالم الأدب ، وكان له ما أراد فاحتل مكانة مرموقة بين الأدباء .

أقبل على المطالعة حتى ألمّ بتاريخ العرب منذ أيام الجاهلية . ووقف على تاريخ الإسلام ومذاهبه ، وأقوال فقهاء وعلمائه .

اتخذ من الصحافة طريقة للإفصاح عن مواهبه فلم يؤد رسالتها ، كما يجب أن تكون رسالة الصحافة ، بل جعلها وسيلة للارتزاق . وكان الشعر وسيلته وقد تنقل بين البلاد العربية فمدح أمراءها ، وجعل من مجلته العمران ديواناً لمدحهم فأغدق عليه الأمراء الذهب بغير حساب .

وقد كتب عبد المسيح بقلمه تاريخ نشأته فقال :

«نشأت في حلب الشهباء في وسط كله تعصب وجهل ، ومن حسن حظي أن بيتنا في حلب كان في شارع أكثر أهله عرب مسلمون يدعى (قسطل المشط) فكنت أجد من حسن معاملة العرب المسلمين لأهلي ورعايتهم لجوارنا غير ما كنت

أسمع من النفرة منهم من أفواه عشريني المسيحيين فشبيت وأنا على غير رأيهم في هذه الأمة الكريمة، ثم عندما اتسعت مداركي وصرت أعرف وأعتقد أن هؤلاء المسلمين العرب الذين يجاورونا ونجاورهم هم شركاؤنا في الوطن ومشتركون معنا في منافعهم ومضارهم، وفوق هذا أن بيننا وبينهم صلة قرى بلحم ودم لأن المسلمين عندما دخلوا سورية كان أهلها مسيحيين ويهوداً ومجوساً فأسلم منهم من أسلم وبقي على دينه من بقي، وربما انقسمت العائلة الواحدة إلى مسلمين وغير مسلمين . . وهكذا أصبحت متعصباً للعرب أعد نفسي واحداً منهم يسرني ما يسرهم ويسئني ما يسئهم، وبصفتي واحداً منهم بات همي أن أعنتي بمصلحتهم، وتوفقت إلى أصدقاء منهم أهل علم وسياسة متعصبين للعرب. يرمون إلى استعادة مجدهم فتريت على أيديهم وعلى رأي أستاذي المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي الشهير.

ولخدمة العرب أنشأت مجلتي (الشدور) في حلب سنة ١٨٩٧ - ١٨٩٨ فحاربتني الحكومة، فهجرتُ وطني وأتيت مصر، وأنشأت جريدتي الشهباء ثم حولتها إلى اسم (العمران) وتبعني إلى دار هجرتي أستاذي الفيلسوف الكواكبي سنة ١٨٩٩ فلذت به وقضيت في صحبته كل المدة التي أقامها في مصر إلى أن استأثرت رحمة الله تعالى بنفسه الطاهرة سنة ١٩٠٢ فأخذت على عاتقي الضعيف استئناف الجهاد في سبيل العرب الذي كان يجاهده وأنا في خدمته»^(١).

ويشير قسطنطين الحمصي إلى نشأته الأدبية قائلاً:

«درس مبادئ العربية في حلب. وأقدم على صناعة القلم منذ حداثة وهو لا يملك منها غير الاسم، وقرض الشعر وهو لا يعلم موازينه إلا ما تزنه أذنه وما هي إلا سنوات حتى دانت له صناعة القلم فكتب ونظم، وأقبل على المطالعة حتى وقف على تاريخ العرب ومعتقداتهم في الجاهلية، ووعى تاريخ الإسلام ومذاهبهم وما قاله علماءهم وفقهاؤهم ثم حول صحيفة (العمران) إلى مجلة كان يبعث بها

(١) الأدب العربي المعاصر في سورية - سامي الكيالي.

إلى أقاصي بلاد العرب والإسلام في الهند والصين وخليج العجم ، ومال فيها إلى رأي الشيعة»^(١).

لقد كان عبد المسيح الأنطاكي ذا طموح ، وقد ضاقت به بيئته فنزح إلى مصر وقد كانت حلب ، كأكثر المدن العثمانية تثن من الجور الحميدي ، وتتطلع إلى جو دستوري تشيع الحرية في آفقه ، وكانت مصر تنعم بجو حر فاجتذبت الكثير من أبناء سورية ولبنان الذين عملوا في مجال الصحافة وكان قد بدأ حياته الأدبية كما نعلم في مجال الصحافة حين أصدر مجلة (الشدور). فحذا حذو الكثيرين وانطلق في هذا الميدان يكافح ويناضل حتى أصبح له مركز مرموق في المحيط الصحفي ، ومنه انطلق إلى جمع المال لأنه كان يرى فيه الوسيلة التي يصل بها الإنسان إلى ما يبتغي . وقد أكد رأيه من خلال شعره الذي يقول فيه:

ولذة المال لا شيء مثلاً لدى كل حُرِّقٍ قد عالج الفقرا
وإن الذي يجني النصار فإنه جنى معه الإعزاز والجاه والقدر

وقد أصدر في أول حياته الأدبية مجلة «الشدور» وأصدر منها عشرة أجزاء ثم أصدر مجلة «العمران» التي صدر منها اثنا عشر مجلداً ، وأصدر كتاب «نيل الأمان في الدستور العثماني» وكتاب «النهضة الشرقية» و « القصيدة العلوية المباركة» وفي هذه القصيدة التي بلغ عدد أبياتها ٥٥٩٥ بيتاً وعدد صفحاتها ٦٠٠ ستمائة صفحة تناول تاريخ حياة الإمام وما جرى له مع الخلفاء الراشدين وهي كما قال ناظمها «أولى القصائد التي ظهرت في الشعر العربي فكانت نسيجاً وحده ، لأنني ما عرفت قصيدة عربية مثلها تناولت تاريخاً أو قصة فجاءت عليها من أولها إلى آخرها بقافية واحدة ووزن واحد ، كما أنها أطول قصيدة في لغة العرب على الإطلاق ، وقد قسمتها إلى فصول جعلت لكل فصل عنوان يعين المطالع على إدراك مراميها واستقراء معانيها وهي تقسم إلى قسمين أولهما تاريخ

(١) أدباء حلب - قسطنطين الحمصي .

أمير المؤمنين منذ ولادته إلى أن امتدت إليه يد الشقي ابن ملجم ، والثاني خصصته بمناقب وفضائل وحكم أمير المؤمنين» .

وقد سمي قصيدته هذه (ملحمة) وفسّر ما أراد من هذه التسمية بقوله^(١):

(أما لفظة ملحمة التي أطلقتها على هذه القصيدة المباركة اتباعاً للمقاربة فمعناها اللغوي (الوقعة العظيمة) ولعلها مأخوذة من قولهم: التحم القوم للقتال أي اشتبك بعضهم ببعض . .) .

ونورد في هذه العجالة مقطعاً من ملحمة القصيدة العلوية مشيداً بالعرب ومكارمهم وأخبارهم ومحامدهم:

سرفي الأعارب وانزل في مغانيها	واشهد مكارم باديها وقاريها
وصف فإن مجال الوصف ذو سعة	خلالها الزهر مع سامي مباديها
وأمة خير ما تسمى به عرب	إن رام تمجيدها يوم مسميها
وأفئس حرة ما استعبدت وأبت	أن تستذل لغير الله باريها
وهمة تنشد العليا وتطلبها	ما الدهر يقعدا عنها ويشيها
وعيشة قد توختها اشتراكية	أجلى مظاهر أهليها تآخيها

ثم يمجّد العرب ويفخر بحسبهم وموطنهم:

والعرب من قدم أسمى الورى حسباً	إذا رجعنا إلى تاريخ ماضيها
ويعربُ الجدُّ من عليها قد بدأت	تنمو وما زال رب العرش منميها
وفي الجزيرة قد كانت منازلها الـ	كثرى وطاب لها قاسي تثويها
مهامه أمحلت محلاً وما خصبت	إلا بمن قد أقاموا في مواميها

(١) الأدب العربي المعاصر في سورية - سامي الكيالي .

ما أنبت شجراً ما أثمرت ثمرأً لكن عقولاً تناهت في تساميتها
هي الجزيرة لا أرض تحاكيها إن كان مجد الأراضي في أهاليها

وبعد أن يصف طبيعة الجزيرة العربية وصفاً دقيقاً يقول:

ومع خشونتها في عيشها لطفت أخلاقها وسمت سُمواً مباديها
تنبيك آدابها عنها وقد بقيت مروية عبرةً كبرى لقاريها
وتلك أشعارها في جاهليتها تطوي حضارتها الغرا مطاويها
وانما الشعر تاريخ الأعراب قد أبقي لها أبداً ذكرى معاليها
منه عرفنا مغازيها وهمتها وكل سام عظيم من مآتيها
كانت له دولة في العرب طائعها قد استعز بها إذ ذلّ عاصيها

وبعد أن يصف الكثير من خصائص العرب وشماثلهم يقول:

أما شماثلها الغرا التي بلغت بها الفخار فليس العدُّ يحصيها
فمن مكارم أخلاق إلى كرم إلى نفوس تناهت في تعاليها
إن عاهدت حفظت رغم الزمان عهد الأصدقاء وبالأرواح تفديها
وضيفها لم يهب غدر الزمان به حتى ولو كان من أعدى أعاديها
سادت وصالت وأبقت من مفاخرها أو ابداً ليس كر الدهر ماحيها

إلى أن يقول:

لكن عقولاً تناهت في تساميتها
إن كان مجد الأراضي في أهاليها

ما أنبتت شجراً ما أثمرت ثمراً
هي الجزيرة لا أرض تحاكيها

سوء وكان الذي يؤذيه يؤذيها
سلت لقهر أعاديه مواضيها
يبقى على الضيم فرداً من مواليتها
عن البرية وحشيتها وحضريها
تنسى ذوي الجاه منها عن أدانيها
شيوخها إذ تنادى مستشاريها
تالله قد تخذتها عن قرشيها
الغرا لتودع عنها مستبديها

يشور ثائرها أن نال واحدها
فإن يصح «وانصيراه» رأى أسداً
تضامن بين أفراد القبيلة لا
ومنذ نشأتها امتازت معيشتها
بالاشتراكية الكبرى فلا رتب
وأن أحكامها شورى يصيح بها
شورى إليها انتهت من جاهليتها
والله أنزل في القرآن أيتها

* * *

راغب الطباخ

١٨٧٧ - ١٩٥١

ولد أدينا الشيخ محمد راغب الطباخ في مدينة حلب وفي أسرة ذات يسار وكانت أسرته تمتن التجارة عملاً والتصوف مذهباً، واشتهر أبوه وإخوته بعلومهم، وكان جده هاشم يقرأ العلوم الدينية في مسجدي العمري والزيتونة، ولذلك طبعت أسرته بطابع العلم والتدين.

وقد رفض أبوه الشيخ محمود منصب القضاء وفضل أن يعمل بالتجارة ومهنة (الطباعة على الشاش) التي كانت تصنع عصائب وملايات تصدر إلى طرابلس وحمص وحمّاه والحجاز وتركيا وبلاد فارس. فكان مردودها المالي وافراً^(١).

بدأ حياته في الكتاب وحفظ فيه القرآن الكريم، ثم انتسب إلى المدرسة المنصورية الابتدائية التي افتتحها الحكومة العثمانية في حي الفرافرة، وفيها تلقى اللغة التركية والفارسية بالإضافة إلى الفرنسية والعربية. ونال الشهادة الابتدائية عام ١٨٨٩م ثم انتسب بعد ذلك إلى المدرسة الشعبانية فتابع دروس العلم وجالس العلماء فحفظ الأجرومية في النحو، والجوهرة في التوحيد، والسلم في المنطق وألفية ابن مالك، والبيقونية في المصطلح، والسمرقندية في الاستعارات، والجواهر المكنون في المعاني والبيان والبدیع، والقطر في النحو لابن هشام، وغيرها كثير..

(١) أدباء من حلب - الدكتور بكري شيخ أمين.

تتلمذ الطباخ على أكثر مشايخ حلب وعلمائها ، ولكنه تأثر بشكل خاص على الشيخ محمد كلزية والشيخ محمد رضا الشهير بالزعيم الدمشقي ، والشيخ محمد الزرقا إمام الفقه الحنفي في هذا الوقت ، والشيخ بشير الغزي المتمكن باللغة العربية وشعرها وأدبها والعالم الذي ترجم القصيدة الشهيرة للفيلسوف التركي الشهير (ضيا باشا) والمسماة (ترجيح بند) والتي تحدث فيها عن الخليفة منذ بدءها وحكمة الخالق فيما أبدع .

عمل الشيخ راغب الطباخ في مهنة والده فترة من الزمن فكان مثلاً للصدق وحسن المعاملة . رشح إلى رئاسة الغرفة التجارية وأصبح نائباً للرئيس في دورتين متتاليتين ، ثم اعتزل التجارة . وتولى بعد ذلك مهنة التدريس في المدرسة الخسروية فترة من الزمن ، ثم انتقل بعدها إلى المدرسة الفاروقية التجهيزية ، ولم يهمل دراسته في هذه الفترة بل استمر في التزود بالعلوم والمعارف من مصادرها الأساسية .

ولقلة المطبوعات في زمنه ، بل لندرتهما عمد إلى نسخ الكثير من الكتب ومن أشهر ما نسخه كتاب (در الحب) للرضي الحنبلي وكتاب (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب) لابن الشحنة وكتاب (غريب القرآن) للسجستاني ، وغيرها .

وبالإضافة إلى كل ذلك كان راغب الطباخ مولعاً بالرحلات ، فكانت رحلاته تجارية في أول أمرها ولكنها تحولت بعد ذلك إلى رحلات أدبية وعلمية . فرحل مع عمه عبد السلام الطباخ إلى الحجاز واجتمع معه بالشيخ محمد مراد الطرابلسي وتطارحا بالمناظرات ، وكان يستمع إليهما وكان هو يقف موقف المستمع . وكان من جملة الذين زارهم من العلماء والأعلام الشيخ عبد القادر المغربي عضو المجمع العلمي العربي ، والشيخ بهجت البيطار ، والشيخ كامل القصاب وعيسى اسكندر المعلوف وأحمد تيمور باشا والأمير شكيب أرسلان وغيرهم من العلماء والأدباء وبعض المستشرقين .

وانتسب الطباخ إلى جمعية الاتحاد والترقي التركية ، ولما رأى أن قراراتها

تصدر باللغة التركية وأن القائمين على الجمعية متحمسين للغة التركية سعى إلى ترجمة تلك القرارات والخطب ونظام الجمعية إلى اللغة العربية. وهذا ما دفع صديقه المفتش بالمعارف في ولاية حلب السيد نجيب باقي إلى العناية باللغة العربية وجعلها أساساً في تعلم دروس الديانة والعلوم العربية كالنحو والصرف وساعده في ذلك زميله الشيخ بدر الدين نعساني الذي راح يكتب المقالات الطويلة التي تشجع على العناية باللغة العربية وينشرها في جريدة الاتحاد العثماني.

وانتدب الشيخ راغب الطباخ للتدريس في المدارس الثانوية فعينه مجلس ولاية حلب سنة ١٣٣٧ هـ مدرساً للغة العربية والإنشاء والعلوم الدينية في مدرسة شمس المعارف التي سميت فيما بعد بالكلية الفاروقية التجهيزية وبقي فيها إلى سنة ١٩٣١. ثم عين مدرساً في المدرسة الخسروية للسيرة النبوية والحديث والتاريخ والمصطلح والثقافة الإسلامية.

وفي أثناء قيامه بالتدريس في المدرسة الخسروية سعى إلى تطوير مناهجها وجعلها معاصرة ولقي أثناء سعيه إلى عصرنتها معارضة شديدة ولكن مساعيه تكللت بالنجاح.

وبعد أن أصاب الزلزال مدينة حلب وأصيبت المدرسة الخسروية وهدم جزء منها أهملت حيناً من الزمن ولكن مدير الأوقاف الجديد (يحيى الكيالي) أعاد بناء المدرسة وأوكل أمر التدريس فيها إلى الشيخ راغب الطباخ ثم عين بعد ذلك مديراً للمدارس الدينية كلها فسعى إلى مزج العلوم الدينية بالعصرية دون أن تطفئ إحداها على الأخرى. وفي هذه الفترة كان يسعى إلى معادلة الشهادة الشرعية بالشهادات المعترف بها في الدولة. ونجح في ذلك بعد سعي حثيث ونضال عنيف.

لقد شغل الشيخ راغب الطباخ مناصب عديدة في حياته فكان عضواً لمجلس المعارف في حلب وعضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، وجمعية الآثار القديمة بحلب (العاديات) واللجنة الإدارية للمتحف الوطني بحلب، وجمعية إحياء المعارف بحيدر آباد.

للشيخ الطباخ مؤلفات عديدة أشهر كتبه (إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء)^(١)، جمع فيه كل ما كتب عن حلب في بطون الكتب من مطبوع ومخطوط، وقد وضع الشيخ الطباخ منهجه في كتابه بقوله: «وقلما يقع نظري على ترجمة حلبي في كتاب من الكتب التي اطلعت عليها إلا ونظمتها في عقد هذا التاريخ وألزمت نفسي ألا أذكر إلا من كانت ولادته في الشهباء أو كان ممن توفي فيها. وجعلت أعيان كل قرن على حدة مبتدئاً من القرن الثالث إلى هذا العصر مرتباً لهم على مقتضى سني وفاتهم لتكون ترجمة المعاصر مقرونة مع معاصره تقريباً، وسلسلة حوادثهم متصلة غير منفصلة أو قريبة الارتباط ببعضها. من ملك حلب ومن تولاها من الفتح الإسلامي سنة ١٦ هـ إلى ١٣٢٥ هـ وأخبار ملوكها وأمرائها والحوادث التي حصلت في زمنهم إلى تراجم لأعيان حلب الشهباء ما بين وزير خطير وأمير كبير ومحدث وفقه وشريف ووجيه. وطبيب وشاعر وأديب وتاجر وزعيم وغيرهم من ذوي المزايا وأرباب المناقب»^(٢).

وقيمة هذا الكتاب أن مؤلفه في جمعه الحوادث المتناثرة عن حلب في بطون التاريخ سهل إلى حد كبير مهمة الباحثين والمؤرخين لحلب.

ومن مؤلفاته الأخرى بعد مؤلفه الشهير:

١- ذو القرنين وسد الصين من هو؟ وأين هو؟

٢- الأنوار الجليلة من مختصر الأثبات الحلبية.

٣- المصباح على مقدمة ابن الصلاح.

٤- الروضيات للصنوبري.

٥- الثقافة الإسلامية.

٦- المطالب العلية في الدروس الدينية في ثلاثة أجزاء.

(١) إعلام النبلاء - نقلاً عن كتاب محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب - سامي الكيالي.

٧- عظة الأبناء بتاريخ الأنبياء.

٨- تمرين الطلاب في صناعة الإعراب.

٩- ترجمة كمال الدين بن العديم.

١٠- المدارس في الإسلام.

وهناك كتب أخرى له لم تطبع.

* * *

خير الدين الأسدي

١٩٠٠ - ١٩٧١

لئن كان المتنبي كما وصفه الأدباء في عصره والعصور التالية (مالئ الدنيا وشاغل الناس) فالأستاذ الأديب خير الدين الأسدي كذلك ملأ الدنيا بإبداعه وشغل الناس به زمناً طويلاً ولا زال يشغلهم بما قدمه عن مدينة حلب المعشوق الأول والأخير له . فحلب بالنسبة له (درة الزمان ولؤلؤة الحياة) التي لا يتنفس إلا من خلالها .

لقد أفنى خير الدين الأسدي حياته يبحث في مدينته ومعشوقته حلب أدباً ولغة وتاريخاً وحكاية فلم يترك شيئاً عنها إلا سطره في كتبه العديدة والتي كان أهمها على الإطلاق (الموسوعة) .

ولنقرأ ما قاله الأسدي نفسه في مقدمة كتابه (حلب الجانب اللغوي من الكلمة):

«منحتك يا حلب كل ما انطوى عليه قلبي من كنوز الخير ، وكتبت على النفس أن تضني لرسالتها ، وتضني : فحرام على قلبي أن ينال بلة من الماء إن كان في البلة ما يمس مثله ، وحرام على قلبي ألا يولي الجميل جميلاً وأكثر» .

ألا ترى معي أن كلمات الأسدي هذه تعكس روحه المتوثبة وعشقه الخالص

لمدينته التي آثرها على كل الدنيا (حلب) . لقد بلغ عشقه لها حد التوحد فهو كالصوفي الذي نشد التوحد بالذات الإلهية . وسار في هذا الطريق طيلة حياته . وهذا ما فعله الأسدي مع مدينته حلب ، أو كما يقول هو: "هذه حلبي أنا . . حلب أحلامي" .

لقد خصّ الأسدي حلب بأفضل مؤلفاته وبموسوعة تعتبر أكبر موسوعة في العالم صُنفت في لهجة مدينة (كما يقول الأستاذ عبد الفتاح قلعه جي) . ولكن حلب لم تردّ الفضل لعاشقها فقد جفته وهجرته فقد لقي في سنوات عمره الأخيرة من شظف العيش وقسوة الزمن عليه ما لم يلقه أديب أو شاعر . فقد انتهى به المقر إلى دار العجزة وما هو بعاجز حتى مات غريباً وحمل إلى المقبرة بلا جنازة ولا مشيعين ، حتى أن الأديب الأستاذ خليل هنداوي قال في حفل تأبينه: «حق أكلنا ، ولحم نهشنا ، واليوم جئنا لنكرمه في مثواه» . لقد ودعت حلب علامتها وعاشقها كما يودع الغريب الذي ليس له وطن .

أما الآن فلنعد إلى البداية . فقد ولد العلامة محمد خير الدين أسد عام ١٩٠٠ لأبوين حلييين من أصول عربية صرفة ، فأبوه هو الشيخ عمر رسلان أسد من رجال الدين ، وأستاذ النحو والصرف في المدرسة العثمانية . وأمه أسماء شماع من أسرة معروفة كانت تمتهن التجارة .

درس في مدرسة شمس المعارف قرب القلعة . ثم في مدرسة الرشدية العثمانية ، وتلمذ في المدرسة الأخيرة على يد الشيخ بشير الغزي في النحو والشيخ محمد الحنفي في البلاغة والشيخ محمد الزرقا في الفقه .

والصدمة الأولى التي تلقاها الأسدي كانت طلاق والدته في سنوات المراهقة الأولى ثم كان سفر أبيه إلى الطائف بعد أن تزوج مرة ثانية لكي يدرس هناك مدة سبع سنوات عاد بعدها إلى حلب عام ١٩٣٧م ، وقد دفع اعتزاز الوالد باللغة العربية إلى تغيير كنية العائلة من (رسلان) إلى (أسد) وأضاف خير الدين إليها النسبة في تصدير مؤلفاته .

مارس الأسدي التدريس في عدة مدارس عربية وأجنبية، وفي عام ١٩٢٣ أخرج لطلاب المدرسة الفاروقية مسرحية (استقلال أمريكا) وفي الفصل الثاني انفجرت في يده كمية من البارود بترت كفه. ولشدة ولعه بالتمثيل والمسرح قال للممثلين قبل أن يغنى عليه «امضوا في إنجاز التمثيل ولا يحزنكم موتي».

وقد كتب عن هذه الحادثة فيما بعد فقال: «يا يوم انتشرت يدي! ليكن مطلق برداً وسلاماً، فللمثل العليا قدمت قرباناً من لحمي ودمي».

ولقد كرس الأستاذ خير الدين الأسدي حياته في عالم التأليف والغوص في جزئيات المسائل النحوية واللغوية والفولكلورية الشعبية. وأغنى معارفه برحلات علمية وسياحية زار فيها بلاداً ومدناً كثيرة كفلسطين ومصر وتركيا والعراق وأفغانستان وإيران وغيرها من بلاد العالم الشرقي والغربي، وكان في رحلاته يطلع على خزائن الكتب والمخطوطات كما في إسبانيا واليونان والنمسا وغيرها، وكان يلتقي في تلك البلاد بأعلام الفكر والأدب.

ولتفرغ الأسدي لعمله التدريسي والتألفي ورحلاته المستمرة عزف عن الزواج. وكان يصوم أياماً كثيرة ليوفر ثمن كتاب يشتريه، وقد اقتنى في حياته مكتبتين:

الأولى: أهداها إلى دار الكتب الوطنية عام ١٩٤٦ لقاء وظيفة في الدار وهبة شهرية يتلقاها منها كانت زهيدة. ولكن رئيس البلدية في ذلك الزمن فصله من عمله وقطع عنه هذه الهبة نتيجة خلاف حدث بينهما.

والثانية: بقيت عنده في بيته حتى وفاته، فباعها أقرباؤه مع داره في حي الشيخ طه، مع أنه وجه كتاباً إلى المحافظ يعلمه فيها أنه أهدى المكتبة إلى بلده وأن تصبح هذه المكتبة داراً تسمى دار الأسدي.

وفي عام ١٩٤٠ توفي والده وفي عام ١٩٤٩ توفيت والدته فتلقى صدمة قاسية كانت رفيقة دربه ومساعداً له في احتياجاته المادية.

وفي عام ١٩٥٠ انتخب نائباً لرئيس جمعية العاديات . وبقي في منصبه حتى وفاته . أما مؤلفاته فهي كثيرة ومعظمها في حلب وما يتصل بها وسنوجز الحديث عنها إلا مؤلفه الأكبر والأشمل (موسوعة حلب المقارنة) فهذا المؤلف يستحق منا أن نتوقف عنده طويلاً ولن نفيه حقه لأنه عمل معجز أنجزه رجل مفرد وهو الذي يحتاج إلى كادر علمي ولغوي كبير حتى ينجز .

يقول الأسدي عن كتابه في المقدمة: «موسوعة حلب حصاد عمر قضيناه في الدراسة والتدريس بجوار خزانتنا الزاخرة بكل أثر لغوي ، ثم قضيناه في سياحات إلى خزائن العالم ، والاتصال بذوي المعرفة . وإن كتابي يعتز بأن يعلن أن ليس لمدينة في العالم ، في أوروبا ولا غيرها ، كتاب حافل بكل أواصره الدقيقة ككتابي»^(١) .

وفي مكان آخر من المقدمة يخبرنا كيف عمل على تأليف كتابه ، فهو يلتقط مفردات اللهجة الحلبية من أفواه الناس حوله ويشبه نفسه بالأصمعي عندما خرج يلتقط مفردات اللغة العربية من بطون الصحراء ومن أبناء القبائل التي لم تلامس الحضارة شفاههم: «ها أنذا ألتقط من أفواه من حولي لهجة حلب التقاطات الأصمعي ومن جواره مفردات العربية قبل نحو عشرة قرون ، ثم ها أنذا أعرضها في أمسياتي على خزانتي الزاخرة باللغويات أو أقلب أنا فيها النظر وقد أخطئ وقد أصيب»^(٢) .

وموسوعة الأسدي تنفرد عن باقي مؤلفاته الكثيرة والهامة أيضاً ، فهي تتبوأ مكانها رفيعاً بين الدراسات اللغوية المقارنة ، لأنها وضعت من أجل الكشف عن الأصول اللغوية التي عملت على تكون لهجة المدينة .

ولا ننسى أن هذه الموسوعة تعد أهم مصدر من مصادر التراث الشعبي . واهتمام الأسدي بمدينة حلب نابع من أمرين أساسيين هما:

(١) المقدمة في كتاب موسوعة حلب (نقلاً عن مقال للأستاذ عبد الفتاح قلعه جي) في كتاب أدباء من حلب .

(٢) موسوعة حلب المقارنة - م . الأسدي - المقدمة .

أولاً: حبه لها بل فلنقل عشقه لها الذي جعله يتوحد بها فحلب كما يقول (حلمي أنا) وهذه الأنا تعني الملكية الخاصة التي يشعر بها تجاه مدينته حتى ليغار عليها من نفسه .

وثانيها: أن مدينة حلب مدينة تاريخية عريقة وغنية بسكانها ومواردها وكانت محط اهتمام الناس على مر العصور فقد كانت المحطة التجارية الرئيسية في بلاد الشام و(عاصمة الشمال) كما يطلقون عليها ، وهذا ما جعل الأسدي يشعر بأهمية مدينته ويرى أنها تستحق منه أن يخلدها عبر تخليد لهجاتها وعادات أهلها وحياتهم الاجتماعية .

وبالإضافة إلى غنى الموسوعة بالمفردات اللغوية التي يردّها الأسدي إلى مصادرها العربية الأصيلة فهي غنية أيضاً بالمعلومات التاريخية والجغرافية والثقافية والاجتماعية ، وهذا ما يجعل قراءتها متعة للنفس وفائدة للعقل ، فقد بث فيها المؤلف من الأخبار العلمية والوقائع الشعبية وطرائق الطعام واللباس والأفراح والأتراح وغير ذلك مما تميز به أهل حلب .

لقد حقق الأسدي في موسوعته معجزة العصر مما لا يستطيع أن ينجزه غير كادر موسوعي اختصاصي ، وهي تعتبر بحق تكملة للمعاجم العربية . فالعامية تطور طبيعياً للفصحى ، والموسوعة ليست معجماً لغوياً فحسب بل هي دائرة معارف ومعجم شعبي فولكلوري إنساني ، فهو مرآة حلب أمام العالم .

والكتاب الثاني في مؤلفاته هو:

حلب الجانب اللغوي من الكلمة: وطبع في مطبعة الضاد بحلب ١٩٥١
والكتاب ترجمة علمية لحالة العشق التي يعيشها أدينا وكما رأينا ذلك في موسوعته .
ويصدر بحثه في هذا الكتاب بقوله: «منحتك يا حلب كل ما انطوى عليه قلبي من كنوز الخير ، وكتبت على النفس أن تضني لرسالتها وتضني: فحرام على قلبي أن ينال بلة من الماء إن كان في البلة ما يمس مثله ، وحرام على قلبي ألا يولي الجميل جميلاً

ثم يتابع في عنوان آخر سمّاه (رفع المقال): «حليبي أنا، حلب أحلامي ورؤاي تتخطى هذه الحدود المصطلح عليها وتمتد . . . وحلب جزء من كل حليبي، وحلب رمز إلى كل حليبي، فإلى حلب أرفع بحثي المتواضع هذا»^(١).

ويتألف الكتاب من خمسة أقسام هي: ١- أسماء حلب. ٢- حلب في الآثار. ٣- المذاهب في تسميتها. ٤- تحليل اسم حلب. ٥- مَنْ بنى حلب. ويؤكد المؤلف أن حلب من أقدم مدن العالم. وفي مغاورها تستقر حلب في العصر الحجري. ومن كتبه أيضاً:

- ١- قواعد الكتابة العربية (وهو كتاب مدرسي طبع عام ١٣٤١ هـ).
 - ٢- البيان والبديع طبع عام ١٩٣٦.
 - ٣- عروج أبي العلاء: قصيدة ملحمة للشاعر الأرمني أويديك إسحاقيان ترجمها الأسدي مع تشيتوبان راسيخ طبع عام ١٩٤٠.
 - ٤- أغاني القبة.
 - ٥- يا ليل.
 - ٦- أحياء حلب وأسواقها، استكمل التأليف فيها الأستاذ عبد الفتاح قلعه جي وطبع في وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨٤.
- ومن مخطوطاته:

- ١- الله. ويقع في ١١٢ صفحة.
- ٢- أيس وليس، يقع في ٣١٠ صفحات.
- ٣- الألف، تقع في ٤٣١ صفحة.

(١) حلب: الجانب اللغوي من الكلمة - م. خير الدين الأسدي ص ٣.

خليل هنداوي

١٩٧٦ - ١٩٠٦

ينطبق على الأديب الأستاذ خليل هنداوي وصف الأديب الشامل ، فقد كتب في كل أنواع الأدب من قصة ومقالة وشعر ومسرح . وترجم عن الأدب الغربي كتباً عديدة ، وكان مع هذا التنوع الواسع في الكتابة أديباً بارعاً متمكناً من ناصية اللغة العربية وهو الذي مارسها دراسةً وتدرّساً زمناً لا بأس به .

وقد مرت حياة الأديب خليل هنداوي بمراحل عديدة . فقد ولد الهنداوي في صيدا عام ١٩٠٦ في لبنان ودرس فيها الابتدائية والإعدادية ثم رحل بعدها إلى دمشق أيام الحرب العالمية الأولى وأكمل دراسته في صيدا بعد أن عاد إليها مرة أخرى فدرس في معهد المقاصد الخيرية ، وبعد أن أنهى دراسته عام ١٩٢٧ تقدم لإحدى الوظائف ، لكن الظروف اضطرته إلى السفر مرة ثانية إلى دمشق فأقام فيها يُدرّس ويكتب في جريدة الشعب ، وانتقل بعدها إلى دير الزور ليدرس هناك عام ١٩٢٩ واستمر يدرس في دير الزور مدة عشر سنوات وكان تعليم العربية بالنسبة له رغبةً واندفاعاً وانتصاراً للغة العربية في هذا العصر أكثر من مهنة . ولذلك نهل الطلبة على يديه من نهر اللغة العذب واستمتعوا بطيب أسلوبه وإشراق عبارته فكان لهم خير ناصر ومعين ليسلكوا درب اللغة الذي عبده أمامهم .

وفي دير الزور بدأ رحلة الأدب تأليفاً ومطالعة فكان يطالع الكتب العربية والأجنبية وتفرغ لكتابة بعض المقالات والمسرحيات التي جعلت شهرته تبدأ بالوسع .

وفي عهد الأستاذ سعد الله الجابري عندما تسلم الوزارة ، وعندما زار دير الزور التقى به وأعجب به وبطريقة تدريسه فنقله إلى حلب سنة ١٩٣٩ ليستفيد أبناء حلب من علمه وأسلوب تدريسه .

وفي حلب تعرّف على أدبائها ورجالها المعرفين . فالتقى الأديب المعروف سامي الكيالي وكتب في مجلته (الحديث) وتعرف على الأديب بشر فارس والموسيقار أحمد الأوبري والشاعر علي الناصر وعلم الشعراء في العصر الحديث الشاعر عمر أبي ريشة الذي تعمقت معه صداقته وكذلك أصدر في حلب بالتعاون مع الدكتور عمر الدقاق أكثر من كتاب مدرسي . ومع الأستاذ لطفي صقال كتاب تيسير الإنشاء ومع الأستاذ عبد الرحمن عطية كتاب (المورد في الأدب العربي) . ثم عُيّن مديراً للمركز الثقافي العربي في حلب منذ عام ١٩٥٨ حتى وفاته عام ١٩٧٦ .

نال الأستاذ خليل هنداوي أكثر من جائزة وكرم أكثر من مرة وذلك لغزارة إنتاجه وكثرة عطائه في مجال الأدب فقد كان عالماً قائماً بذاته في دنيا الأدب وكان حب المعرفة رائده في دراسته واطلاعه . يقول عن ذلك : «تريد المحبة الآن أن تطل على العالم بغير طريق الكتب المدرسية . . إن الدراسة الرتيبة المحددة ليست بالزاد الذي يشبعها ولا بالماء الذي يرويها . . وتشاء الأقدار أن تضع في طريقها كتباً فيها روح التحفز إلى معرفة الحياة وتكوين الفكر المستقل الحر»^(١) .

وقد قرأ خليل هنداوي لكثير من الكتاب من أهمهم أمين الريحاني وجبران خليل جبران وعباس محمود العقاد والمازني ، ومن الشعراء أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهم ، وتأثر كثيراً بأدب جبران الصوفي الرومانسي وببلاغة الإمام علي من خلال كتابه نهج البلاغة ، ويقول عن ذلك : «لقد كنت تلميذاً للريحاني عقلاً وتفكيراً وتلميذ جبران قلباً وخيلاً وشعوراً ، وتلميذ نعيمة أدباً وتعبيراً ، وتلميذ صاحب نهج البلاغة بلاغةً وأسلوباً»^(٢) .

(١) أدباء من حلب - بقلم أحمد حسن الخميسي .

(٢) أدباء من حلب - بقلم أحمد حسن الخميسي .

بلغت أعماله المنشورة حوالي ثلاثين عملاً ، وبقي أكثر من عشرين عملاً مخطوطاً . وقد تنوعت أعماله ما بين المسرح والمقالة والقصة والرواية والشعر .

ففي المسرح: كتب أكثر من مسرحية كان يستلهم فيها القصة من الواقع الذي يعيش فيه فكتب مسرحية (هاروت وماروت) ضمنها أفكاراً يهاجم فيها التقاليد العتيقة والأفكار البالية التي لازال يعاني منها المجتمع . وفي سنة ١٩٣٣ ونتيجة لمعاناة البلاد من أزمة اقتصادية كانت تمر بها ومن تسلط الاستعمار والإقطاع كتب مسرحية (مدينة الجياح) التي وجه فيها صرخة قوية ضد الظلم الاجتماعي وما يعانيه الشعب من جور الإقطاع واستغلاله . ولم ينس الهنداوي أن يلامس القضية الفلسطينية التي هي جرح كل عربي يؤمن بعروبه فكتب مسرحية (طريق العودة) التي يحكي فيها قصة الشعب الفلسطيني وما يعانيه من ويلات الاستعمار والصهيونية ورسم فيها طريق العودة إلى فلسطين كما يراه هو .

ثم كتب مسرحية (الدم لا يصير ماء) وهي مستوحاة من صميم نكسة حزيران وما جرى للعرب فيها من ذل ونكسة . ودعا فيها إلى التشبث بالأرض وعدم التفريط بحبة رمل منها .

وله مسرحيات أخرى منها (سارق النار) و(زهرة البركان) وغيرها .

أما في مجال المقالات والدراسات الأدبية: فقد كتب الأستاذ خليل هنداوي الكثير من المقالات والدراسات الأدبية كانت تحمل في طياتها آراءه النقدية في الأدب والمجتمع . وهناك مقالات له في الطبيعة وصف فيها الطبيعة وجمالها والكون وما فيه من أسرار . وقد نشرت معظم مقالاته ودراساته في المجلات والصحف العربية .

وفي مجال القصة والرواية: فقد كتب الهنداوي روايتين هما (صفحة من

حياة باريس) و(إرم ذات العماد). وكتب أيضاً مجموعة قصصية هي (البدائع - الحب الأول، دمة صلاح الدين).

وترجم كتابي (البؤساء) لفكتور هيجو و(قصة مدينتين) لشارلز ديكنز، وكتب كذلك سيرة بعض الأدباء والشعراء أصدرها ضمن سلسلة الناجحون للناشئة في بيروت عن دار العلم ١٩٧٠ من مثل (المتنبي شاعر العرب) وغيرها.

وكتب كذلك سيرة بعض الأدباء الغربيين من مثل (فرانز ليست) و(شوبان) ونشر كذلك سيرته الذاتية.

وأراد أن يسهم في كتابة التاريخ العربي بأسلوب أدبي فأعد مجموعة كتب للناشئة عن أيام العرب فكتب عن (يوم البسوس) في جزأين و(يوم داحس والغبراء) و(يوم بدر) و(يوم أحد) و(يوم فتح مكة) و(يوم حنين) و(يوم القادسية) و(يوم اليرموك) وغيرها.

وكان يختم كل كتاب من هذه الكتب بحديث يستخلص فيه من هذه الأحداث العظة والعبرة للناشئة.

ولم يقف عند هذه الحدود بل راح يقتبس مختارات من بعض الكتب الأدبية المشهورة لكتاب كبار ككتاب (فيض الخاطر لأحمد أمين) اقتبس منه مختارات سماها (المقتبس من فيض الخاطر). وكذلك كتاب (وحي الرسالة) لأحمد حسن الزيات وسماه (المقتبس من وحي الرسالة).

ولم يسلم الشعر من نشاطه المتنوع فكان يدبج القصائد في كل مناسبة تحرك أحاسيسه ومشاعره. سُجلت تلك القصائد في كتابه (الأعمال الكاملة).

ونذكر له هنا بعض الأبيات من قصيدة (أنت وأنا)

أنا ذوب الحب طيباً وجنى	أيها السائل عني من أنا؟
يرحم القبح ويهوى الحسناء	أنا من أرسلت قلبي عاشقاً
وأدق الباب حتى تأذنا	سأناديك ولو ضاع الصدى
لن تراني حاقداً مضطغنا	كن كما شئت وخالف مذهبي
لا غنى كالحب في دنيا الغنى	مذهبي الحب وإيماني الهوى

* * *

عمر أبو ريشة

١٩٩٠ - ١٩٠٨

كانت ولادة شاعرنا في منبج عام ١٩٠٨ في المدينة التي أنجبت كبار الشعراء العرب فكانت موطن البحتري وأبي فراس وبين جدرانها تجول دوقلة المنبجي الشاعر المعروف . وانتقل صغيراً مع أبيه إلى حلب فدرس فيها الابتدائية ثم انتقل إلى بيروت فدخل فيها الجامعة الأمريكية سنة ١٩٢٤ ليتم دراسته فيها . وفي هذه الفترة العصبية من الزمن التي كانت تمر بها الأمة العربية كان الشعر العربي يغلي حماسة في صدور الشباب في الجامعات ، وكان الشباب يتأثرون بالأحداث العاصفة التي تمر بها المنطقة . فيرسلون شعرهم شواظ نار تحرق المستعمرين ، ويقف عمر أبو ريشة خطيباً وشاعراً وهو الشاب الذي لم يبلغ بعد الثامنة عشرة من عمره ويرسل قصائده النارية دفاعاً عن بلده وأُمته .

وَألف بعد ذلك مسرحية شعرية سماها (ذي قار) وجعلها في أربعة فصول ومناظر متعددة وكان موضوعها حول الحرب التي دارت بين العرب والفرس نتيجة ظلم الفرس للعرب وإهانتهم لهم فكانت معركة (ذي قار) استرداداً لكرامة العرب .

وقد قرأ الناقد (مارون عبود) هذه المسرحية فأشاد بها وأشاد بالشاعر الشاب الذي رأى في شاعريته عبقرية وتوثباً ينبآن بمستقبل عتيد لهذا الشاعر . يقول مارون عبود^(١) : « كان ذلك في حلب ، ومنذ بضعة عشر عاماً ، يوم سمعت بشاعر اسمه

(١) الشعراء الأعلام في سورية - د . سامي الدهان .

عمر أبو ريشة ، دلي عليه تلميذي يومئذ وصديقي فيما بعد الأستاذ أورخان ميسر ،
أثنى على صاحبه وسماه في ذلك الوقت شاعر الشباب ، وقدم لي تمثيلية نظمها الشاعر
الشاب عنوانها (وقعة ذي قار) فاستبشرت بما فيها من وثبات تدل على الشاعرية
العتيدة ، وصرت كلما وقعت على قصيدة له أقرأها وأرجو . . » .

و كثرت الدراسات حول المسرحية التي اعتبرها بعض النقاد في تلك الفترة^(١)
ديوان شعر بأكمله لما فيها من تنوع في موضوعات الشعر كالوصف والغزل والهجاء .
يقول في إحدى هذه المختارات :

أجدُ السلامة في الحمائل	تحت أنات الفصون
وحيال نهر جللت	مجراه أسجاف السكون
وإزاء واد زلزلت	أركانه كف القرون
وأمام قفر عصبت	فكيه أطمار المنون
وبقرب نبع مهمل	فد فُجرت منه العيون
وبمنزل ناء وحيـ	د ضل عنه القاصدون
هذي مواطن للسلا	مة من حسود أو خوون
أما إذا ما متَّ يا	قلبي فأسلم ما يكون

وهكذا نجد الرومانسية تقطر من أبيات شاعرنا فهو يحب السلامة كغيره
من شعراء الرومانسية الغربيين والمهجرين ، بل إنه يتمنى الموت لأنه أسلم ما
يكون ، فما سرّ هذا التشاؤم يا ترى .

ونجد الجواب في طبيعة شعر الرومانسية وشعرائها لأن الحزن يغلف نسيج
شعرهم وهم بفتوتهم وطموحهم وأحلامهم إذا ما اصطدموا بعقبات سرعان

(١) دراسة تحليلية لشعر عمر - حمدي كامل ، من كتاب الشعراء .

ما تنهار آمالهم وأحلامهم فيدخلون سراديب اليأس التي تسلمهم إلى أمنيات الزوال والموت .

ولكن الشاعر يتجاوز هذه المرحلة بسرعة وينتقل إلى إنكلترا لاستكمال دراسته الجامعية . إلا أنه لم ينقطع عن عالمه الذي وجد به (الشعر) فكان يرسل قصائد بين الفينة والفينة إلى حلب لتنشرها له مجلة (الجهاد) ويبدو أنه مال إلى التدين في إنكلترا بعد صدمة عاطفية أصيب بها فكتب مقالاً عنوانه «التبشير الإسلامي وأثره في بلاد الغرب» ذكر فيه تعلقه بالتصوف والحكمة وقضاء الله وقدره ، وتأثر بموت الشخصيات الإسلامية فكتب يرثي أحد علماء بيروت :

كرام العرب صبراً كل حي	سيثوي فوق ترب الهامدينا
وكل مصيبة مهما ادلهمت	على غير التصبر لن تهونا
تناسوا إمرة الديان إنا	إلى الديان يوماً راجعونا

ثم ينتقل إلى باريس فينقلب مزاجه وينطلق بفكر جديد وشعر جديد هو شعر المرح والحب واللهو والعبث ، فكأنه شخص جديد ولد في باريس وراح يتغنى بالحسان الغيد :

أفدي الحسان وأي صـ	ب لا يكون فداءهنة
اللينات قدودهن	المضمرات خدودهن
النافرات الوائبات	الناهدات نهودهن
المسيلات شعورهن	السود فوق نحورهن
الساحرات بطرفهن	وذاك أضعف ما بهن
اللابسات من الحياء	وروعة جلبابهن
ما سرن إلا والفؤاد	سرى وصفق إثرهن

و كأننا نجد في نفسه الشعري الجديد أصداء شعر عمر بن أبي ربيعة في قصيدة الجمال و كأنه موكل به .

وعاد عمر إلى حلب عام ١٩٢٣ وانخرط في الكفاح الوطني يناضل بشعره ضد المحتل حتى خرج المحتل من أرضه فاحتفل بخروجه من بلاده براءة شعرية سجل فيها مجداً شعرياً جديداً وسطر سطوراً من تاريخ نضال أبناء سورية في العصر الحديث . يقول عمر :

يا عروس المجد تيهي واسحي	في مغانينا ذيول الشهب
لن تري حبة رمل فوقها	لم تعطر بدما حرّ أبي
درج البغي عليها حقبة	وهوى دون بلوغ الأرب
وارغى كبر الليالي دونها	لين الناب كليل المخلب
لا يموت الحق مهما لطمت	عارضيه قبضة المغتصب
كم لنا من ميسلون نفضت	عن جناحيها غبار التعب
كم نبت أسيافنا في ملعب	وكبت أجيادنا في ملعب
من نضال عائر مصطخب	لنضال عائر مصطخب
شرف الوثبة أن ترضي العلا	غلب الواثب أم لم يغلب
هذه تربتنا لن تزدهي	بسوانا من حماة ندب

ولم يسلم حكام بلده بعد الجلاء من لسان نقده لأنه كان يرى في تخاذلهم عن القضايا القومية هدم لمجد الأمة العربية التي دأب كل حياته يناضل من أجل إعادة بناء مجدها .

تولى إدارة (دار الكتب الوطنية بحلب) مدة ثم عين سفيراً لسورية في البرازيل والأرجنتين وشيلي ، ثم سفيراً للجمهورية العربية المتحدة في الهند والنمسا وبقي ينتقل في سفارات بلاده إلى أن اعتزل العمل الدبلوماسي واستقر في المملكة العربية السعودية حتى وفاته عام ١٩٩٠ .

شاعريته:

أخضع عمر أبو ريشة الشعر لجبروته الفني وتابع طريق أستاذه وصديقه (الأخطل الصغير). فكان شعره يحوي كل ما اختزنه عقله من ثقافة حواها ذلك العقل الجبار. وفي سني فتوته وفتحه الشعري يؤمن بالعروبة إيماناً مثالياً ولكنه ما لبث أن تحطم على صخرة اليأس من هذه الأمة التي مزقتها المصالح الشخصية الفردية ففجر ذلك الألم في نفسه وثار على واقعه وغادره إلى الطبيعة هرباً من هذا الواقع.

كان عمر أبو ريشة أكثر شعراء جيله إغلاً في التجديد. ولندع شاعرنا نفسه يحكي لنا طريقته في التعبير الشعري.

يقول عمر: «هنالك أدوار متباينة النزعات مرّت عليّ وتركت في حياتي الأدبية أثرها العميق. أحببت في أول نشأتي شعر البحري وأبي تمام وشوقي وأضرابهم، لأن أساتذتي -سامحهم الله- كانوا يغرقون في امتداحهم، ولا يشحذون لساني إلا بشعرهم، فكم رقصت طرباً عند سماعي:

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

وكم أخذ المعلم يشرح ما بهذه القصيدة وبأمثالها جناس وطباق واستعارة إلى آخر ما هنالك من (الأعيب) بيانية، حتى خيّل إليّ أن القصيدة التي لا تضم شيئاً من هذه الأعيب ليس لها قيمة، وتحت تأثير هذا الرأي أخذت أنظم وأذكر مطلع قصيدة قلتها في هذا النحو:

سلاها ما الذي عني ثناها وقلبي في التناهي ما سلاها

ولم أكتف بهذا بل تعدّيته وأخذت أعارض بائية أبي تمام وسينية البحري تلك التي عارضها ونشرها في مجلته في الأسبوع المنصرم شاعر لبناني يدعو

الناس إلى التجديد: . . وإني إن استفدت شيئاً من هؤلاء فإنما استفدت اللغة والتراكيب، أما الفكرة الشعرية فقد خبا دونها خيالهم الكسيح، وسيعطيهم هذا الجيل الناهض ما يستحقون! .

سئمتُ هذا الشعر وهذه الزمرة من الشعراء، فعدت أبحث في كتب الأدب عليّ أجد ما أروي به ظمئي فعثرت على شعر جيد مبثر هنا وهناك كأبيات لأبي صخر الهذلي القائل:

وما هي إلا أن أراك فجاءة فأبهت لا عرفٌ لدي ولا نكرُ

وأبيات لعبدة بن الطبيب، وابن زريق البغدادي، والوليد الأموي، والأسدي، وهذا الأخير هو صاحب القصيدة الرائعة:

نأت دار ليلي وشطّ المزارُ فعيناك ما تطعمان الكرى

ثم ساعدني الحظ فسافرت إلى إنكلترا لإتمام دراستي فشغفت بشعراء كثر كشكسبير، شيلي، كينس، بودلير، بو، موريس، هود، ملتن، تنسون، وبراونينغ. وقيمتهم عندي تتراوح حسب الحالة النفسية التي أكون فيها.

ففي حزني لا أردد إلا مرثية (غراي) وفالتشر، وفي مرضي لا أردد إلا أبيات (ت. تنسون) المعروفة، وفي الليالي الحمر لا يمر على بالي غير أوسكار وايلد، وفي ذكرى حبي البكر لا تمر أمام عيني غير تلك الصور التي صاغها شكسبير في قصيدته (فينوس - أدونيس) التي أراها أروع ما أنتجه الفكر البشري في هذا الموضوع. . وهكذا، فإن لكل شاعر أثراً لا يزول من نفسي، ولكنه أثر يزيد أو ينقص. . وهناك شعراء لهم شهرتهم الواسعة أمثال هوغو، كبلنغ، ميسفيلد، لامرتين، ولكنني لا أحبهم ولا أميل إليهم.

غير أن أحب الشعراء إليّ اثنان هما بو، وبودلير، اللذان صرفتُ الساعات

الطوال في مطالعة آثارهما ، فهما أشبه بلولب صور في حانوت رسام ، كيفما حر كته وجدت صوراً جديدة تختلف كل صورة عن أختها كل اختلاف ، وفي كل منها رمز ينقلك من أفق إلى أفق ، فلا تشعر بملل ولا تحس بتعب . وأما من ذكرت من الشعراء فإن كلاً منهم أشبه بلوح متقن الوضع فاتن الرمز ، تكاد تنطق ألوانه وتشف الحياة من خلالها ، فلا يقف المرء أمام هذا اللوح معجباً به كل الإعجاب ثم لا يلبث أن يفتش عن لوح آخر . هذا ما انتحلته من العذر في حبي الشديد لبودلير وبو ، في هذه الأيام ، ولكن ألم أنتحل عذراً أوسع حجة عندما كان (براوننغ وتنسون) كل شيء في نظري في العام الماضي؟ إنني أخاف أن يأتي ذلك اليوم الذي لم تعد تحب فيه نفسي غير شعر الحياة الصامت»^(١) .

لقد كشف لنا عمر بلسانه عن تجربته الشعرية التي تنقل فيها من عشق لشعر القدماء أول أمره وكان نتيجة ذلك أن اكتسب مفردات اللغة وتراكيبها وتمكن من ناحيتها تمكناً جعله يدقق فيها فيترك ما رآه غير صالح لشعره وتمسك بما يخدمه في توجهه الشعري الجديد . ولقد وعى عمر جيداً أن الشعر العربي المعاصر يجب أن لا يكون عالة على شعر القدماء أو تبعاً لهم بل ينبغي أن ينطلق من إيسار التقليد إلى عالم الإبداع الرحب فيكون بذلك قريباً لشعر الغرب الذي سبقه في هذا المجال . ووجدنا في حديث عمر الذي أوردناه أنه لم يقف عند شاعر معين بل راح يقبس من كل شاعر ما يؤيد هوى في نفسه وفي رؤيته للشعر فأسس لنفسه عالماً شعرياً خاصاً .

ولم يكن عمر شاعراً يتأرجح بين الأمل واليأس أو الحزن والفرح بل هو أبعد من ذلك وأعمق إنه الشاعر بكل عالمه الواسع وانفعالاته الحساسة التي تفجرها المؤثرات الطارئة التي تحيط به . إنه يستلهم من أصغر الأشياء وأحقرها كما يستوحي من أخطرها وأعظمها مادة يصوغ منها خياله ألواحاً وصوراً مبتكرة ، ومهما تكن الصورة الشعرية التي يتناولها شاعرنا مطروقة فإنه بخيالاته والألوان والظلال التي يحيط بها صورته يحلق بها في عالم جديد لم يعرفه أحد قبله .

(١) الشعراء الأعلام في سورية - د . سامي الدهان ، ص ٣٢٠ .

فشعر عمر أبي ريشة لقطات تصويرية إبداعية نسجها خيال شاعري قوي واكتبه
العاطفة. ولعل هذا سر أساسي من أسرار العناصر الجمالية التي يتمتع بها شعره، ففي
كل قصيدة مشاهد خيالية متلاحقة. وحين تكتمل تبرز مثيلاتها، أما نفثاته في (عيد
الجلاء) فتصور عقب الهدى، وتهادي مواكبه، وتهايوي البغي، وارتماء غطرسة
الاستعمار وكبرياته المزيف، وتغني الدنيا بالمرءات العربية يقول في (عرس المجد):

يا عروس المجد تهي واسحي	في مغانينا ذبول الشهب
لن تري حبة رمل فوقها	لم تعطر بدماء حرّ أبي
درج البغي عليها حقبة	وهوى دون بلوغ الأرب
وارمى كبر الليالي دونها	لين الناب كليل المخلب

ثم يتغنى ببطولات الرسول الكريم الذي ملأ الكون عدلاً وسماحة ونبلاً:

من هنا شق الهدى أكامه	وتهادي موكباً في موكب
وأتى الدنيا فرقت طرباً	وانتشت من عبقة المنسكب
وتغنت بالمرءات التي	عرفتها في فتاه العربي

لقد ترددت أصدااء هذه الرائعة الشعرية في بلاد الشام، وتغنى
بسحرها المنشدون في المحافل الحماسية والمناسبات القومية لما فيها تصوير
ممتزج مع العاطفة.

ولقد أحس الدكتور شوقي ضيف بقوة المادة التصويرية عند عمر أبي
ريشة فوقف عندها ورأى أنه في هذه الصور يذكّرنا بشعراء بارزين في الشعر
العربي كان لهم هذا السبق وبخاصة في العصر العباسي أمثال أبي تمام وابن
الرومي. اللذين خرجا على تقاليد الشعر الموروثة نسجت الأشباح والظلال
والألوان في شعرهم.

يقول د. شوقي ضيف في كتابه (دراسات في الشعر العربي المعاصر):

«وما أرتاب في أن أبا ريشة أحد شعرائنا المعاصرين الذين استطاعوا أن يديروا هذه الآلة إدارة حسنة، فإذا شعره مجاميع من أطياف وأشباح، وكأنما له من اسمه حظ، فهو يرسم بريشته لوحات كبيرة، تلمع فيها خطوط الاستعارات وألوانها وظلالها، وكأن روح أبي تمام القديمة بعثت ثانية فيه، وهي لم تبعث وحدها، بل بعثت أيضاً روح ابن الرومي، وأضاءت على الروحين أقباس غربية، ومن شعر المهاجر الأمريكي. ولعل ذلك ما يجعل ديوانه متعة حقيقية، بما يصوغ فيه من مشاعر وتأملات، فالشعر عنده ليس صوراً فارغة، وإنما هو صور مليئة بالأفراح والأحزان، مع الإحساس الدافق بالعروبة والإسلام».

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن عمر أبا ريشة ليس من الشعراء الذين ينطوون على أنفسهم مبتعدين بأحلامهم عن شعوبهم وتاريخ أمتهم وطموحها وآلامها بل يراه «ممن يندمجون في محيط أمتهم، يحملون تاريخها وآمالها وكل ما تسعى إليه من خير ومجد في صدورهم ولا يلبثون أن يذيعوه في شكل تعاويد يريدون أن يرقوا بها أمتهم، ويعثوا فيها روحاً من عند الله وحياة شامخة كالأطواد».

وصور أبي ريشة ليست صوراً ضعيفة واهمة ولا هي صور كسيحة لا تجري في فضاء الخيال بل هي صور حية معبرة لها دلالات ومعاني عميقة.

يقول عمر:

أنا من أمة أفاقت على العزِّ وأغفت مغموسة في الهوان
عرشها الرث من جراد المغيرين وأعلامها من الأكفان

ففي هذين البيتين يعبر عمر عن بؤس بلاده في ظل الاحتلال الفرنسي،

هذا البؤس الذي يستنفر النفوس لتندفع تائراً ضد هذا المحتل الغاشم من نير الاحتلال البغيض .

وليست اللغة التصويرية هي كل ما نلمحه في شعر عمر أبي ريشة بل نلاحظ كذلك أنه يحيل الحقائق التاريخية إلى صور مثيرة تؤثر في عواطف القارئ والسامع لأنه يعرف كيف يستثمر حقائق التاريخ كما يعرف كيف يستثمر حقائق عصره .

فهذه القدس تناجيه كي يستحث خطا الأمة لتقف وقفة الأسود في وجه الاستعمار وأطماع الصهيونية . وتستيقظ العاطفة في صدر عمر وتظهر المعاناة صادقة في شعره وينطلق صوته الشجي مستنهضاً همم الرجال لاستعادة الضلوع الغضة في القدس والتي تعضها عقارب الفساد . وفي مثل هذه المواقف تشتد مواجد الشاعر فيتحدث إلى الأمة العربية عن المآسي الجماعية في فلسطين ، وجلود الثعالب التي لبسها المحتلون :

ما بلغنا بعدُ من أحلامنا	ذلك الحلم الكريم الذهبي
أين في القدس ضلوع غضة	لم تلامسها ذنابي عقرب
وقف التاريخ في محرابها	وقفة المرتجف المضطرب
ما لأبناء السبايا ركبوا	للأمانى البيض أشهى مركب
ومن الطاعى الذي مدّ لهم	من سراب الحق أوهى سبب
أوما كنا له في خطبة	معقل الأمن وجسر الهرب
يالذلّ العهد أن أغضي أسى	فوق صدر الشرف المتحجب

إنها المأساة التي حاقت بفلسطين صورها الشاعر أروع تصوير وزاد من سحر تصويره ذلك التعبير الرومانسي عن الأحران التي يحس بها العرب وتشاركهم الطبيعة هذا الإحساس بمحنتهم وآلامهم . وكذلك كان استخدامه للتعبير الجديدة في لغة

الشعر والتي لم نجد لها مثيلاً عند أساطين الشعر القديم أضفى عليها مسحة من الجمال
الحزين المؤثر وبخاصة عندما تنبعث من القصيدة أصوات الحزاني وأتات الشكالي ودموع
اليتامى وموات النخوة وسيطرة الأصنام وعباد الدرهم^(١) على كل شيء في البلاد .

اسمعي نوح الحزاني واطربي	وانظري دمع اليتامى وابسمي
ودعي القادة في أهوائها	تفاني في خسيس المغنمي
رب (وامعتصماه) انطلقت	ملء أفواه البنات اليتيم
لامست أسماعهم لكنها	لم تلامس نخوة المعتصم
أمتي كم صنم مجذته	لم يكن يحمل طهر الصنم
فاحبسي الشكوى فلولاك لما	كان في الحكم عبيد الدرهم

وتزداد عواطفه اشتعلاً حين يرى أحد جنود الأمة يحكم بالإعدام ويعدم
أمام ناظره فيبارك هذا الجرح ويرى في هذا الجندي كبش فداء لأمته وشعاع
الأمل الذي سيبتسم للأمة كلها بعد ما يزول الاحتلال:

أيها الجندي يا كبش الفدا	يا شعاع الأمل المبتسم
ما عرفت البخل بالروح إذا	طلبتها غصص المجد الظمي
بورك الجرح الذي تحمله	شرفاً تحت ظلال العلم

وإذا تساءلنا عن دور المرأة في حياة وشعر عمر وجدنا أن المرأة عاشت في
حياة عمر بكل عطرها وشذاها وطيبها فخاض معها معارك وهمية في خياله وفي
حياته أيضاً فكان له معها انتصارات تركت على هيكله الشعري قصائد مشيرة
كانت كالأساطير في ملاحم الحب والهوى وخلفت في قلبه وجسده جراحات
عميقة وسما شاعرنا بريشته البارعة .

(١) المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر - د. نسيب نشاوي .

ففي ديوانه الأول أدخلنا حانة تحت الأرض فيها السكارى والعشاق من
خلال مسرحية له اسمها (الطوفان) وراح يحدثنا على لسان العاشق بأن الحياة
جميلة فراح يشرب ويطرب ويغني للحسن فيقول:

كم مرتع بتنا به	والليل حاك عليه برده
ولكم أذعتُ إليه وجدي	في الهوى وأذاع وجده
وكم اتكا فوق الزهو	ر ومدّ لي باللفظ زنده
حتى إذا طوقته	أدميتُ بالقبلات خده

ونراه في أبياته هذه مادي حسي ولكنه ينتقل بعد ذلك إلى رسم لوحة بارعة
في الغزل يقول فيها:

عصرت المنى على شفتي	فسالت نعيماً على أضلعي
عرفت بك الله بعد الضلال	فدل البديع على المبدع
أغنيك حبي وهذا الوجو	دُ ضحكك الشايبا يغني معي

وهكذا فإن عمر عندما يتغزل بالمرأة يتركها دائماً مجللة ببرقع الحياء،
ولو أنه يخرج في بعض الأحيان عن هذا الطريق الذي رسمه لنفسه ففي إحدى
قصائده في الجزء الثاني من ديوانه وهي بعنوان «عُرْيُهَا» يتغزل بفتاته ويتمنى أن
تتعرى لأن عريها أجمل:

أنافي خدر من أهوى	أراقب كل ما تفعل
غطاء سريرها ملقى	وراء حذائها مُهمَل
ومئزرها على الكرسي	لا يطوى ولا ينقل
وأغلها يللم في	ضفائر شعرها المرسل
ولما أزيّنت خلعت	عليها بُردها الأفضل

وماست وهو مزهو	يحيط بقدها الأمثل
وقالت: كيف تلقاني	به يا شعري الأول
فقلت: وطرفي المشدوه	من آلائها ينهل
جميل لبس من أهوى	ولكن غزيبها أجمل

وهو في حبه للمرأة يتدله فتارة هو المعشوق وتارة هو العاشق يشد على قلبه
ويأبى أن يقوده:

يقول في قصيدة (حسي):

لك ما أردت فلن أسائل	كيف انتهت أعراس بابل
حسي مررت بخاطر النعمى	هنيئات قلائل
كم قلتها: لك ما حيث	وكم ختمت بها الرسائل
أنا ما حقدت على الشفاه	ولا عبت على الأنامل
لك ما أردت فلن أغير	وتركت للطير السنابل

وتتنازع الشاعر مشاعر متناقضة حول المرأة بعد تجربته معها فهي ليست
الملاك الذي كان يتصوره بل هي أنوثة وجسد له نوازعه ورغباته وهذا ما يجعله
يصاب بالحيرة فنراه أحياناً يقدسها وأحياناً أخرى يصفها شهوانية تقودها الرغبة .

ونخلص في حديثنا عن عمر أبي ريشة إلى أنه كان شاعراً متميزاً بنكهة
أصيلة تجعله يتميز عن غيره من الشعراء أمثال المتنبي وشوقي والأخطل الصغير
وغيرهم .

وأهم ميزة يتميز بها كما رأينا هي مقدرته الفائقة على التصوير . ذلك
ما نجده في جانب من جوانب شعره ولذلك نستطيع أن نقول إن التصوير أساس

فنه ، لأنه يرسم صورهِ بريشة يدِ صنّاعِ ماهرة تعرف كيف تضم الخطوط والألوان والأضواء والظلال بعضها إلى بعض .

وبعد هذا فهو عمر أبو ريشة الشاعر الذي تغنى بأمجاد أمته فغضب وثار عندما أذلها الاستعمار واشتد به الغضب والحنق بعد ما أصيبت أمته بهزائم ونكبات على يد (إسرائيل) وراح يستنهض همم الشعب العربي ليدافع عن كرامته . لقد جاهد عمر بشعره أحسن الجهاد وصور فأبدع وفتح أفقاً جديداً للشعر العربي أصبح بعد ذلك مذهباً سار في طريقه كثير من الشعراء .

* * *

عادل الغضبان

١٩٠٨ - ١٩٧٢

عادل الغضبان هو أحد أعلام الأدب والصحافة في الوطن العربي . حلبي الأصل مصري الموطن والنشأة والإبداع . ومع ذلك فإن عادل الغضبان لم ينس أنه ابن حلب وأن هذه المدينة العريقة تجري في عروقه مجرى الدم . فهو لا يفتأ يتذكرها أبداً وفي كل مناسبة .

وفي قصيدة له أرسلها إلى الشاعر الحلبي عبد الله يوركي حلاق ونشرها الحلاق في كتابه (حلبيات) أظهر فيها حبه لمدينته ورأى أنها شمس النجوم التي تتلألأ في سماء المجد والخلود . يقول الغضبان:

نُثِرْتُ على جنباتك الشهبُ	فدعيت بالشهباء يا حلبُ
تتألق الدارات فيك سنى	ويشعُ فيها الصخر والخشب
ووراء كل دويرة فلك	أجرى به أقماره الأدب
وبكل شغب منك أروقة	للمال يسرح بينها الذهب
وبساحة الهيجاء كم بطل	لك خلده البيض واليلبُ
إن تفتخر بمجيدها أمم	فبمثل مجدك يفخر العربُ
نسجته كف الشمس من حسب	يهفو إلى لآلئه الحسبُ
سطعت سطوع الفجر جدته	وزهت بحر تليده الحقبُ

والغضبان من أسرة حلبيه مشهورة وهو ابن حكمت الغضبان شقيق الياس وقريب حكمت زوج الأدبية المشهورة مريانا المراه ، فهو يمت بصلة النسب إلى آل المراه أيضاً . نرح صغيراً إلى مصر ، وتلقى علومه في معهد الآباء اليسوعيين بالقاهرة ، واشتغل فترة غير قصيرة في التدريس ، فدرس العلوم اللسانية والبلاغة والأدب في المعهد بعد أن تخرج منه ، ثم اشتغل في الصحافة ، وكان يترجم لكبريات الصحف المصرية ما تكتبه صحافة الغرب من مقالات وآراء في السياسة الدولية ، وبالأخص ما له صلة بالوطن العربي .

يتميز الشاعر عادل الغضبان بشخصية جذابة وأسلوب ناصع وإحساس شاعري مرفه .

كان غزير الشعر وخاصة في المناسبات الاجتماعية والوطنية . فمن شعره الوطني قصيدة يندد فيها بالغرب ويصرخ فيه طالباً منه أن يكف عن طغيانه وجبروته وإفساده لشعوب الشرق فيقول :

كفالك يا غرب طغياناً ومفسدةً	ورميكَ الشرق بالويلات والحرب
في كل يوم ترينا الغدر في صور	جديدة لونت بالبغي والشغب
هذي فلسطين مازالت مضرجةً	أرجأوها بدم في الله منسكب
شردت أبناءها ظلماً وسقتهم	إلى الردى عصباً تلقى على عصب
فلا الآذان ولا الناقوس يسمعا	وحي الهدى في الإسلام والصلب
نسجت فيها ستور الحزن فانسدت	على المآذن والدارات والقبب
جل في الخرائب تسمع في حجارتها	أنين محتضر أو نوح متحجب
وأنت أنت أصم القلب تنفر من	صوت الجراح ولا تصغي إلى رغب
ولغت في دمها ثم انشيت إلى	مراكش بدم في فيك منسرب
تنوشها بالنيوب الزرق مرهقة	وتنشب الظفر في الأعناق واللب
تولي وتعزل لا مقتاً ولا مقة	لكن حفاظاً على الأنفال والسلب

وتشبع الحق غمزيقاً وتدفعه	وراء مظلمة الأجداث والترب
وتبعث الفتنة الهوجاء مضطرباً	سعيها وتذكي النار بالخطب
فليس في بلد في الشرق معتصب	بالمجد أو راسف في قيد متدب
إلا وفي أيكـه أو تحت سندسه	منافث السـم من حياتك الرقب
فاظلم وجروازه بالسلطان معتسفاً	وحكم السيف وأشر البطل بالذهب
فعدل ربك آت في جحافله	يديل منك ويحبو الشرق بالغلب

ونرى من خلال هذه القصيدة ومن قصائده الكثيرة التي نثرها من خلال الصحف أن شاعرنا يتميز برشاقة العبارة وأناقتها وعلى جمال الأسلوب وكان يحرص دائماً على تصيد المعاني الجديدة وسكبها في قالب عربي صميم ونظن أن حياته في مصر ومشاركته في الجو الأدبي فيها تركت أثراً واضحاً في تكوين ثقافته الأدبية.

وفي شعره الوجداني نلمس هذه الشفافية في التعامل مع مفردات اللغة والبساطة في تناول الأفكار. لنستمع إليه وهو يحدثنا في قصيدته بعنوان (تحت الكرمة):

يا ليل فاستر علينا سر خلوتنا	واترك نجومك طي السحب تحتجب
وغيب البدر إن البدر يفضحنا	ولا تدع نسمات الصبح تقترب
ما كل يوم يوافيني الحبيب ولا	في كل يوم ينال الوصل مرتقب
أتت إلي تناجيني وقد غفلت	عين الرقيب فلا عذل ولا عتب
تسير سافرة حيناً وتحجبها	حيناً عن النظر الأوراق والقضب
جاءت توصلني في كرمة سترت	غرامنا وتدلى فوقها العنب
نمر من تحتها الركبان منشدة	فيقطع العود من أنفاسنا الرهب
حتى إذا ابتعدت عنا أواخرها	عدنا بنفس عنا اللهو واللعب

نطوف بالكرم تحمينا عرائشه
ليل قضيناه في سحر وفي سحر
لم نصح من غفلة كانت تحيط بنا
يا صبح فرقتنا من بعد خلوتنا
ويكتم الوقع من أقدامنا العشب
يرضى به الحارسان الطهرو الأدب
إلا على عبرات الفجر تنسكب
ياليت لم تنقشع عن وجهك السحب

وفي قصيدة أخرى يصف البخل وصفاً رائعاً فكأنه رسام يرسم لوحة
جميلة كاريكاتورية للبخل يذكرنا بالشاعر العظيم (ابن الرومي). يقول فيها:

قَتَلَ الْبَخْلُ إِنَّهُ ظَفَرٌ وَحْشٍ
لَوْ تَبَدَّى مَجْسَماً لَرَأَيْنَا
هَيْكَلٌ مِنْ دِمَامَةٍ وَمُحَيَّا
وَذِرَاعَانِ مِثْلَ طَوْلِ الْعَوَالِي
وَفَمٌّ شَقٌّ وَاسِعَ الشَّدَقِ دَامَ
وَخَطِي لَا تَرْوَحُ إِلَّا لِنَكْرٍ
هُوَ رَأْسُ الْأَذَى فَلَوْلَاهُ مَا ثَا
إِنَّمَا الْجُوعُ كَافِرٌ إِذَا مَا
وَلْظَى مَارِجٌ وَسُمْ أَرَاقِمُ
صُورَةٌ مِنْ مِقَابِحٍ وَمِثَالُ
مِنْ بَثُورٍ وَأَعْيُنٍ مِنْ ضَرَائِمِ
فِي أَظَافِيرٍ مِثْلَ حَدِّ الصَّوَارِمِ
وَلِسَانٌ مَلُوثٌ بِالْمَآثِمِ
وَلَوْ أَنَّ الثَّرَى بَسَاطُ جَمَاجِمِ
رَ فَقِيرٌ وَلَا اسْتَحَلَّتْ مُحَارِمِ
طَارَ بِالرُّشْدِ صَارَ مِعُولٌ هَادِمِ

تولى الشاعر الأستاذ عادل الغضبان رئاسة تحرير مجلة «الكتاب» فكانت
كتاباتة فيها مثار إعجاب الأدباء والقراء معاً لما تتمتع به من أناقة العبارة وبلاغة
الأسلوب، وكانت له آراؤه السديدة من خلال الدراسات التي كان يقوم بها
عن الشعر المعاصر.

وقد جعل الأديب الأستاذ عادل الغضبان من مجلة الكتاب منبراً عالياً
للأدب الرفيع فكانت المجلة ساحة أدبية مفتوحة لكل أعلام الشرق والغرب
وفتح للنقد صفحات واسعة فأدى بذلك للثقافة العربية أعظم خدمة وأشرف بعد
احتجاب مجلة الكتاب على الجانب الفكري والأدبي في دار المعارف التي كانت

من أوسع دور النشر توزيعاً وانتشاراً في الوطن العربي ولكن كل هذه المناصب التي تبوأها لم تخفف من غزارة إنتاجه الأدبي في كل اتجاهات الأدب النثرية والشعرية والترجمة.

ومن أهم مؤلفاته النثرية بالإضافة إلى الشعر:

- ١- أحسن الأول وهي تمثيلية فرعونية وطنية.
 - ٢- ليلي العفيفة: قصة الشمم والحب والمروءة في البادية العربية قبل الإسلام.
 - ٣- الشيخ نجيب الحداد: دراسة ظهرت في سلسلة نوابع الفكر العربي.
 - ٤- ترجمات عديدة لقصص عالمية من مثل:
 - أ- دون كيشوت.
 - ب- مملكة البحر.
 - ج- سجين حصن زندا.
 - د- الأمير والفقير.
 - هـ- الزنبقة السوداء.
- توفي الشاعر الكبير الأديب عادل الغضبان في القاهرة عام ١٩٧٢ ودفن فيها.

* * *

عبد الله يوركي حلاق

١٩١١ - ١٩٩٦

كالنهر المتدفق عطاء وخصوبة كان عطاء الحلاق شيخ الشعر وكبيره في النصف الثاني من القرن العشرين . كان شعره يملأ الأرجاء في كل مناسبة صغيرة كانت أم كبيرة يحنو على الجميع وتمتد أبوته حتى ليشعر بها البعيد قبل القريب
يؤاسي الضعيف ويحاول جهده إنقاذه من ضعفه ولا يقبل بالظلم أبداً فقد وقف طويلاً في عهد الظلم والاستبداد أيام الحكم الفرنسي وهو صغير يرفع صوته عالياً مندداً بالاحتلال حتى أنه كان عضواً قيادياً في الحزب الوطني في حلب أيام كان الحزب في أوج نضاله ضد الاستعمار .

هذه صفات شاعرنا وأديبنا الموسوعي عبد الله يوركي حلاق التي جعلته يتبوأ منذ صغره المكانة المرموقة بين أدبائنا وشعرائنا .

لقد كان الأستاذ عبد الله يوركي حلاق من الأدباء الذين آمنوا بدور الكلمة في الحياة وتأثيرها في المجتمع ، فحمل قلمه نبراساً مضيئاً يضيء للناس سطور الفكر العربي ويرشداهم إلى واحاته الظليلة التي كان ينشدها في التاريخ العربي قديمه وحديثه فيقطف تلك الثمرات الشهية من فاكهة بستان العروبة وأدبها ويطعمه للمتذوقين من الأدباء .

ولقد خاض في حياته ميادين كثيرة في مجال المعرفة وأبدع فيها حتى أطلق عليه لقب الأديب الموسوعي .

ففي الصحافة: خاض هذا الميدان منذ بواكير حياته فسعى إلى إخراج مجلة الضاد التي اقترنت به قريناً لازمه طيلة حياته وكانت معشوقته التي لا يرتضي عنها بديلاً. وعندما لم يتسنّ له إخراجها باسمه (لصغر سنه) أخرجها باسم زميله الكبير الأستاذ يوسف شلحت، وكان ذلك عام ١٩٣١. واستمر ذلك إلى عام ١٩٣٤ عندما استرد امتيازها فعادت إليه شريكة لحياته شكلاً ومضموناً. وقد جاء في مقدمة العدد الأول من مجلة الضاد ما يشير إلى أن الفكرة فكرة أستاذنا الحلاق. فقد كتب الأستاذ يوسف شلحت يقول:

«طالما عللنا النفس بإنشاء مجلة تكون سميراً للقارئ في وحدته، وأنيساً له في أوقات فراغه، ومتعة يظفر بها بعد متاعب النهار ونصب الأعمال»^(١).

ومما قاله في هذه المقدمة بعد ذلك: «هذا ولما كان من العدل أن نعطي لكل ذي حق حقه، فإننا نشني على همة الأديب السيد عبد الله يوركي حلاق الذي كان المحرك الأكبر لهذا العمل، فإنه مازال يزينا لنا بمنطقه الخلاب حتى أقدمنا عليه بعد الإحجام، ولهذا فقد جعلناه اليد اليمنى، ووكلنا إليه إدارة الأمور».

ومنذ أن استقل بقيادتها وإدارة دفتها راح يسهر عليها تأليفاً وجمعاً وإخراجاً حتى أصبحت جزءاً من روحه وكنا نشهد في هذه المجلة روح اللغة العربية في أصالتها العربية القديمة كما نشهد إلى جانبها روح التجديد والمعاصرة في كافة المجالات النقدية والإبداعية.

وعندما بلغ ابنه الأستاذ رياض السن المناسبة لاستلام العمل الإداري في المجلة أسند إليه إدارتها فتعهداها رياض بالعناية والرعاية كما فعل أبوه بل ضاعف جهوده حتى ثبت لأبيه أنه خير خلف لخير سلف. وفعلاً كان الابن استمراراً جيداً بل ممتازاً للأب (والجميل أيضاً أنه ورث عنه شاعريته أيضاً، وسنقف له عند بعض قصائده في مدينته التي أحب... حلب).

(١) مجلة الضاد العدد ١-٢-، ١٩٩٨ من مقال الأستاذ محمود فاخوري.

ولأنه الصحفي الجاد النشط الذي ملأ أفق الصحافة والأدب بنشاطه الجم فقد أصبح عضواً في اتحاد الصحفيين ، وعضواً في اتحاد الكتاب العرب وفي اتحاد الجمعيات الخيرية في محافظة حلب ، وكذلك في كثير من الجمعيات الإنسانية والأدبية (لأن تلك الجمعيات كانت تتسابق لضم الأديب الحلاق إليها ففي وجوده شهرة لها ومنفعة كبيرة لنشاطاتها).

أما في مجال الأدب: فقد كان الأستاذ عبد الله يوركي حلاق صاحب القامة العالية في هذا المجال أيضاً فهو الشاعر الذي ملأ دواوين عديدة في حبه لوطنه وعروبه وبخاصة مدينته حلب التي لم تفارق خاطره أبداً فقد كانت تسكن عقله وروحه أينما ذهب.

فلنستمع إليه وهو يث الشهباء حينه وهو بعيد عنها في مونتريال بكندا:

متى أراها، فمني الصبر قد نفدا	إني حننت إلى الشهباء يا كندا
وعن صحابي يذيب الروح والجسدا	ما كنت أحسب أن البعد عن وطني
أنني سأشرب من ماء الفرات غدا	أبيت في المهجر النائي على أمل
في عالم عن هدى الإيمان قد بُعدا	أرى بناءً ولكن لا أرى ورعا
ومارداً تحت أقدام الزنى سجدا	حضارة شوّه الإلحاد روعتها
فمنهم لا نرى في حيناً أحدا	رفاقنا خلف آفاق النوى احتجبوا
لكم نثرنا على آفاقها كبدا	هذي البلاد التي رادوا مجاهلها
على دروب الندى الرواد والشهدا	حسب العروبة فضلاً أنها تركت
وقد أضعنا هنا أبناءنا الجددا	ضاعت أوائلنا في ألف مغرب
يا رب يا رب بارك ذلك البلدا	أتيت من بلد كالمسك تربته
واحفظ بنيه فهم عون لمن قصدا	واجعل غيوث الرضى تسقي مرابعه
بذلت عمري لم أبخل به أبدا	الضاد فاتتني من أجل نهضتها

جاهدت حتى بلغت القصد من هدي	الحمد لله ما ضاع الجهاد سدى
في عثرة الضاد كان الله يعصدي	وكان كل كريم النفس لي سندا
وقال من يعرف الإخلاص في أدبي	تعادل الضاد من أولاده ولدا
ولي هنا ولدٌ يجترُّ وحدته	كأنه الطبي عن أترابه شردا
وددت لو حرصت عيناى مضجعه	لتحتويه حنايا الصدر إن بردا

فهو يقرن الضاد بأولاده، فهي عالمه وأسرته وأولاده. وفي حفل غنائي أقيم له في مدينة نيويورك عام ١٩٨٢ أبدع المطرب في إنشاد القدود الحلبية فارتجل شاعرنا هذه الأبيات:

لما شدوت لنا حال الهوى طربا	يا حلوزدنا غناً ذكرتنا حلبا
أبلبل صدحت في الروض نغمته	أم أتملُّ فوق أوتار النهى لعبا
أدر كتوساً بخمر الفن مترعة	تُرخ بفنك قلب الصب إن تعبنا
وناد يا ليل إن الليل منسجم	مع الغناء وناج الأنجم الشهبنا

وفي زحلة تذكر «حلبه» فراح يتغنى:

حننت إلى ربي حلب	حنين الطير للوكر
فسيري يا مطايا الشوق	سيري بي مع الفجر
وروي مقلتي الظمأى	إلى ينبوعي الثر
فلولا الأم في حلب	قضيت بزحلة عمري

ولم تكن حلب معه في غربته فقط بل كانت تسكن قلبه وعقله وهو في
أحضانها فهو يصفها وصف عاشق متيم:

جثم الجلال على رباها	والتبر لألاً في ثراها
والحسن صافح أهلها	وبثوبه الزاهي كساها
تستشق الأرج الزكي	إذا نشقت شذا هواها
قد شعشت فيها الفنون	وموكب العلم اصطفاها
واختارها الأدب الرفيع	فزادها شرفاً وجاهاً
حلبٌ مقرُّ النابغين	يشع في الدنيا سناها
فيها الكرامة رغم لؤم	الدهر لم نفصم عراها
فيه الجنان الزاهرات	تدلل لعاني جناها
والفستق الغيران يحكي	في جوانبها الشفاها
يختال فوق غصونه	كعرائس لبت حلاها
لما أطلَّ البدر شقت	كل فستقة رداها
ورنت إلى بدر الدجى	فأعارها البدر انتباها
وتبادلا الحب البريء	ولست أدري ما عراها
وتعانقافكأما	أم يعانقها فتاها
حلبٌ نمت إلى العلا	نسباً كما مئت ذراها

رَقَّتْ شَمَائِلُ أَهْلِهَا	فَسَرَتْ نَسِيمًا فِي رُبَاهَا
هَذَا بِمِيزَانِ الْعِزْمَا	زَالَتْ تَشِيرُ إِلَى حِمَاهَا
أَبْنَاؤُهَا فِي كُلِّ قَطْرِ	يَحْرَصُونَ عَلَى عِلَاهَا
فَكَأَنَّهُمْ لَا يَرْضَوْنَ	مِنَ الْحَيَاةِ سِوَى رِضَاهَا
شَاخَ الزَّمَانُ وَقَلْعَةُ	الشَّهْبَاءِ ظَلَّتْ فِي صِبَاهَا
وَمَضَتْ عَلَى التَّلِّ الْأَشْمِ	فَرَوَّعَتْ أَقْوَى عِدَاهَا
كَمْ قَائِدٍ قَدْ عَادَ عَنْهَا	خَائِبًا مَلَابِلَاهَا
وَتَرَجَعَتْ عَنْهَا النُّسُورُ	كَأَنَّهُاتُ خَشْيِ أَذَاهَا
وَالدَّهْرُ نَازِلُهَا فَمَا	ذَلَّتْ وَلَا وَهَنْتْ قَوَاهَا
إِنَّ الْمُلُوكَ الصَّيْدَ تَحْتَ	بِرُوحِهَا خَفَضُوا الْجِبَاهَا
سُئِلَ الْخُلُودُ بِمَنْ تَبَا	هِيَ قَالَتْ بِالشَّهْبَاءِ وَتَاهَا

هذا غيض من فيض شعر الحلاق في حلب وحبه لها وكذلك هو في كل ما يمت إلى وطنه وعروبه جبل أشم راسخ كالطود لا يقبل أن يتعرض هذا الوطن لأي أذى وعندما يحصل ذلك فإنه ينطلق مارد شعر يدافع بكل قوته عنه . فهو الإنسان الوحيد الذي لا يرتضي عن وحدة أمته بديلاً .

روحي فداء عروبي	وفداء وحدة أمتي
وفداء رايتنا العزيرة	في سماء العزة
أنا صادق الإيمان أو	من بانتصار قضيتي
التبر أرخص من ترا	بك يا عرين عروبي

وفي قصيدته «كوكب العروبة» يشيد بأطفال الحجارة في فلسطين ويأمل
بنصر قريب يحقق حرية هذا الشعب الأبي:

في القدس شعب أعزل لكنما	اجتازت بسالته الجهات الأربعا
إن الحجارة بين أيديه غدت	مثل السهام، وكم تحدى مدفعا
من قال إن القدس أغلق بابها	إننا سنفتحه وندخله معا
القدس يرجعها اتحاد قلوبنا	فلتتحد منا القلوب لترجعا

ونراه في قصيدة أخرى لا يفقد الأمل بفجر يشرق على أمتنا ووحدة نرقبها
طويلاً تتحقق رغم الصعوبات والمعوقات:

لا يقنطنُ معذبٌ من راحة	ليل فجرٍ مشرق ونهار
بالوثبة الكبرى ووحدة يعرب	نمحي الحدود وتكسر الأنيار
وشابنا رمز الإباء فسائلوا	عنهم ففي شفة العلا أخبار
في كل جندي شجاعة خالد	وبكل بيت خولة وضرار

وهو إلى جانب ذلك رجل ملأ حب الإنسان قلبه فقد كانت الصفات
الكريمة تزين كل حياته. فهو المحب لكل الناس المسامح الكريم والنفور من
التعصب (وبهذا يذكرنا بالشاعر المهجري الكبير إيليا أبو ماضي).

واسمع على لسانه أبياتاً يعبر فيها عن صفاته النبيلة تلك:

أحببت كل الناس نبع محبتي	ثر وودي للصديق متين
ونذرت نفسي للعطاء وسرني	أني أجوع ليشبع المسكين
أستاذي القرآن أعرف فضله	وأقر أني للحديث مدين
رتلت أي المجد باسم محمد	فالمجد باسم محمد مقرون
ورأيت وحي الله في آياته	وعرفت قلب الصخر كيف يلين

وإنسانيته شاملة واسعة فهو يفيض بحبه وعطائه على الفقير والغني
ولكن الفقير يخصه بجانب من روحه ويرى الإحسان إلى الفقير عطاء يهدي
إلى الإيمان:

أعط ما اسطعت الفقيرا	واجبر القلب الكسيرا
إنما الإحسان زهر	ملا الروح عبيرا
فاعل الإحسان يحيا	ناعم البال قريرا
وجهه يطفح بشرا	كلما أعطى فقيرا
إن أدنى الناس سلطان	إذا أرضى الضميرا

هذا هو الحلاق دائما فيض محبة وعطاء للآخر من روحه وقلبه وماله .

ولقد ترك لنا أدينا الكبير مؤلفات كثيرة في كل جوانب الأدب شعره
ونثره فمؤلفاته المطبوعة بلغت سبعة عشر مؤلفاً ، أما غير المطبوعة فقد تجاوزت
العشرين . وهناك مؤلفات لازالت تحت أسنان المطبعة . وسنعرض أسماء المؤلفات
لنطلع على موسوعية هذا الأديب العبقرى الفذ .

مؤلفات الأستاذ عبد الله يوركي حلاق:

- ١- المنذر ملك الحيرة أو وفاء العرب (مسرحية) ١٩٢٩ .
- ٢- ميت يتكلم (تمثيلية في خمسة فصول) ١٩٣٠ .
- ٣- الزفرات (مجموعة قصص قصيرة) ١٩٣٣ .
- ٤- في حمى الحرم (رواية طويلة) ١٩٣٥ .
- ٥- وضوح الإملاء (كتاب مدرسي طبع ٣ مرات ١٩٤٦ - ١٩٤٨
- (١٩٥١) .

- ٦- خيوط الغمام (شعر) ١٩٤٢ .
- ٧- قصص الميلاد (مجموعة قصص) ١٩٥٠ .
- ٨- حصاد الذكريات (شعر) ١٩٦٦ .
- ٩- سفراء بدون تكليف رسمي ١٩٧١ .
- ١٠- من أعلام العرب في القومية والأدب ١٩٧٧ .
- ١١- قطاف الخمسين (مجموعة مقالات) ١٩٨١ .
- ١٢- حلييات ١٩٨٣ .
- ١٣- عشت مع هؤلاء الأعلام ١٩٨٨ .
- ١٤- عصير الحرمان (شعر) ١٩٩٠ .
- ١٥- الثورات السورية الكبرى في ربع قرن ١٩٩٠ .
- ١٦- أسديات (شعر) مهدي للسيد الرئيس حافظ الأسد ١٩٩٣ .
- ١٧- الحلبيون في المهجر ١٩٩٤ .

والمؤلفات قيد الطبع:

- ١- شعراء عرفتهم .
- ٢- الحلبيون في الوطن العربي .
- ٣- ذكريات .

- ٤- رسائل إلى الأدباء.
- ٥- أهازيج الروح (شعر).
- ٦- كلمة ومعنى.
- ٧- أغاني الوحدة (شعر).
- ٨- بين الشعر الأصيل وشعر الحداثة.

* * *

عمر أبو قوس

١٩١٣ - ١٩٨١

يعتبر الشاعر عمر أبو قوس من الشعراء الذين ظلمهم تاريخ الأدب فلم يدرجوا في كتاب الشعر إلا على هوامشه ، مع أن هذا الشاعر يكاد يضاهي كبار الشعراء في العصور القديمة والحديثة في أسلوبه المتين وعبقريته الشعرية الوقادة .

إن العمق الإنساني الذي نلمسه في شعره وشعلة الحب النورانية التي يفيض بها قلبه على الناس لتجعله من كبار شعراء الإنسانية في هذا العصر .

ولد الشاعر عمر أبو قوس في حلب سنة ١٩١٣ من عائلة معروفة في تصوفها و كانت تنسب في طريقة تصوفها إلى الطريقة الشاذلية .

و كان أبوه محمد أبو قوس يعمل في العطارة ولكنه كان عصامياً بنى نفسه بنفسه ، فقد كان في بداية حياته أمياً لا يتقن القراءة والكتابة ، ولكنه ثقف نفسه بنفسه وتعلم القراءة والكتابة ، ثم طور قراءاته حتى صار يطالع كتب الفلسفة والأدب وكتب التصوف أيضاً ، بل إنه سجل كثيراً من التعليقات على حواشي تلك الكتب ، وهذا ما جعله يدخل باب المعرفة بشكل واسع ، حتى أنه نظم بعض الشعر الصوفي وغني في إذاعة حلب .

كما أنشأ جمعية خيرية ترعى الفقراء والأيتام سماها (جمعية التضامن الخيري) .

نظم عمر أبو قوس الشعر الموزون وهو في سن الرابعة عشرة مما يدل على تفتح موهبته الشعرية في سن مبكرة .

تلقى علومه الابتدائية في (المدرسة العربية الإسلامية) وكان مديرها الأستاذ (عبد القادر الشوا) قومي التوجه مما أثر في شاعرنا وجعل نفسه تتأجج حماسة للعروبة والإسلام .

انتقل بعد ذلك إلى المدرسة العلمانية الفرنسية حيث تعلم الفرنسية ثم طرد منها مع رفيقين له بسبب قيادتهم مظاهرات الطلاب ضد الاحتلال الفرنسي .

انتقل بعد طرده من المدرسة الفرنسية إلى المدرسة الفاروقية ليكمل دراسته فيها ثم أكمل دراسته الثانوية في التجهيز الأولى (ثانوية المأمون حالياً) في حلب فكان أحد كبار الخطباء الوطنيين إذ أنه ينتمي إلى (الكتلة الوطنية) التي يتزعمها المناضل إبراهيم هنانو .

وحصل على الثانوية السورية (البكالوريا) عام ١٩٣٣ ، ثم عين معلماً عام ١٩٣٤ وبقي في مهنة التعليم حتى عام ١٩٤٦ ، نقل بعدها إلى ملاك وزارة الداخلية بناءً على طلبه وعين في ديوان المحافظة فمديراً للمطبوعات والإذاعة . ثم مدير ناحية وبقي في هذا المنصب حتى عام ١٩٥٩ عندما سرح من الخدمة .

بعد خروجه من الخدمة عمل في الزراعة فأنفق أمواله وأموال زوجته فيها ولكنه خسر كل ما يملك فانعكس ذلك على نفسيته وشعره كثيراً .

ولأنه لم يرزق بولد فإن ذلك أثر على حياته فكان حزيناً مكلوماً كثيراً . فسافر إلى الكويت عام ١٩٦٤ سعيّاً إلى العمل كي يخرج من هذا الجو الذي أصبح فيه ولكنه عاد صفر اليدين وراح يرسل همومه وأحزانه ويصور لواعج قلبه في قصائد رائعة . وكان يجلس في أغلب الأوقات بين كتبه وأوراقه في بيته وأحياناً يجلس في المقاهي يدخن نرجيلته ويحلم بوفاء ديونه وطفل يحيي حياته^(١) .

(١) أدباء من حلب - فواز حجو .

أعماله:

كتب الشاعر عمر أبو قوس قصائد عديدة صدرت في عدة دواوين هي
على التوالي:

١- حروف من نار (شعر الجهاد الوطني السوري) - مطبعة طباخ إخوان
- حلب - تموز ١٩٤٦ .

٢- وحي الليل ، صدر عام ١٩٤٨ .

٣- العيون الخضراء ، مطبعة الشرق حلب ١٩٦٣ .

٤- جراح قلب ، طبع مع غيره من المجموعات .

٥- ديوان عمر أبو قوس . ويحتوي المجموعات الشعرية الثلاث "وحي
الليل - العيون الخضراء - جراح القلب" ، طبع مكتبة البنفسجي حلب ١٩٧٠ ،
وقد قدم لهذا الديوان الدكتور كمال زبيده .

٦- بعض أشعاري - حلب ١٩٧٤ ، المطبعة الحديثة .

٧- هذا طريقنا وهذا قائدنا (نثر سياسي قومي) بالاشتراك مع نديم جلال
درويش ، صدر عام ١٩٥٩ عن مطابع دار المنار ، ويتحدث الكتاب عن
الجمهورية العربية المتحدة وقائدها جمال عبد الناصر من خلال المنظور القومي
الذي يحمله الشاعر .

لغة عمر أبي قوس الشعرية:

اتصفت لغة الشاعر عمر أبي قوس بالبساطة في تناول مفردات الشعر عنده
وبعمق الفكرة التي يتناولها ، وقد ارتفع في بعض قصائده إلى مستوى يكاد
يكون عالمياً .

لقد تميز شعر عمر أبي قوس بصدق العاطفة وتأججها وتميز بإشراق الديباجة ومتانة الأسلوب والإيجاز في طرح فضول الكلام ، كما تميز وصفه بالدقة والبراعة في التحليل النفسي والسرد القصصي وكذلك كان تصويره بارعاً وكان خياله الشعري متألقاً . وقد اعتبره الأستاذ الأديب حسيب حلوي^(١) في مقدمة كتبها عن الشاعر من أعظم شعراء العرب قديماً وحديثاً .

وإذا ما تفحصنا شعره فإننا نجد أنه يتناول مثلاً شخصية الشيطان بشكل مختلف عن الشعراء الآخرين بل إنه يتناول شخصيته في كل قصيدة بشكل يخالف القصيدة الثانية . ففي القصيدة الأولى التي سميت بـ "الشيطان" رسم الشاعر للشيطان شخصية محببة (ونظن أنه يقصد شيطان الشعر) فبدا الشيطان هنا وفيّاً وودوداً وناقداً عليماً بأسرار الجمال وفيه كل الصفات المحببة للنفس ، فهو:

تعهد به بالعلم إبليسُ جدّه فقرّبه عينا وباهى وماجدا

وعلى هذا نرى الشاعر يهب له قلبه فيصبحان خليلين بعد أن أصفى الشيطان الشاعر الهوى:

وهبت له قلبي فأصفاني الهوى خليلين إنسياً وأمرد ماردا

وفي القصيدة تتعدد مهام الشيطان ومن أهم تلك المهام إحياء الشعر له وتبصيره به والثانية يدلّه على الجمال ويعرّفه بالجماليات . يقول الشاعر:

سأشكر شيطاني الوفي وإن عتا

وأوردني في حب ليلي الموارد

وما كان شيطاني غيباً فيصطفي

سواها ولكن المعياً وناقدا

(١) أدباء من حلب - فواز حجو .

يبصرني بالشعر والسحر والهوى

ويمنحني مما يحوك القصائد

أما دلني يوماً عليها وقادني

إليها وأغواني وما كنت راشدا

عليماً بأسرار الجمال محكاً

خبيراً بما يرضي الحسان الخرائدا

فيكشف أسرار الوجود وحسنه

ويلقي بهامابين شعري فرائدا

وهكذا نجد الشاعر يقدم صورة طريفة للشيطان التي لا نشك أنها صورة
لشيطان الشعر الذي يلزمه كما لازم الشعراء قديماً (كما يقول شعراء العرب
الجاهليون).

أما في قصيدة (بين ملاك وشيطان) فإن الشاعر يقدم شخصية الشيطان
بشكل مختلف عن الشخصية الأولى. فهو هنا الشيطان الذي يوسوس له أنواع
الغواية وهو قرين الفساد عكس الملاك الذي يقدم له النصيحة والحريص على
هدايته ويدعوه إلى الحب الطاهر (إلى حيث أرواح المحبين تلتقي):

إلى حيث أرواح المحبين تلتقي ويغمرها نور من الله باهر

وبالإضافة إلى متعة التصوير التي امتلكها شاعرنا عمر أبو قوس فقد امتلك
روحاً إنسانية عالية فقلبه يمتلئ حباً لكل الناس:

أحب الناس من دان ونائي وأفرح بالحياة وبالضيء
وتعمرني السعادة حين ألقى وجوه الناس تطفح بالهناء

وها هو قلبه ينوء بحبه الكبير ويعجز عن اتساعه فيفيض بهذا الحب على
كل من حوله:

وأعجز عن مدى حي كائي إناء ضاق عن رحب الفضاء
ويشعر بالفناء وهو يحمل حبه ولكن هذا الفناء يقوده إلى الكمال:

فأشعر بالفناء يقود حي كأن تمام حي في الفناء
وإنسانيته العالية جعلته يتعاطف مع كل المحتاجين والمعذبين:
وآسي للجياع وللحزاني ومن يشكون من داء عياء
وما تلقى ملاين الضحايا من البأساء ظلماً والشقاء

وحتى الحيوان له نصيب من الألم عند شاعرنا:

وللحيوان تظلمه البرايا بلا ذنب جناه ولا اعتداء

ويتفاعل مع نداء المعذبين فيتعذب لشقاء الناس:

يعذبني شقاء الناس حتى

لأحمل فيهم همأثقيلاً

كأني وحدي المسؤول عنهم

ليهديهم إلى النور السبيل

وأسمع من قلوبهم نداء

خفياً أن أكون لهم ذليلاً

وتتكرر معاني الحب الإنساني في قصائده فهو يحب الناس جميعاً وهم
يبادلونه حبه بحب وييدي نحوهم إلفة ومعرفة كأنه يعرفهم منذ زمن بعيد كما
في قصيدة (سكينة):

أحب الناس من قلبي جميعاً

فألقاهم ويلقوني ببشر

لكل منهم معنى فريد

أحسن جماله الباهي بصدري

كأننا قد تعارفنا قديماً

وعاد لقائنا من بعد هجر

وحتى القبح أبصر فيه حسناً

غريباً جل عن وصفٍ وحصر

وفي مكان آخر نرى أن الشاعر يرى نفسه أباً روحياً للناس جميعاً حتى ولو
أنكر أبوته الناس جميعاً:

أنا ذلك الولد المحب أبوكم

أفتنكرون أبوتي وذمامي

ما جئت أسألكم ولكن جئتكم

بدمي وكل صبابتي وهيامي

ومددت مائدتي لهم فتضاحكوا

مني وعافوا خمرتي وطعامي

وفي المرحلة الأخيرة من مسيرة حياته يصبح أكثر تعقلاً ويعذبه ضميره
حين يفكر بحب امرأة متزوجة فيفضل التراجع بعد أن يفكر بوصالها:

عزمت على وصل الحبيبة صبو

وكدت ولم أفعل وفاء لحبي

أخفصها من بعد طول سموها

بعيني أم أبغي هواناً لربها

ومالذة أحظى بهائم أكتوي

بنار عذاب النفس أو طول كربها

أنزها والحب عما يشينها

وأطلب منها البعد حباً بقربها

وما هو إلا خير خل عرفته

حريصاً عليها كافلاً كل إربها

أفارقها والنفس تقطر حسرة

عليها وقلبي واله مثل قلبها

أما في ديوانه (جراح قلب) فإنه يرسل رسائل حب إلى حبيبته بلغت سبع
رسائل أرسلها إليها وهي في دمشق وهو في حلب:

روحي على الشام ما تنفك حائمة

شوقاً إليك وفي الشهباء جثماني

كأنها طائر غابت أليفته

قطار في الجو يدعوها بتحنان

ويشكو إليها في رسائله الحب الذي يكاد يهلكه بل إنه يصل إلى حد أن
يقترح على الموت أن يعطيه قلبه لعله يشعر بما فيه من نار الحب فيكف عن قسوته
وعسى أن تدخل الرحمة والإحساس بالحب والجمال أحاسيسه:

سأعطيك قلبي مرة إن أردته

عساك به حيناً من الدهر تشعر

فتعشقها عشق الحب حبيبه

وتتركها تزداد حسناً وتبهر

وعيني كي تلقى الحياة جميلة

وتبصر منها ما أراه وتبصر

وهكذا فإن شاعرنا عمر أبا قوس قد تقلب في أحضان الشعر طويلاً فلم
يترك باباً من أبواب الشعر الجميلة إلا طرقه ، وكان باب الإنسانية أوسع أبواب
شعره انفتاحاً وتوسعاً فكان شاعر الإنسانية والحب بحق .

* * *

عمر بهاء الدين الأميري

١٩١٦ - ١٩٩٢

عمر بهاء الأميري اسم حفر في ذاكرة التاريخ العربي السوري بحروف من ذهب . فقد كان هذا الرجل يتمتع بمزايا عديدة تجعله في مصاف أعلام القرن العشرين . فهو الشاعر الذي لامس بشعره أحاسيس الناس من خلال النفحات الإيمانية التي كان يرسلها عبر قصائده ، وهو السياسي الذي تقلد المناصب العديدة ومثل بلده فيها خير تمثيل ، وهو الجندي الذي شارك في الدفاع عن القدس مع جيش الإنقاذ . وهو المحامي الذي أسهم في تأسيس حركة (سورية الحرة) ، وهو الأستاذ الذي جاب الأقطار العربية أستاذاً زائراً يلقي المحاضرات في جامعات المغرب والسعودية والإمارات وباكستان وتركيا وغيرها .

ولد الشاعر عمر بهاء الدين الأميري في حلب سنة ١٩١٦ ونشأ في مدينته التي أحبها طيلة حياته فدرس فيها الابتدائية والثانوية ، ثم ارتحل إلى فرنسا فدرس في جامعة السوربون في باريس الأدب وفقه اللغة .

ثم درس الحقوق في الجامعة السورية في دمشق . ثم تحول بعد ذلك إلى التدريس فدرس علوم الاجتماع والنفس والأخلاق والتاريخ في حلب ودمشق ، وتولى بعد ذلك إدارة المعهد العربي الإسلامي في دمشق .

والتفت بعد ذلك إلى المحاماة فمارسها في نقابة المحامين بحلب وشارك في بعض مؤتمرات اتحاد المحامين العرب .

وقد شارك (كما ذكرنا) في الدفاع عن (القدس) وشارك في جيش الإنقاذ خلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .

أما في الجانب السياسي فقد مثل سوريا وزيراً ثم سفيراً في عدة دول منها باكستان والسعودية ، ثم سفيراً في وزارة الخارجية وكان في مهامه السياسية خير ممثل لدولته لما يتمتع به من ذوق في العبارة وحسن تصرف ولباقة دبلوماسية .

دعي إلى المغرب عام ١٣٨٦ - ١٩٥٥م أستاذاً للكرسي الإسلام والتيارات المعاصرة في جامعة القرويين في الرباط ، واستمر في عمله مدة خمسة عشر عاماً وتنقل في تدريسه بين جامعات القرويين ومحمد الخامس وجامعة قطر .

عمل أستاذاً زائراً ومحاضراً في جامعات الرياض والإمام محمد بن سعود والملك فيصل والملك عبد العزيز في السعودية ، كما عمل أستاذاً زائراً في جامعة الأزهر والجزائر والكويت وعديد من جامعات الأقطار العربية والإسلامية .

أما آثاره الأدبية فقد أصدر أكثر من ثلاثين ديواناً شعرياً وكتاباً ، وترجمت بعض قصائده إلى لغات عديدة .

لغة عمر بهاء الأميري الشعرية:

تنوعت لغة عمر بهاء الأميري الشعرية فقد خاض في عدة اتجاهات شعرية كان أهمها الاتجاه الديني الذي تميز فيه بل إنه وجه الشعر الديني اتجاهاً تأملياً ذاتياً لم يعرف قبل ذلك فهو يسبح مع الله في فكره وفي مشاعره ومع نبض قلبه وحبه بل مع حياته كلها^(١):

(١) أدباء من حلب - فواز حجو .

مع الله في سبحات الفكر	مع الله في الخلجات الآخر
مع الله في رعشات الهوى	مع الله في لمحات البصر
مع الله والقلب في نشوة	مع الله والنفس تشكو الضجر
مع الله في سبر كنه الوجود	وروح الحياة وسر القدر
مع الله في وحي قرآنه	مع الله في آيه والسرور

مع الله في الفيض من قدسه	ينير بصيرتنا والبصر
فنبصره جلّ من خالق	بآلائه البارعات الغرر
ونحيابه ثم نفنى به	فنحيا ونحيا ونحيا الدهر

وتمضي القصيدة على هذه الوتيرة بقية أبياتها التي تصل إلى خمس وخمسين بيتاً فتكرر اللازمة (مع الله) ويمضي في سرد تأملاته وخواطره فيها بكل بساطة ولكنه يطرح في مفرداتها تأملاته في الوجود التي تجعل المفكر في معانيها يستغرق في عالم من الوجد والتسامي في ملكوت الله عزّ وجلّ .

وفي قصيدة ثانية نراه يكرر تأملاته في الوجود ويرى من خفايا الخلود ما يجعله ينتشي ويكبر هذا الوجود الرائع للخالق العظيم:

تأملت في كنه هذا الوجود	وغصت على كشف أسرارهِ
فجبت الوهاد وطففت النجود	وجلّت بأجواء أنوارهِ
وفكرت في نحسه والسعود	وفي خيريه وأشـرارهِ
وإذ كاد يعرف شعوري الجمود	ويشيه عن سبر أغوارهِ
تألاً لي من خفايا الخلود	شعاع فصحت بإكبارهِ

أما في قصيدة «أسر الحياة» فإننا نرى فيه تساؤلاً لم نجده في قصائده

الأخرى فهو هنا بدأ يتساءل عن الغيب ماذا وراءه ويحار في رؤاه ولا يدري ماذا يفعل فيقول:

رباه قد ضج الألم	والكون نام ولم أنم
الواقع المضي الممض	يجرني نحو الظلم
ومناي ترقى في السماء	ومتطي النجم الأشم
وعوالم الغيب البعيد	تلوح كالحلم الأصم
أنا لست أدري خلف هذا	الدرب ماذا قد جثم
ووراء آكام الغد المجهو	ل أي أسى ألم
وأنا رهين توحيدي	أحيا على هم وغم
والله لولا الله والط	بع العيوف لما يذم
للزمت دار توحيدي	حتى أسربل بالعدم

ولكنه في النهاية يستسلم للقضاء والقدر بعد أن يكون قد عجز عن محاولات التطلع إلى عالم الغيب وأسرار الوجود. يقول في قصيدة «غلق»:

يا ربي أنت الذي أوجدت من عدم

ذاتي وألقيتني في عالم البشر

فلست أعلم من سري ومن قدري

إلا بمقدار ما أعطيت من قدر

وكيف يعبر خلف الأفق بي بصري

حتى أراك، وقد أجمت من بصري

ودون رؤياك أحيا العمر في غلق

من التظني، وقد أنساق في وطري

ولكن شاعرنا لم يغلق نفسه وشعره على الجانب الديني في تفكيره وشعره
بل أعطى ذاته ووجدانه حيزاً من شعره لا بأس به .

ففي قصيدة (عزلة الأحرار) يطلق ذاته من عقالها ليعبر عن تمرده على الواقع
الذي يعيش فيه وأنه يأنف من الغوص في توافه الأمور ويدخر نفسه لعظائمه:

قالوا اعتزلت فقلت: صنت كرامتي

ولزمت في رهج الزحام إبائي

لاءمت بين تصرفي وسجيتي

وحفظت حق الله والعلياء

وذخرت نفسي للعظام صابراً

وطويت عن ذل الصغار ردائي

قالوا: ومعتزك الجهاد فقلت: هل

أضحى الجهاد تهاتف الغوغاء

قالوا: اعتزلت؟ فقلت عزلة رابض

متحفز للوثبة الشماء

إني لأرجو أن أحاول صادقاً

في صوغ ذاتي من تُقى ومضاء

لأكون في الجلى إذا الداعي دعا

سهماً يصيب مقاتل الأعداء

ما عزلة الأحرار إلا عزّة

والصبر كل الصبر في الأواء

وكذلك كان الاتجاه الجمالي في شعره يظهر واضحاً من خلال تصوير الطبيعة بطريقة جمالية غير تقليدية:

لُحْنَنٌ وروعةٌ في دبيب العزم

لم يبق ذا حياة بداره

ماج منه الوادي بروح مُطل

من كوى الفجر خافق في إطاره

لابس بهجة الصباح ووهج الماس

والدّر في اتضاح نهاره

فاتقاد النشاط في ساكنه

كاتقاد الحياة في أطيّاره

ورفيف الفراش والنحل يحكي

دأب النمل جَدَّ في تسيّاره

ومر النهار في نصب السعي

ويبدو المساء خلف أستاره

في امرار كخد بيضاء ورد

حجبت بالشغوف من جلناره

وكأنني بالشمس غارت من الوادي

وقد لاح زاهياً في خماره

ثم ألقى عباءة الليل عنه

فتبدى الجمال بعد استتاره

ثم أضحى تهتز في جانبه

خطرات الحياة رغم وقاره

هذه القصيدة التي تصور إطلالة الفجر وإشراقه النهار وتصور صراعاً يقوم بين الشمس والوادي يضيء على الوادي الروعة والجمال ساعة الغروب تعطينا صورة واضحة عن طبيعة هذا الشاعر الصافية المتعطشة للجمال والحب الإنساني والوجد الإلهي .

توفي الشاعر عام ١٩٩٢ .

آثار الشاعر:

١- مع الله - مطبعة الأصيل - حلب ١٩٥٩ ، وطبع في بيروت طبعة ثانية ١٩٧٢ .

٢- ألوان طيف - المكتب الإسلامي - بيروت ١٩٦٦ .

٣- الهزيمة والفجر - دار البيان - الكويت ١٩٦٨ .

- ٤- ملحمة الجهاد - دار البيان - الكويت ١٩٦٨ .
- ٥- الأقصى وفتح والقمة في ذكرى الإسراء والمعراج - الدار البيضاء ١٩٧٠ .
- ٦- أشواق وإشراق - دار القرآن الكريم - بيروت ١٩٧٣ .
- ٧- ألوان من وحي المهرجان - وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية - المغرب ١٩٥٧ .
- ٨- ملحمة النصر - دار القرآن الكريم - بيروت ١٩٧٤ .
- ٩- أمي - دار الفتح - بيروت ١٩٧٨ .
- ١٠- أب - دار القرآن الكريم - بيروت .
- ١١- صفحات ونفحات - مؤسسة الزمن - عمان ١٩٨٤ .
- ١٢- أذان القرآن - مؤسسة الأمة - عمان ١٩٨٥ .
- ١٣- لقاءان في طنجة - تاريخ وفكر وشعر - الدار البيضاء ١٩٨٦ .
- ١٤- نجاوى محمدية - دار القبلة - جدة ١٩٨٧ .
- ١٥- حجارة من سجيل - شعر وفكر وسياسة - دار الثقافة - الدوحة - قطر ١٩٨٩ .
- ١٦- الزحف المقدس - دار الضياء - عمان ١٩٨٩ .
- ١٧- قلب ورب - دار القلم - دمشق ١٩٩٠ مع الدار الشامية بيروت .

١٨- إشراق (شعر) - دار القلم - الكويت ١٩٩٠ .

١٩- رياحين الجنة - شعر في الطفولة والأطفال - رابطة الأدب الإسلامي

١٩٩٧ .

٢٠- من وحي فلسطين - شعر وفكر .

* * *

مختار فوزي النعال

١٩٢٦

هو بحر من بحار العلم نحاول اليوم أن نرسو على شاطئه . هذا العلم الذي يشع بريقه في أفق المعرفة قضى شطراً كبيراً من حياته (التي نرجو الله أن يحيطه فيها بالصحة والعافية وطول العمر) ، وهو يزرع غراس المعرفة في رياض العقول .

وقد أفلحت جهوده فكان نتاجه جملة من الكتب التي أشرقت بنور الفكر والإيمان .

وليس من المبالغة القول إن شخص المختار يجسد النشاط والحركة والحياة بكل معانيها وأن حياته تنبض بالثقافة والفكر ، ويبدو أن حياة الجيش كان لها الكثير من الإسقاطات على نشاطه وبنيته الجسدية التي أكسبتها قوة وحيوية .

ولنعد الآن إلى حياة أدينا وصديقنا الأستاذ مختار ، فقد بدأ حياته في اعزاز حيث ولد عام ١٩٢٦ وهناك تعلم القرآن في كتاتيبها ثم انتقل إلى المدرسة الابتدائية فأكمل دراسته فيها وبعد ذلك انتقل إلى حلب وتابع دراسته فيها حتى حصل على الشهادة الإعدادية في ثانوية التجهيز الثانية عام ١٩٤٤ ، وبعدها عمل مدرساً في عين العرب عاماً دراسياً كاملاً وانتقل بعد ذلك إلى مدينة حلب فعين معلماً في مدرسة الوفاق فيها . ولم يكمل مسيرته في التعليم فالتحق بالجيش العربي

السوري فعمل فيه ضابطاً وشهد أثناء ذلك حرب حزيران ١٩٦٧ وكان آنذاك في القنيطرة فاضطر للنزوح عنها وانتقل مرة ثانية إلى حلب ليعمل متعاقداً مع الجيش ورئيساً لمكتب المراسم والشهداء في المنطقة الشمالية. ثم أُحيل إلى التقاعد عام ١٩٧٩. وكان قد درس أثناء خدمته في الجيش وحصل على الثانوية وانتسب إلى جامعة بيروت العربية ونال شهادة الليسانس في الأدب العربي عام ١٩٦٥.

لقد عرفت في الأستاذ مختار صديقاً صدوقاً وأخاً قلَّ أن يجود الزمان بمثله ينصحك فيخلص النصيح لك، ولا ينتظر منك أن تطلب منه مساعدة في أي عمل أدبي أو إنساني إلا ويسارع إليك قبل أن تسرع إليه. لقد تعلمت منه أن الصداقة لا تصنع صناعة بل تولد مع الروح فالأرواح جند مجنّدة.

ولقد أُلح الأستاذ مختار منذ نعومة أظفاره بالمطالعة فقرأ كتباً كثيرة ومتنوعة وصقل موهبته الأدبية وطوّر معرفته. فكان يكتب الموضوعات الإنشائية الأدبية. وفي الجيش كان يكتب المقالات الأدبية وينشرها في الصحف والمجلات الأدبية والاجتماعية آنذاك من مثل (مجلة الجندي ومجلة الدنيا وغيرها.).

وبدأ رحلة الكتابة مبكراً فألف مجموعة شعرية بعنوان (نزوات) كتب فيها الشعر بالأسلوب الثري وطبع المجموعة في دمشق عام ١٩٤٦ وكتب مقدمة المجموعة له (كما يذكر الأستاذ أحمد حسن الخميسي) الشاعر بدر الدين الحامد. وقد جاء في هذه المجموعة:

فتحت الجفن فجنحتني

وعلوت وعلوت

وهويت بنجم إلى أجمة الظلام

لأحيي الرموس بنوره

خبا النور، ولم يُجدِ النجم

فأربأت

ولما حاولت السمو

بكيت الجناح المهاض

وقد كان الأستاذ مختار يتابع الحركة الأدبية في الأربعينات عبر الصحف والمجلات ويقرأ ما ينشر فيها من دراسات أدبية ومقالات ، وقد جرت معه قصة طريفة يرويها لنا فيقول: «في الأربعينات من القرن العشرين نشرت مجلة الرسالة المصرية قولاً للدكتور طه حسين جاء فيه: (أما بعد . . فإننا نبحت منذ زمن بعيد عن مدينة ضالة في الصحراء يقال لها (إرم ذات العماد) . وإننا لنتنظر من أدبائنا أن يصوروها لنا تصويراً أو يخترعوها اختراعاً) . فاستجاب الأستاذ المرحوم خليل هنداوي لهذا النداء وأصدر كتيباً صغيراً سمّاه (إرم ذات العماد) . وأثبت في مقدمته كلام الدكتور طه حسين السابق . وأهدى هذا الكتاب إلى طه حسين قائلاً: (إلى الذي يعمل ويسره أن يعمل الناس ، إلى الدكتور طه حسين)» .

ويتابع الأستاذ مختار النعال قائلاً: «قرأت كتاب إرم ذات العماد لخليل هنداوي ، فلم أجد فيه ما يحقق رغبة الدكتور طه حسين خيلاً أو تصوراً أو اختراعاً ، فأطلقت لخيالي العنان ورحت أتصور (إرم ذات العماد) مدينة تظهر كل مئة عام مرة في الصحراء ، ولكنها لا تلبث إلا يوماً أو بعض يوم ، وفي ذات مرة -يوم ظهورها- رآها رجلان تائهان في الصحراء فاستأنسا بها وظنا أنها مأهولة بالسكان ، فقصداها لعلهم يأنسون بأهلها ويلجأون إليهم فلما دخلا المدينة لم يجدا فيها أحداً فقال أحدهما للآخر: يا الله ما أجمل هذه المدينة!! . . ثم تناولوا مما كان معهما من طعام ، ثم ناما في أحد بيوتها ، وفي الصباح كان قد حان أجل اختفاء هذه المدينة فاخفت ولم يبق منها أثر يدل على وجودها ، فلما

استيقظ الرجلان وجدا نفسيهما في العراء ، فتعجبا بالغ العجب ولم يفهما سر اختفاء هذه المدينة!! أخذت القلم وكتبت هذه القصة كما تصورتها آملاً في أن تحقق ما كان يدعو إليه عميد الأدب العربي .

وقد تابع الأستاذ مختار النعال سيرته الأدبية بكل نشاط وثقة فكان ينشر مقالاته في المجلات العربية والمحلية وكان ينصب اهتمامه على اللغة لأنه يرى أن العامة قد تفشت فيها وكثرت الأخطاء النحوية وبخاصة في وسائل الإعلام فكان ينشر مقالات عديدة في مجلة التراث الإماراتية تبحث في هذه المسألة وكان يعنون مقالاته بعنوان (أخطاء لغوية شائعة) .

ففي كلمة (السواح) مثلاً والتي يستعملها عادة كثير من الناس في كتاباتهم وفي نطقهم يقول: «على الأديب أو الكاتب أو المحاضر أن يراعي مصطلح القوم في أحكام اللغة دفعاً للالتباس ودرءاً للفضى من أن تعم وتشيع فيختلط الخطأ بالصواب ولا يستبين ، فكثيراً ما يتداول كتابنا وأدباؤنا ألفاظاً تخالف في منطوقها أحكام اللغة ثم تغدو خطأ لغوياً شائعاً يتداوله الكثيرون في كتاباتهم وأقوالهم . . . وكم رأينا على أبواب الفنادق والمطاعم لافتات كتب عليها «يوجد لدينا تسهيلات للسادة السواح» وهم يقصدون (السياح) . كما نجد مثل هذه اللافتات موضوعة على واجهات عربات النقل الجماعية كتب عليها: «وهذه خاصة بالسواح» وكذلك نقرأ في بعض الصحف اليومية خبراً مفاده «زار المدينة فريق من السواح الأجانب بقصد الزيارة للاطلاع على معالمها الأثرية»^(١) . ثم استعرض أقوال علماء اللغة في هذه الكلمات ، وقال في نهاية المقال: «ونخلص من جميع هذه الأقوال إلى أن جمع السائح هو (السياح والسائحون) ومعنى السائح: هو المتنقل في البلاد بقصد العبادة أو طلب المعرفة أو الكشف والاستجمام وسوى ذلك ، فعلينا أن نقول: أكرم أيها المواطن سياح بلدك -وليس سواح- لتكون لهم المرأة الصادقة في العطاء والتكريم .

(١) أدباء من حلب - أحمد حسن الحميسي .

ومع أن الأستاذ مختار النعال كان واسع الإنتاج الأدبي في كافة مجالات الأدب والفكر فقد كان عمله الموسوعي الضخم والذي انصب في اتجاهين هو من أهم أعماله الإبداعية على الإطلاق .

فقد بدأ دراساته الموسوعية بالتوجه إلى التراث وراح يخوض في هذا المجال (ويبدو أن مهنة أبيه كان لها تأثير على هذا التوجه . فقد كان والده خطاطاً يهتم برسم الخط الذي هو من صميم عمل التراث) .

ومن خلال هذا التوجه حصر عمله في الدراسات القرآنية فأصدر كتابه الأول في هذا المجال وهو كتاب (أضواء على مفردات قرآنية) وكان هذا الكتاب توجه جديد في التفسير القرآني إذ أنه راح يفسر تلك المفردات التي ذكرها بدلالة السياق القرآني فنال إعجاب الكثير من الكتاب في هذا المجال .

ثم التفت في التسعينات من القرن العشرين إلى المساهمة في إعداد الموسوعة الإسلامية الميسرة التي صدرت عن دار صحارى بالتعاون مع دار فصلت سنة ١٩١١ في عشرة مجلدات وكان الدكتور محمود عكام هو رئيس تحريرها والمشرف على إخراجها . وقد كانت مساهمة الأستاذ مختار فيها كبيرة فقد كتب بحدود ٦٢٠ مادة من أصل ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف مادة هي محتوى الموسوعة .

وفي نفس الوقت الذي يعمل فيه في الموسوعة الإسلامية كان يعمل في موسوعة أخرى هي (موسوعة ألفاظ القرآن الكريم) وهذه الموسوعة الجديدة هي نتاج خاص بالأستاذ مختار النعال لم يشاركه فيها أحد وقد أنجز منها حتى الآن أحد عشر معجماً هي :

١- معجم ألفاظ الإنسان في القرآن الكريم .

٢- معجم ألفاظ الحيوان في القرآن الكريم .

- ٣- معجم ألفاظ النبات في القرآن الكريم .
- ٤- معظم ألفاظ الأمم والشعوب والقبائل في القرآن الكريم .
- ٥- معجم ألفاظ المكان في القرآن الكريم .
- ٦- معجم ألفاظ الزمان في القرآن الكريم .
- ٧- معجم ألفاظ الأخلاق في القرآن الكريم .
- ٨- معجم ألفاظ المصنوعة في القرآن الكريم .
- ٩- معجم الألفاظ التجارية والمالية القرآن الكريم .
- ١٠- معجم ألفاظ الكون في القرآن الكريم .
- ١١- درة البيان في شرح مفردات القرآن .

وقد اتبع في إعدادها المنهج التالي:

- ١- كان يذكر عدد مرات اللفظ في القرآن ، وأماكن ورودها في السور والآيات .
- ٢- ثم يختار آية تتضمن اللفظة ويضعها تحت عنوان (آية مختارة) .
- ٣- ثم يشرح كلمات الآية المختارة ويركز على المفردة (اللفظة) المطلوبة ويبين وجوه القراءات في الآية .
- ٤- ويذكر لمحة عن المفردة المذكورة من حيث أسماؤها وصفاتها وأنواعها حسب تصنيفها .

٥- وبعد ذلك يذكر ما قاله المفسرون قرآناً في هذه اللفظة ومعانيها المشهورة في الآية المختارة .

٦- ويذكر بعد كل ذلك الحكم الفقهي المتعلق بالمفردة (إن كان هناك حكم فقهي يتعلق بها) .

٧- ويذكر حديثاً شريفاً وردت فيه اللفظة (إن كان هناك حديث في ذلك) .

٨- وقد يذكر مثلاً يتعلق باللفظة .

٩- وإن كان لها تفسير في كتب تفسير الأحلام فإنه يوردها .

وقد جمع الأستاذ مختار النعال في هذه المعاجم المفهرسة محاسن المعاجم وأضاف إليها أموراً جديدة من مثل معنى اللفظة في اللغة ومعلومات تخصصية تصنف المفردة في مجالها وذكر بعض الأحكام الفقهية فيها .

وبذلك جاءت معاجمه جامعة لأمر كثيرة (لغوية وأدبية وفقهية) .

لقد بذل أدينا ومفكرنا الأستاذ مختار فوزي النعال جهداً كبيراً في إعداد هذه الموسوعة المعجمية لألفاظ القرآن الكريم حتى جاءت مستوفية لأغراضها واضحة في مفرداتها دقيقة في معانيها .

وقد كتب الأستاذ مختار بعد ذلك كتاباً جمع فيه بعضاً مما كتبه في تلك المعاجم وسمى الكتاب (موسوعة الألفاظ القرآنية) . وقد جمع فيه الكلمات المختارة من المعاجم التي كتبها ورتبها ترتيباً ألفبائياً كما جاءت في القرآن دون تجريدها وإرجاعها إلى الأصل ثم شرح الكلمة لغوياً وأورد فيها اللفظ وفسرها ، وأورد قول المفسرين في تلك المفردة ثم ذيل الموسوعة بالفهارس العامة لجميع الألفاظ الواردة في الموسوعة .

وبعد . . فإن الأستاذ مختار فوزي النعال يعد بحق رائداً من زواد المعاجم القرآنية في العصر الحديث بالإضافة إلى أنه أديب ذواقة امتدت يد الأدب عنده إلى كل الاتجاهات (المقالات والقصة والشعر) .

ولا يزال كاتبنا الأديب مختار النعال يقدم الكثير في ميدان الدراسات القرآنية فقد كتب كتابين أولهما "نساء نزل فيهن القرآن ولم يسمهن" والثاني كتاب في أسماء الله الحسنى . وبذلك يدل على أنه في عمله هذا يدأب دأب الباحث الصابر والمخلص لعمله والمجاهد في سبيل تقديم أفضل ما يمكنه أن يقدمه للناس سعياً إلى مرضاة الله عز وجل .

أسأل الله تعالى أن يمده بالصحة والقوة حتى ينفعنا بفكره وعلمه ، إنه نعم المولى والمجيب .

حاز عام ٢٠٠٦ على جائزة الباسل .

* * *

فاضل السباعي

١٩٢٩

مع ارتفاع مَدِّ الرواية العربية منذ الثلاثينات من القرن العشرين وظهور كتاب كبار أمثال يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ ويوسف إدريس كان هناك وجه أدبي خجول يطل علينا معهم من سورية ومن حلب تحديداً. إنه فاضل السباعي القاصّ والروائي السوري الذي فرض نفسه أديباً وقاصاً مع هذه النخبة من عمالقة الأدب العربي في مصر. فخلال الستينات أصدر أربع روايات هي (ثريا) و(ثم أزهز الحزن) و(الظمأ) و(النبوع) و(رياح كانون) وكذلك أصدر في نفس الفترة تقريباً خمس مجموعات قصصية أتبعها بخمس مجموعات أخرى ما بين ١٩٧٥ و ١٩٩٠.

ولد الروائي فاضل السباعي في حلب عام ١٩٢٩ وتلقى تعليمه في مدارسها متدرجاً من الابتدائية حتى الثانوية، ثم تابع دراسته الجامعية في القاهرة وتخرج منها عام ١٩٥٤ يحمل إجازة الحقوق، وعمل على إثرها محامياً في حلب ثم انتقل إلى دمشق عام ١٩٦٦ ليعمل في المكتب المركزي للإحصاء وعين بعد ذلك مديراً للشؤون الثقافية بجامعة دمشق. وفي عام ١٩٨٨ أُحيل على التقاعد بناءً على طلبه كي يتفرغ للكتابة.

لقد كان للأديب القاص فاضل السباعي دوراً متميزاً وواضحاً في الحركة الأدبية في سورية في الستينات. فقد قدم مجموعة من الروايات كان أولها رواية

(ثرىا) عام ١٩٦٢ . وكان قد كتبها عام ١٩٥٩ في درعا بسورية (كما يذكر الدكتور أحمد زياد محبك في كتاب انكسارات). وتقع الرواية في ٢٢٢ صفحة من القطع الكبير .

والرواية تحكي قصة حب بين فتاة جامعية تسمى (ثرىا) وفتى هو بطل الرواية اسمه (وحيد) وكانا في السنة الأخيرة من كلية الحقوق في جامعة القاهرة ، ويسرد من خلال الرواية أوصاف البطل والبطلة . فهي جميلة وحيدة أبويها تقريباً لأن أخاها الوحيد طبيب متزوج . وأسرتها ميسورة تلقى من أبويها العناية والدلال . ولديها بىغاء يؤانسها . أما هو (وحيد) فهو شاب أسمر رشيق ، له غمازتان جميلتان ، حلو الحديث ، مهذب ، مثالي ، صادق ، وهو ريفي قادم من طنطا وله من الإخوة والأخوات خمسة ويغرق في وصف حياة وحيد مع ابن خالته العاثر في القاهرة وكيف تبدأ قصة حبه لثرىا بإعجاب يتطور إلى حب وتنتقل النظرات إلى لقاءات . وتكرر اللقاءات إلا أنها لا تستمر طويلاً ، فـ (ثرىا) تبدأ إخالاف وعدّها عن لقاءه وأحياناً لا تأتي ويبدو أن رحلة الحب لم تدم طويلاً إذ أن البطلة سرعان ما ملّت حب بطلها فقررت هجره ، فتتودد إلى زميل آخر مما جعله يوبخها ثم يهجرها في موقف درامي مؤثر .

ويرى الدكتور أحمد زياد محبك أن الرواية لا تعدو أن تكون (جملة من المواقف عمادها اللقاء بين وحيد وثرىا وما يكون فيه من تبادل لمشاعر الحب ، وعدا ذلك ليس ثمة حوادث نامية متطورة) . ويرى أن هناك زوائد كثيرة أثقلت الرواية ومنها تصوير مجلس أنس يضم إسماعيل (ابن خالته) وثلته الماجنة وزيارة ثرىا وزميلتها رجاء لوحيد في شقته .

وتسقط الرواية في وهدة السرد الروائي التقليدي الذي يبعث على الملل . ولكن وبما أنها التجربة الأولى له في عالم الرواية فإنها تسجل له كقيمة تاريخية في حياته الأدبية .

أما الرواية الثانية (ثم أزهز الحزن) فقد أصدرها عام ١٩٦٣ وتقع في أربعمئة صفحة. وتعرض قصة أسرة تتألف من أم مات زوجها فكرست نفسها لتربية أولادها وفي سبيل ذلك رفضت عروض الزواج المتتالية وخاصةً من الحاج هلال الذي يلح عليها في طلب الزواج ولكنها تصر على الرفض.

والشيء الإيجابي في هذه الرواية هو رؤيتها المتفائلة للحياة رغم كل ما تمر به من مأس وشقاء. وكذلك فإن الكاتب يبرز تمسك الأسرة بالقيم والأخلاق والفضيلة وتؤكد على أن الخير لا بد سينتصر في النهاية بعد قدر غير قليل من التعب والشقاء والصبر.

وتبرز الأم في هذه الرواية كمثال للأخلاق الرفيعة والصبر والكفاح ورمز للوفاء حتى أنها تفوز بلقب (الأم المثالية).

كما تنجح الرواية في طرح مشكلة عمل الفتاة ومعالجة هذه المشكلة وما تعانيه لدى دخولها أول مرة سلك الوظيفة الحكومية (وهذا يذكرنا بقصص نجيب محفوظ حكايات حارتنا - الحكاية رقم ٩).

وقد كتب عن هذه الرواية الدكتور حسام الخطيب والأديب عدنان بن ذريل فنوّها بالرواية وعرضا لجوانب عديدة منها وجدا أنها تميزت بها، ولكن الدكتور حسام خطيب يرى أنها (انهمكت في المسح الاجتماعي.. فمعظم شخصياتها إن لم يكن كلها سطحية ذات بعد واحد ونمطية مصنوعة لأغراض معينة). أما عدنان بن ذريل فأخذ عليها ضعف ارتباط قصص الأخوات بالبناء العام للقصة حيث نجد أن تلك القصص بالنسبة للبطللة البنت (هالة) والتي هي صورة عن أمها ما هي إلا قصص جانبية ولوحات إضافية لاستكمال اللوحة العامة لصورة العائلة.

وفي رواية (الظمأ والينبوع) يتحدث الكاتب عن قصة بطلها شاب من حلب يدعى سامي، ذهب إلى ألمانيا ليدرس الهندسة وله فيها صديق ألماني يزوره في بيته

فيتعرض لمحاولات إغراء من زوجته الألمانية ولكنه يرفض ذلك بتعفف (وهنا يذكرنا بقصة يوسف عليه السلام عندما تحاول زوجة العزيز إغراءه فيكاد يهيم بها لولا أن رأى برهان ربه فيعف عنها) ثم يقرر بعد ذلك أن يمتنع عن زيارة صديقه خوفاً على نفسه من الفتنة . وينتهي روايته (التي هي في الأصل قصة نشرت عام ١٩٥٨ بعنوان ضيف من الشرق) بتساؤل يطرحه على نفسه ويلح في طرحه وهو: أكانت عفته مع زوجة صديقه الألمانية حقيقية أم أنه الخوف من مجيء الزوج فجأة ورؤيته معها ، أم هي نوع من التهيب أمام سعادة كان يتمناها في خياله فلما جاءته اعتصم بالجن ولاذ بالفرار^(١) .

وآخر رواياته هي (رياح كانون) التي أصدرها عام ١٩٦٨ وتتحدث عن الناقد والأديب (رامي حسام الدين) الذي تخلى عن أمه وأبيه وإخوته ليعيش خالصاً للفكر والأدب وهو من أسرة متوسطة الحال يعمل محامياً ولكنه يطمح إلى كتابة رواية يحقق بها ذاته فلا يجد من يفجر موهبته ، ويلتقي بشابة مثقفة اسمها (لبنى) وهي من أسرة غنية وتحاول أن تكون أديبة وقد أنجزت كتابة رواية وتريد ناقدًا يراجعها فتلتقي مع البطل ويكون الحب من جانبه أما هي فتستغله لمراجعة روايتها وإصدارها ، ولما وصلت إلى ما تريد انصرفت عنه وطلبت منه أن يظلا صديقين ولكنه رفض وابتعد عنها مغضباً .

وهذه الرواية لا تقدم سيرة ذاتية للكاتب بل تقدم موضوعية لشخصية المثقف (رغم التلاحم الظاهر بين بطل الرواية وكاتبها) وما يعانيه هذا البطل من صراع وتناقض وخلل في الواقع الاجتماعي والثقافي . وكانت الرواية جريئة في تصوير حال المثقف وفي حال الأديب الاجتماعي .

من خلال ما ذكرنا نخلص إلى أن التجربة الروائية عند فاضل السباعي تظهر عالماً واحداً هو عالم المثقفين ، وبشكل خاص الحقوقيين (والمؤلف واحد

(١) انكسارات - د. أحمد زياد مجبك .

منهم) ففي (ثرثا) يظهر وحث وثرثا ورجاء (وهم طلاب حقوق) بجامعة القاهرة؁ وكذلك (هالة) في رواية (ثم أزهز الحزن) تنتسب إلى كلية الحقوق جامعة القاهرة؁ وكذلك (رامي) بطل (رياح كانون)؁ وشذ عن هذا المحور سامي الطالب في كلية الهندسة بألمانيا؁ وأهم ما يميز الجانب الفني في روايات (السباعي) أنها وكما يقول د. أحمد زياد محبك تبدأ بمقطع مقتبس من نهاية الرواية والاختتام بخاتمة .

ومهما يكن من أمر فإن فاضل السباعي ترك أثراً لا يستهان به في عالم الرواية والأدب بشكل عام في سورية وكان له ولا يزال عالم متميز يوصف به ويعرف من خلاله .

* * *

علي الزبيق

١٩٣١

هذا الشاعر الأديب المظلوم الذي لم يأخذ حقه في الماضي ولا في الحاضر من عالم الشهرة الأدبية . مع أنه اتصف بشاعرية فياضة ورقة ملحوظة في شعره وفي طبعه فقد كان دائم التبسم في وجه زائريه في دار الكتب يستقبل بترحاب ظاهر الكبير والصغير المعروف في عالم الأدب والمجهول أيضاً .

ويبدو أن ذاكرة التاريخ الأدبي تصاب بالضعف في أحيان كثيرة فقد أغفلته دراسات كثيرة ولم يأت الكتاب على ذكره إلا في حالات نادرة ، وأظن أنه يستحق منا أن نذكره وأن نعرف الأجيال بهذا الشاعر الرقيق العبارة الجميل الأسلوب والذي تطاول بقامته الأدبية حتى بلغ مكانة عالية بين شعراء عصره . ونحن في هذه العجالة نحاول أن نستكشف شيئاً من عالمه الشعري هذا .

ولد الشاعر علي الزبيق في حلب عام ١٩٣١ وفيها تلقى علومه الابتدائية والإعدادية والثانوية ثم التحق بعد ذلك بكلية الحقوق إلا أن ظروف الحياة وضغطها عليه لم تفسح له المجال في إكمال دراسته الجامعية فاضطر إلى تركها ولجأ إلى العمل موظفاً في دار الكتب الوطنية بحلب حيناً من الزمن ثم استلم منصب مدير الدار .

وباستلامه لهذا المنصب شهدت حلب عصرها من الاشتغال بالثقافة والإبداع

لم تعرفه منذ عهد بعيد ، فقد أحدث نشاطاً أسبوعياً كان يقيمه في دار الكتب وفي قاعة عمر أبي ريشة تحديداً كان يقيم فيه ندوة أدبية بعنوان حلقة كتاب وكانت هذه الندوة تجمع المهتمين بالعمل الأدبي من أدباء شباب ومخضرمين وكان الباحث الذي يقدم حلقة أدبية عن كتاب يستعرض فيها رؤيته للكتاب بعد أن يوجز ما فيه من أفكار طرحها الكاتب في كتابه . وكنا نشهد في تلك الندوة الأسبوعية نشاطاً مكثفاً وجدلاً أدبياً ناشطاً (وقد شاركت شخصياً في أكثر من ندوة من تلك الندوات وقدمت أكثر من بحث في هذا المجال) . وكذلك أفرد خزانة خاصة في غرفة الإدارة تضم المؤلفات التي عنيت بمدينة حلب وكان لهذا العمل أثر طيب في نفوس أدباء حلب ومثقفوها . ولم يكتف بذلك بل وجه عنايته إلى الكتب القديمة التي أصابها غبار الزمن بسهامه فأصبحت بالية أو تكاد فراح ينسق هذه الكتب ويرتبها وبدأ حملة تجليد لكل تلك الكتب لاتزال قائمة حتى الآن يتوارثها مدرء الدار لاحق عن سابق وكأنه بذلك أحدث سنة جميلة أصبح اتباعها محموداً .

ولسوء حظ الدار (دار الكتب الوطنية) فقد نقل الأستاذ الشاعر علي الزريق من موقعه إلى «معهد الفنون التطبيقية» بحلب وشغل بها منصب مدير المعهد وبقي فيه إلى أن أحيل على التقاعد عام ١٩٩١ .

وإذا ما دخلنا عالم شعره الجميل فإننا سنجد هذا الشعر يشكل نقلة جديدة في واقعنا الشعري المعاصر وخاصة في ظل صراع المذاهب الأدبية فالمتفحص لشعر الزريق يجد أنه مزيج محبب من واقعية هادئة تتميز برقتها وصوفية في تعابيره تلامس شغاف القلب وتثير أحاسيس متنوعة من نفور وقلق وحزن على واقعنا الاجتماعي إذا ما قرأنا قصيدته التي سماها (جارنا الإسكافي) ، يقول فيها:

في حينها هذا

وفي إحدى زواياه وراء الشجر

كان لنا جار يتيّم المظهر

محدود بكمنجل

وخطوه أبناء عُمرٍ مقفر

وحوله كم من حذاء

مخدّر بالضجر القاحل

ممزق الرجاء

يحدّجه بألف عين لا ترى

عين قضاء

مجنح بعطفه على نعال الفقراء

من أجل أطفال بلا مدارس مضيعين

من أجل ما يوحى إلى شتى الظنون

إنها النظرة الواقعية المجسمة لعين شاعرية ترى هذا الواقع وتلامسه فهي منه قريبة بل تكاد تعيش فيه . ويذكر في هذا اللون من الشعر بملامسته للواقع بهذه الجمالية بشعراء الإبداعية أمثال أبي ريشة شاعر حلب العملاق وعلي الجارم وعلي محمود طه وأبي القاسم الشابي وإبراهيم ناجي . . وغيرهم إلا أن شاعرنا يتميز عنهم جميعاً بأن صرخته في وجه هذا الواقع كانت صرخة (هادئة) لا تسمع فيها صخباً كما يفعل الشابي ولا نسمع فيها سخرية الجارم المرة عندما يصور كثرة المشردين في مصر:

كم شارد في مصر يا كثره من عدد يسخر من حصره
مدرسة النشل وسل المدى أسسها الشيطان في جحره

وفي قصيدته «حكاية الشمس» نجد علي الزريق يحدثنا عن هموم اجتماعية قلما انتبه إليها شعراؤنا فقد صور انعكاس البناء الطابقي الحديث بارتفاعه المستمر على الفقراء الذين يسكنون الأقبية التي لا تصلها الشمس والتي تؤدي بساكنيها إلى الموت قهراً ورطوبة. فهو يقدم من خلال القصيدة المفارقة بين من يسكن في القبو تأكله الرطوبة وبين من يسكن في الطابق العالي حيث الهواء والشمس، فالرطوبة في القبو تमित أفراد العائلة مما يجعل رأس الأسرة عاجزاً حائراً أمام أطفاله. انظر إليه وهو يحدثنا عن قصة أب وطفله المسكينة التي أصيبت بالربو نتيجة أكل الرطوبة لرئتيها، يقول الشاعر:

أبي: ما يقول الطيب؟ وماذا ترى كتبت يده من قريب؟
تأملت خيراً على وجهه ولكنه راح مثل الكئيب
لقد كتب: «الشمس يا حلوتي» لأبحث عنها بصدر رحيب

ويبدأ المسكين رحلة البحث عن منزل تدخله الشمس، وبعد عناء وجهه وجد ما يريد ولكن بعد فوات الأوان فقد وجد طفله قد اغتالتها يد الموت عندما عاد ليبشرها بخبر وجود البيت المطلوب. عندها يعود إلى الشمس ليخاطبها بألم وحسرة:

بخلت على طفلي فمضت وكانت لنا شمعة المنزل
فأظلمت الشمس حيناً وقالت ألا نظرة إلى الطابق المعتلي
لقد سرق النور مني، وألقى الظلال على الطابق الأسفل

وهو لا ينسى مهمته كشاعر يضئ للناس دروب الحياة ويمنحهم الأمل
وجناح الخيال:

ونحن من الصحو فوق العيون وفوق القلوب ربح نصر
حملنا على محجريننا الضياء وفي راحتينا نجتمع البشر
وسرنا نفجر في كل درب حيناً وأمنية وسحر

ويطل علينا الشاعر الزبيق عام ١٩٧٠ بمجموعة جديدة سماها «شلحة ناي». جاءت في ١٢٨ صفحة صدرت بمقدمة للشاعر سعيد عقل الذي يقول في المقدمة عن الشاعر الزبيق: «علي الزبيق الشاعر النضر يثور في هدوء.. لا يتنازل عن غني تراث..» إلى أن يقول: «في الأصول أنت تبدع وشعرك يكاد ينفث له الصدر، مرن التطلع إلى الجديد، فلا يتهدل ولا يضع مندفع على تمهل.. جلي الإحساس في القصيدة الواحدة، لا يتجاوز في الأبيات عدد أصابع اليدين (ويعني قلة عدد أبيات القصيدة الواحدة) لكنه يهندس المفردة حتى تكون مع أخواتها متينة البيان».

يقول الزبيق في قصيدة (ما بيننا)

يا طفلة الطفلة يا شمعہ لها مخالب على عينيه
عذبتني.. عذبت هذا الهوى فما الذي تبغين يا وحشيه
كم غزلت يداي أغنية لعلي ألبسها الأغنية
فما أعرتني ولا لفته لا بسمة.. لا لحظ سحرية
ياما الرمال تغسل الجرح يا بالوهم تلتف به جنيہ
ما بيننا هذا الجدار الرقيق رقة البراعم المحنيه^(١)

(١) أدباء من حلب - بقلم أحمد حسن الحميسي .

وهكذا نجد شعر الزبيق ، ثورته لا تكاد تصل نهاية أحياته ورنه الحزن تطغى على أحلامه وحتى في قصائد الغزل تكاد الرقة تذيبه .

أخيراً كم نتمنى أن يلقي الزبيق وأمثاله من المبدعين الذين ظلمهم الشعر وظلمتهم أيامهم أن ينهض بهم الزمن ويُعاد اسمهم مرة أخرى إلى صفحة الحياة لعلنا لا نضيع حق أدبنا وأدباءنا علينا .

صدر للشاعر الزبيق:

- ١- سامبا ، وهي قصيدة مطولة طبعة في مطبعة الضاد حلب ١٩٥٢ .
- ٢- النبعة اليتيمة (شعر) مطبعة الأصيل حلب ١٩٥٩ .
- ٣- شلحة ناي (شعر) بيروت ١٩٧٠ .
- وله مخطوطات نرجو أن ترى النور ليستفيد منها دارسو الأدب والشعر وهي:
- ١- أرجوحة الهم (شعر) .
- ٢- ملحمة محمد (شعر) .
- ٣- قصة القلم في حلب (نثر) .
- ٤- الحرية والالتزام في الأدب العربي (دراسة) .
- ٥- التجديد في الشعر العربي (دراسة) .
- ٦- الخط البياني في الشعر العربي (دراسة) .

* * *

محمود فاخوري

١٩٣٣

عرفت الأستاذ الأديب محمود فاخوري وأنا طالب في السنة الأولى في كلية الآداب قسم اللغة العربية ، وقد كان مدرساً في الجامعة قسم الآداب ، فعرفت فيه الأستاذ والأديب المتميز بالعلم والأخلاق والنشاط .

تميز بالعلم فهو متقن لعلوم اللغة العربية وقد خرج طلاباً أكثر كانوا مثلاً للعلم والإبداع والتميز ، وكان مرجعاً دائماً لكل من يغوص في بحر العربية فهو ربان السفينة التي تخوض غمار هذا البحر .

وامتلك إلى جانب ذلك ذوقاً أدبياً جيداً جعله يتفرد في دراساته الأدبية حول بعض شعراء الجاهلية والإسلام ، من مثل أبي محجن الثقفي الذي تميز في دراسته الأدبية له .

أما أخلاقه فهو مثال لخلق المعلم المؤدب ورمز لأدب الأستاذ مع تلاميذه مع تواضع جم عُرف عنه بين كل الأدباء والدارسين .

فالفاخوري يمنح علمه لكل سائل أو طالب علم دون أن يبخل عليه بأية معلومة صغرت أم كبرت ولذلك كان مقصد كل دارس أو باحث .

ولد الأديب محمود فاخوري في مدينة حماه سنة ١٩٣٣ ، وتلقى فيها تعليمه

الأول ، وبعد أن حصل على الشهادة الإعدادية عين معلماً في إحدى القرى بالحسكة ، ثم نقل إلى حماه عام ١٩٥٠ وعين في مديرية التربية (وكان اسمها في ذلك الوقت مديرية المعارف) فتسلم فيها شعبة الامتحانات والذاتية ، ولم يهمل علمه في هذه الفترة بل تابع دراسته حتى حصل على الشهادة الثانوية وتقدم إلى مسابقة المعهد العالي للمعلمين فقبل فيه طالباً نظامياً داخلياً على حساب الجامعة عام ١٩٥٤ وفي قسم اللغة العربية ، وبعد أربع سنوات حصل على الإجازة في اللغة العربية وحصل على دبلوم التربية بعد سنة أي عام ١٩٥٩ وعلى إثر ذلك عين في مدينة حلب مدرساً للمرحلة الثانوية وفي دار المعلمين ودار المعلمات ، ثم كلف عام ١٩٦٧ بإلقاء محاضرات في جامعة حلب قسم اللغة العربية في البلاغة .

وثبت في ملاك جامعة حلب قسم اللغة العربية عام ١٩٧٤ واختص بتدريس البلاغة والمكتبة العربية والأدب القديم بالإضافة إلى تدريسه في جامعة تشرين ١٩٧٤ حتى ١٩٧٧ . وكان يتابع تحصيله العلمي في هذه الفترة فحصل عام ١٩٧٥ على درجة الماجستير من الجامعة اللبنانية^(١) عن الشاعر المخضرم أبي محجن الثقفي عندما حقق شعره ودرسه دراسة أدبية مستفيضة . وسافر عام ١٩٨٥ إلى فرنسا ليعمل مدة ثلاثة أشهر في المركز القومي للبحوث فحقق بعض الكتب التراثية فيه . كما عمل بالتعاون مع أستاذ الرياضيات المعروف في مدينة حلب الأستاذ صلاح خوام على إخراج موسوعة الأوزان والمكاييل العربية الإسلامية . إلا أن القدر لم يمهّل الأستاذ صلاح خوام فتوفي قبل إكمال الموسوعة المذكورة فاضطر الأستاذ إلى متابعة العمل بمفرده . ونظن أن الموسوعة ستصدر قريباً بإذن الله .

وقد انتخب الأستاذ الفاخوري رئيساً لنادي التمثيل العربي بحلب . وفي عام ١٩٩١ انتسب إلى اتحاد الكتاب العرب ، ثم انتخب أميناً لسر الاتحاد عام ١٩٩٥ ولا يزال الأستاذ الأديب محمود فاخوري يعمل بكل جد ونشاط في أكثر من ميدان من ميادين الأدب والحقل الاجتماعي ويقدم لنا أعمالاً نفخر بها .

(١) أدباء من حلب - د . أحمد زياد محبك . انكسارات - د . أحمد زياد محبك .

إن أستاذنا الفاخوري يقدم لنا من خلال شخصيته المتميزة نموذجاً فريداً لقوة الحياة يتمثل هذا النموذج في حيويته ونشاطه وقدرته على التواصل والتأثير في كل من يحيط به أو يتصل معه مع الاحتفاظ دائماً بشخصيته المستقلة .

وتتجلى قوته في الحياة بعمله الدائم إذ أنه يعمل في صبر وهدوء وأناة وهذا ما يجعله يتناول عدة موضوعات في وقت واحد ينجزها معاً بكل هدوء ولكن من غير كسل أو تواكل أو تأخير .

وكذلك تتجلى قوته في تنوعه في العمل أيضاً فهو لا يهتم بجوانب اللغة من نحو ولغة وتحقيق فحسب ، بل يهتم بالشعر أيضاً قديماً وحديثاً وكذلك المكتبة العربية والبلاغة وتاريخ العلوم عند العرب بل يمتد عمله إلى الدراسات الأدبية عن بعض الشعراء كدراسته عن أبي محجن الثقفي التي نال عنها درجة الماجستير في الأدب وكذلك دراسته عن عمر أبي ريشة وكذلك اهتم بدراسة موسيقا الشعر وعروضه قديماً وحديثاً .

وقد تنوعت نشاطات الأستاذ محمود فاخوري ومساهماته في النشاطات الاجتماعية والأدبية . فهو كان مشاركاً في معظم مؤتمرات تاريخ العلوم عند العرب التي يقيمها معهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب . وأسهم في تلك المؤتمرات بعدة بحوث منها سيرة ابن سينا وسيرة ابن أبي أصيبعة وكذلك الأوزان والمكايل العربية الإسلامية ، ومن هذا التنوع إسهامه في صحف عديدة يكتب فيها مقالاته الأدبية والاجتماعية يلتقط فيها مشاهد من الحياة والمجتمع والثقافة ويعرضها بصورة رشيقة وبأسلوب مشوق .

وقد شارك الكثير من الأدباء في أعمال أدبية ولغوية ونحوية كثيرة منها تعاونه مع الأستاذ الدكتور محمد خير حلواني في إخراج كتاب (المنهل من علوم العربية) وهو دراسة تطبيقية لأكثر من أربعين قصيدة شعرية لشعراء عديدين من مختلف العصور وكذلك مشاركته للأساتذة فريد جحا ومحمد كمال وفاضل ضياء وعبد القادر زكار

والدكتور وهيب طنوس . . وغيرهم كثير في إخراج أعمال أدبية مشتركة ساهمت في توزيع الفائدة الثقافية على كل طالبي العلم والأدب .

ولعل من أجمل ما تميز به أستاذنا الأديب محمود فاخوري هو حب الناس جميعاً ، ويظهر هذا الحب جلياً من خلال أحاديثه الأسبوعية التي يثبها من إذاعة حلب ومنذ عام ١٩٨٦ تحت عنوان «بريق الذهب في لغة العرب» وفي هذه الحلقات يعالج قضايا في اللغة والنحو يقدمها بعفوية وبساطة تجعلها تصل إلى عقول وقلوب جميع المستمعين .

ولم يعرف عن الأستاذ الفاخوري أنه خاصم أحداً أو هاجم أحداً في حديثٍ تحدث به أو مقال كتبه أو كتاب أخرجه حتى ولو كان الأمر يخص اللغة والأدب وهو بذلك يلتزم سلوكاً مهذباً لا يخرج عنه أبداً .

وقد نشر الأستاذ محمود فاخوري مؤلفات عديدة ساهم فيها بإضافة لبنة هامة في بناء اللغة العربية .

وأهم مؤلفاته:

- ١- المعين في الأدب العربي الحديث (بالمشاركة) حلب عام ١٩٦٣ .
- ٢- المعين في النحو والصرف (بالمشاركة) حلب ١٩٦٣ .
- ٣- المعين في الدراسة الأدبية (بالمشاركة) حلب ١٩٦٤ .
- ٤- المنهل من علوم اللغة العربية (بالمشاركة) بيروت ١٩٦٨ .
- ٥- القواعد للثاني الإعدادي (بالمشاركة) وزارة التربية دمشق ١٩٦٩ .
- ٦- سفينة الشعراء - حلب ١٩٧٠ .

٧- صفة الصفوة - تحقيق ، حلب - القاهرة ١٩٦٩ - ١٩٧٣ .

٨- دروس في اللغة العربية (بالمشاركة) ١٩٧٨ - ١٩٨٠ .

٩- الإمام مسلم بن الحجاج - بيروت ١٩٧٩ .

١٠- الأغراض الشعرية عند الأخطل (بالمشاركة) - جامعة حلب ١٩٧٩ .

١١- موسيقا الشعر العربي - جامعة حلب ١٩٨١ .

١٢- منتخبات من نصوص قديمة - جامعة حلب - ١٩٨١ .

١٣- دروس ونصوص في اللغة العربية وآدابها ١٩٨١ .

١٤- محاضرات في الأدب العثماني - جامعة حلب ١٩٨١ .

١٥- المغرب في ترتيب المغرب - تحقيق بالمشاركة ١٩٨٢ .

١٦- سيرة ابن سينا - تحقيق بالمشاركة ١٩٨٢ .

١٧- أبو محجن الثقفي - جامعة حلب ١٩٨٢ .

١٨- جامع الثناء على الله - تحقيق - حلب ١٩٨٨ .

١٩- مصادر التراث والبحث في المكتبة العربية - حلب ١٩٨٩ .

٢٠- مُريدة العجائب وفريدة الغرائب - تحقيق حلب ١٩٩٢ .

٢١- صلوات الثناء على سيد الأنبياء - تحقيق حلب ١٩٩٢ .

٢٢- الرقة درة الفرات - بالمشاركة دمشق ١٩٩٢ .

٢٣- نسيم الصبا - تحقيق حلب ١٩٩٣ .

٢٤- نهر الذهب في تاريخ حلب (تحقيق بالمشاركة) ١٩٩١ .

٢٥- عيون المؤلفات - تحقيق حلب ١٩٩٢ .

٢٦- الفضائل المحمدية - تحقيق حلب ١٩٩٤ .

٢٧- مفرج الكروب ومفرج القلوب - تحقيق حلب ١٩٩٥ .

٢٨- إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد - تحقيق (بالمشاركة) ١٩٩٥ .

٢٩- روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار ٢٠٠٠ .

وأخيراً لا يسعني أن أقول عن أستاذنا الأديب محمود فاخوري إلا ما قاله الدكتور أحمد زياد محبك في بحثه عنه في كتاب (أدباء من حلب) قال: «إن الأستاذ محمود فاخوري كشجرة زيتون عتيقة كبيرة تجدد أوراقها بهدوء وصمت لتبقى دائماً الخضرة. تمنح الناس الظل والبهجة ومتعة الروح والعقل والقلب».

* * *

وليد إخلاصي

١٩٣٥

يعتبر الأديب والقاص وليد إخلاصي واحداً من أهم ركائز القصة السورية والعربية منذ منتصف القرن العشرين وحتى الآن. ونحن في استعراضنا لسيرة هذا العملاق الأدبي سنلامس أعماله ملامسة طفيفة يشيع فيها تعداد الأعمال والخيط الذي يربط بينها، أما الجانب النقدي فليس لنا به شأن في هذه العجالة وإنما الأهم منه استعراض مسيرته الأدبية ورحلة حبه لمدينته التي يتعبد في محرابها في معظم قصصه وهذا ما أعطى تلك القصص خصوصية تميزت عن أقرانها من قصص الأدباء الآخرين وهو أيضاً ما جعلها تمتد بأعناقها إلى نوافذ العالمية، لأننا نعلم أن الخصوصية المفرقة هي الأصالة بعينها مع التفرد الإبداعي الذي يعيشه كل فنان وأديب. ولنا في الكاتب العالمي نجيب محفوظ والدكتور عبد السلام العجيلي من المحيط العربي والأسماء العالمية أمثال فيكتور هيجو وآرنست همنغواي وغيرهم مثال واضح على ما نقوله:

إذاً . . . فإلى مسيرة حياة أديبنا وليد إخلاصي .

ولد الأستاذ وليد إخلاصي في مدينة الإسكندرون السورية عام ١٩٣٥ من أب حليبي هو الشيخ الأزهري أحمد عون الله الإخلاصي الذي كان في الثلاثينات من القرن العشرين رئيساً لتحرير مجلة الاعتصام الحلبية. درس في مدينة حلب وحصل على العلوم الزراعية ثم دبلوم الدراسات العليا من جامعة الإسكندرية في مصر.

عمل محاضراً في كلية الزراعة بجامعة حلب (من عام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٧١) ثم مديراً للتسويق في الهيئة العامة لحلج وتسويق الأقطان حتى عام ١٩٩٩ ، وتولى منصب رئيس لنقابة المهندسين الزراعيين بحلب فترة من الزمن .

انتخب عضواً لمجلس الشعب في الدور التشريعي السابع (١٩٩٩ - ٢٠٠٢) ، أسهم في تأسيس مسرح الشعب بحلب (المسرح القومي حالياً) . وانتخب لأكثر من دورة في مجلس اتحاد الكتاب العرب وترأس فرع الاتحاد بحلب لأكثر من دورة .

عين عضواً في هيئات تحرير عدد من الدوريات الثقافية منها (الحياة المسرحية) و(الموقف الأدبي) .

كتب في كافة أنواع الأدب النثري (قصة - رواية - مسرحية - مقالة) ولا زال يكتب في الصحافة مقالات ودراسات أدبية ورؤى اجتماعية وأدبية .

ترجمت عدة أعمال له إلى لغات مختلفة وأعدت أكثر من دراسة جامعية عن أدبه .

حصل على الجائزة التقديرية لاتحاد الكتاب العرب عام ١٩٨٩ مناصفة مع الدكتور إبراهيم الكيلاني ، ومنح شهادة تكريم في مهرجان القاهرة للمسرح التجريبي عام ١٩٩٢ ، كما نال جائزة محمود تيمور للقصة القصيرة عام ١٩٩١ عن مجموعته القصصية (ما حدث لعنترة) وجائزة الباسل عام ٢٠٠٦ وجائزة سلطان العويس (ديي) عام ١٩٩٧ .

قدم التلفزيون العربي السوري фильماً عنه في سلسلة (أدباء معاصرون) .

أعماله الأدبية:

كتب الأديب وليد إخلاصي ما قارب الأربع والأربعين عملاً أدبياً ما بين قصة ومسرحية ورواية ودراسات أدبية. هذا عدا عن المقالات الصحفية الدورية التي لا يزال يكتب فيها حتى الآن. أما أعماله فهي:

- ١- قصص - مجموعة قصصية - بيروت ١٩٦٣ .
- ٢- العالم من قبل ومن بعد - مسرحيتان - دمشق ١٩٦٥ .
- ٣- شتاء البحر اليابس - رواية - بيروت ١٩٦٥ .
- ٤- دماء في الصبح الأغبر - مجموعة قصصية - حلب ١٩٦٨ (وسميت قصص حلبية)
- ٥- أحضان السيدة الجميلة - رواية - دمشق ١٩٦٩ .
- ٦- زمن الهجرات القصيرة - مجموعة قصصية - دمشق ١٩٧٠ .
- ٧- الطين - مجموعة قصصية - بيروت ١٩٧١ .
- ٨- الدهشة في العيون القاسية - مجموعة قصصية - دمشق ١٩٧٢ .
- ٩- التقرير - مجموعة قصصية - دمشق ١٩٧٤ .
- ١٠- أحزان الرماد - رواية - بيروت ١٩٧٥ .
- ١١- الصراط - مسرحية - دمشق ١٩٧٦ .
- ١٢- موت الحلزون - قصتان طويلتان - دمشق ١٩٧٨ .
- ١٣- سبعة أصوات خشنة - مسرحيات - دمشق ١٩٧٨ .

- ١٤- سهرة ديمقراطية - مسرحيتان - دمشق ١٩٧٨ .
- ١٥- الأعشاب السوداء - قصص - دمشق ١٩٨٠ .
- ١٦- هذا النهر المجنون - مسرحيتان - دمشق ١٩٨٠ .
- ١٧- عن قتل العصافير - مسرحيتان - دمشق ١٩٨١ .
- ١٨- أوديب - مسرحية - ليبيا ١٩٨١ .
- ١٩- الحنظل الأليف - رواية - دمشق ١٩٨٠ .
- ٢٠- يا شجرة يا . . - مجموعة قصصية - ليبيا ١٩٨١ .
- ٢١- زهرة الصندل - رواية - دمشق ١٩٨٢ .
- ٢٢- بيت الخلد - رواية - دمشق ١٩٨٢ .
- ٢٣- قطعة وطن على شاطئ قديم - مسرحيات - تونس ١٩٨٢ .
- ٢٤- خان الورد - مجموعة قصصية - دمشق ١٩٨٣ .
- ٢٥- حكايات الهدهد - رواية - بيروت ١٩٨٤ .
- ٢٦- أغنيات الممثل - قصص - دمشق ١٩٨٤ .
- ٢٧- باب الجمر - رواية - دمشق ١٩٨٤ .
- ٢٨- أنشودة الحديقة - مسرحية - ليبيا ١٩٨٤ .
- ٢٩- المتعة الأخيرة - دراسات - دمشق ١٩٨٥ .
- ٣٠- من يقتل الأرملة - مسرحيات - دمشق ١٩٨٦ .

- ٣١- مسرحيتان للفرجة - مسرحيتان - دمشق ١٩٨٦ .
- ٣٢- رسالة التحقيق والتحقيق - مسرحيات - دمشق ١٩٨٩ .
- ٣٣- دار المتعة - رواية - لندن ١٩٩٠ .
- ٣٤- ما حدث لعنترة - مجموعة قصصية - دمشق ١٩٩٢ .
- ٣٥- ملحمة القتل الصغرى - رواية - قبرص ١٩٩٤ .
- ٣٦- السيف والترس - دراسة - حمص ١٩٩٥ .
- ٣٧- عن القدر والخطيئة - مسرحيتان - دمشق ١٩٩٥ .
- ٣٨- الصورة الناقصة - دراسات - دمشق ١٩٩٥ .
- ٣٩- ثلاث مسرحيات - مسرحيات - دمشق ١٩٩٧ .
- ٤٠- الحياة والغربة وما إليها - مجموعة قصصية - دمشق ١٩٩٨ .
- ٤١- مختارات من الأعمال - ١١ مجلداً - بيروت ١٩٩٩ .
- ٤٢- الفتوحات - رواية - دمشق ٢٠٠١ .
- ٤٣- في الثقافة والحداثة - دراسة - دمشق ٢٠٠٢ .
- ٤٤- سمعت صوتاً هاتفاً - رواية - دمشق ٢٠٠٣ .
- وصف الأديب (نبيه شعار) في مقالة له في صحيفة تشرين بتاريخ خمسة حزيران عام ٢٠٠٥ الأديب وليد إخلاصي في مقالة بعنوان (عن روح حلب . . وليد إخلاصي) بالكريستال اللّماع الذي نرى فيه (صمتاً صخباً أليفاً خليقاً بكل تمنع وبكل احترام وأيضاً بكل احتراز).

إن أدب الأستاذ وليد إخلاصي يتميز بأنه نسيج وحده وينسج طريقاً جديدة للقصة السورية والعربية تأخذ شكل الحكاية الواخزة الشاسعة حيث يمكن للمتابع لأدب وليد إخلاصي أن يرى أن قصصه ورواياته وحتى مسرحه قد غير النهج الفني الواقعي لسير هذا الفن . ففي كثير من قصصه نرى شكل الحكاية الشعبية المحببة إلى النفس تلبس قالباً فنياً متميزاً يجعل القارئ يعيش في ثناياها منفرداً بعالمه .

وقصص وليد إخلاصي حلبية خالصة في معظمها وهو لا ينكر أن حلب هي جزء من روحه بل هي بيته كما يقول ولذلك فإن ارتقاء فنّه إلى مجال العالمية (كما نرى) سببه هذه الخصوصية المتدفقة في رؤيته العميقة لمجتمعه وارتباطه به ارتباطاً مصيرياً وحياتياً .

لن أطيل في الحديث عن أدينا وأدبه بل سأترك له أن يتحدث عن نفسه وعن بيته (حلب) كما يراه هو في مقالة له صدرت في كتاب بعنوان (حلب لأولوة التاريخ ودرة بلاد الشام) يقول وليد إخلاصي:

« كلما اقتربت منها اشتقت إليها . أفارقها لكنها لا تفارقني ، وإذا أعود إليها أحبها أكثر .

و كلما عرفتُها أكثر وأكثر تبين لي أن جهلي بمن أحب يدفعني إلى اكتشافها من جديد! والكشف كالفراق . فيهما ألم ممتع ، ومتعة ليس لها حدود . في أيام الطفولة كنت أظن أن بيتنا الصغير هو حلب ، وفي أيامي الآن أحس أن حلب على اتساعها هي بيتي . .

ذات يوم خُيِّلَ إليّ أنني أستطيع أن أقيس أبعادها طولاً وعرضاً ، فعشيت بخطواتي المحسوبة من كروم الفستق شرقاً وحتى آخر شجرة زيتون غرباً . فتبين لي بعد عناء أن الخطوات تمحو بعضها بعضاً ، وأن المسافات في حلب تُقاس بنبض القلب» . .

ويكمل حديثه عن حلب قائلاً:

«حلب ليست التاريخ وحسب بل هي الجغرافيا المتميزة. وكنت أظن وأنا فتى ينمو بالأحلام أن الأسواق القديمة المغطاة قد حفرت أصلاً في الصخر مديدة دقيقة كي تصل المدينة بسائر أنحاء الكون، وهكذا بات إدراكي لمعنى الشرايين والأوردة في جسد العلم، القلب النابض هو حلب. ألوم حلب إذا ما خُذلت، وأتوجه إليها بالشكر إذا ما حققت نصراً، فيها رأيت جدتي وأمي وزوجتي. أهلي وأصدقائي، وعندما جف النهر فيها قلت إنها ستحملني مسؤولية قحط قادم ولكن رفقتها بي جعلني أدعو السماء أن تنزل مطراً يعوض عليها الحرمان. وهكذا كان للغيوم في السماء الحلبية طعم الشهد في عيني المالحتين.

حلب هي الحجر، وما من بيت في (حلب) إلا وكان الحجر أساسه، . . وفتحات البيوت كانت حجراً كذلك . .

حلب صخرة ملساء شهباء توحى بالصلابة وهي كذلك، لكن جوف الصخرة تشكله جيوب من أذكار في الفجر ذات إيقاع. وقدود لينة الإنشاد، وانفتاح على العالم كان سبباً في يقظة مستمرة وتقدم دائم للبحث والاجتهاد والإبداع.

حلب ليست أبا فراس وحسب بل عمر أبو ريشة، وبين الصوتين المغردين مسافة وتضاريس، وقوافل من زمن متقلب، إلا أن طاقة البركان لم تهمد أبداً، وظلت حلب من معدن مشع لا يخبو له بريق.

يتي يتعتق بالزمن، ولكن حلب هي التي تعتق الزمن . . .»

ويختم حديثه قائلاً:

« . . سمعت بأذني وقع حوافر خيول الغزاة والملوك والقادة والجنود،

تدب على أرض المدينة التي شهدت خراباً يعقبه عمار ، والعمار يزين وجه المدينة
وثوبها ، والزينة يأكلها الزمن ، ثم لا تلبث الأفلاك أن تدور وتدور لكن سمعي
مازال مسكوناً بموال عاشق واستغاثه ملهوف ، وابتهالات محتاج ، فأتحسس
جدران مدينتي/بيتي ، فأدرك أن الحياة إلى أفضل ويبدو أن هذا هو السر بالحفاظ
على البيت والدفاع عنه بأي ثمن» .

وختاماً أقول . . إن الأدباء الكبار بل العظماء أيضاً عندما يكتبون تحفر
كتاباتهم في قلب الزمن سطوراً مضيئة لا تُمحى بل إنها تزداد ألماً ونوراً . إن
كتاباتهم تصبح في جسد الزمن كعروق الذهب التي تضيء في شرايينه ونستطيع
أن نقول إن وليد إخلاصي قد ملك الأسلوب الماهر في السرد الشعري الموضوعي
الشاسع الذي نهض بأدبه إلى مراتب عالية جعلته من أولئك الأدباء الذين سطوروا
في عروق الزمن سطوراً من ذهب .

* * *

د. محمود عكام

١٩٥٢

هل نحن أمام كواكبي آخر؟! هل ما نراه تبشير فجر حداثة جديد يقود معرفته هذا الشيخ الشاب . أيؤسس لمرحلة تشبه مرحلة الإصلاح الديني والاجتماعي كما في أيام الشيخ محمد عبده في مصر وعبد الرحمن الكواكبي في سورية . . ؟!

كل هذه التساؤلات اضطرت في خاطري وأنا أستعد لمناقشة فكر الدكتور الشيخ محمود عكام وتحليل رؤيته الشاملة لكل مكونات الفكر الإسلامي في هذا العصر .

من أين أبدأ؟! وكيف أعمل . . فكرت طويلاً . . وبعد لأي وجدت أن البداية يجب أن تكون مع المولد حتى نتعرف الخطوات التي مر بها الشيخ الشاب ، والمحيط الذي ساهم في تكوين شخصيته ودفعه إلى بحار الفكر وأكاد أقول الفلسفة فأنا أرى أمامي مشروع فلسفة إسلامية متحررة من قيود الفلسفة المدرسية بل فيها نفحات إيمانية عميقة يتنفس بها الدكتور الشيخ محمود عكام .

بدأ أدينا ومفكرنا حياته في حي من أحياء حلب يسمى المغاير في السادس من حزيران ١٩٥٢ ، في أسرة طيبة النشأة طيبة السيرة والسمعة ، كان أبوه الحاج علي (رحمه الله) تاجراً من أولئك التجار الذين عرفتهم حلب بسمعتهم الطيبة العطرة وكلمتهم الصادقة التي لا يحدون عنها أبداً .

وكان للوالد نصيب كبير في تكوينه النفسي وإكسابه صفات الرجولة الحقة فقد صحبه في الكثير من أسفاره المتعددة بين مدن القطر . وكانت تلك الرحلات بالإضافة إلى المكونات الفطرية التي وهبها الله له هي السلم الذي ارتقى به إلى مدارج الشباب بصفاته الإسلامية المتكاملة .

ويحدثنا مفكرنا الشاب عن تلك الأيام فيقول: « كانت أيام الطفولة مرابع ومراتع وصفحات وأوراقاً سُجِّلَتْ فيها كل القيم التي نادينا بها فيما بعد وكان التطبيق سابق والتنفيذ مقدم»^(١) .

ويقول في مكان آخر «عش الطفولة والبراءة خيلاً تستقي منه إشعاع خير وأنت كبير فلا والله ما حسنت نهاية لم ترد إلى البداية ، بداية الفطرة والصفاء والوفاء ولا والله ما استقام سلوك تنافر مع معطيات الأيام الأولى من خلقك إذ كنت تذكر بالله من رآك منهياً لسلوكٍ يذكر بالله ، يصدر عنك»^(٢) .

ولقد استمر تأثير الأب في ابنه حتى أصبح شاباً فرجلاً وبقي الابن يشعر بحب أبيه بل يتمثل هذا الحب علماً وعملاً يندفع فيهما ليحقق لنفسه ولأبيه أملاً كان يعلم أن أباه يحبه فيه . وها هو يكشف أباه بمناجاة لطيفة نشعر فيها بمدى عمق تأثير الأب بابنه:

«روحي أيها الحبيب: لا يعرف الحب إلا من يكابده ، ولقد كابدته -وايم الحق- معك ، ففي صغري كنت أرافقك وكنت ترفق بي ، وكنت أساهرك وكنت تسهر عليّ ، وكنت أمازحك وكنت تحنو عليّ ، حتى إذا كبرتُ كبر منك العطاء وازداد ، فالدعابة المحببة أنعشتني ، والبسمة التي تجللت بالأمان أراحتني وأسعدتني ، وتعابير الحب التي أبرقتها عينك الجميلتان سرّتني وزرعت في فؤادي الاطمئنان» .

(١) من ذاكرة التمرد - د . محمود عكام .

(٢) من ذاكرة التمرد - د . محمود عكام .

«أبتاه: أيها الوفاء كله ، والأمان كله ، لا تقطع نظراتك عني ، وإلى غيرك من ذوي القربى لا تكلني» .

ونعود إلى سيرة حياته فقد انتسب إلى دوحة التربية الكائنة في حي الفرافرة ، وبعدها درس الابتدائية في مدرستي الوحدة العربية (في حي الجلوم) ومدرسة صلاح الدين الصباغ (باب قنسرين) . وبعد أن نال شهادة المرحلة الابتدائية بتفوق انتسب إلى الثانوية الشرعية (الخسروية) عام ١٩٦٦ وأمضى المرحلة الإعدادية الشرعية فيها والثانوية أيضاً .

حصل على الشهادة الإعدادية الشرعية عام ١٩٦٨ وفي نفس السنة تقدم للشهادة الإعدادية وحصل عليها ، وفي عام ١٩٧١ حصل على الشهادة الثانوية الشرعية ونال فيها المرتبة الأولى على القطر ، ثم انتسب إلى كلية الشريعة بجامعة دمشق وتخرج منها عام ١٩٧٥ وحاز فيها على المرتبة الأولى على دفعته . ثم تقدم للحصول على دبلوم التأهيل التربوي ١٩٧٦ في كلية التربية جامعة دمشق وكذلك نال دبلوم المناهج وأصول التدريس من نفس الجامعة .

وفي عام ١٩٧٩ توجه إلى فرنسا ليتابع تحصيله العلمي ويحصل على الدكتوراه في الفكر الإسلامي وتم له ذلك فحصل على الدكتوراه عام ١٩٨٣ وكان المشرف على الأطروحة الدكتور محمد أركون وعنوان الرسالة: «السلطة والحاكمة في الفكر الإسلامي السياسي في القرن الخامس الهجري . دراسة مقارنة بين السنة والشيعة» .

وفي عام ١٩٨٤ عاد إلى وطنه ليتابع نشاطه الفكري والعملية ويشغل المناصب والمسؤوليات التي يحتاج الوطن فيها إليه .

ولكن كل تلك الرحلة المضنية التي قام بها مسافراً متغرباً لم ينس مدينته حلب بل لم تغب عن باله مطلقاً فقد كانت تتربع في قلبه مسيطرة على كل أحاسيسه . يقول الدكتور محمود في إحدى صفحات كتابه (من ذاكرة التمرد) بعنوان (نفحة حلب):

« يا مدينتي يا خير المدن ، ويا درتي ويا درة البلاد:

أما القدم فقديمة ، وأما العراقة فعريقة ، وأما الأصالة فأصيلة!

فيا أيتها القديمة العريقة الأصيلة . إليك محبتي وحيي وتقديري ووفائي
ونبتدئ الحديث معك والحديث عنك ، وكذلك بك .

فمعك كل حديث مائع ، لأنك تحملين سر الشام!

وعنك كل حديث نافع لأنك تمنحين المتحدث نسمة السلام!

وبك كل حديث جامع لأنك حويت وتحوين كل معاني التمام!

طبت إذ حلّ فيك إبراهيم عليه السلام ، وشمخت إذ تتابع على سدتك
العظام .

فصلاح الدين على تربك صمد ، وسيف الدولة في رحابك رصد . وأبو
فراس وما أدراك ما أبو فراس ، ناجى على أفنانك وغرّد .

وتتابع من بعدهم كنظام له سلك من نور ، في كل نقطة منه بريق يضيء
ويضاء ، يتفاعل مع الحبات اللامعة وتتفاعل معه .

ما أكرمك! والأرض فيك معطاءة .

وما أوفاك! والخير منك علامة ما انفكت عن ملامحك الوضاءة .

وما أعظمك والعظمة سرّ استودع فيك من ذي الإحسان الذي خصك
وحباك ، فكنت للوصال الدارة .

حلب ، يا بلدة فيها مرابعي ومراتعي ، يا قمة رعت مصالحي ومنافعي . يا
مدرستي وروضتي ، يا ملعبتي ومسجدي ، يا أرضي وسمائي .

حلب ، والحروف التي تحويها ترنيمة الأبجدية فيها ، فالحاء حمى وحمائم
واللام لهفة ولطائف والباء بهجة وبشائر .

سأذكرك أبداً ، ردَّ بعض الوفاء ، وسأحميك عهداً أدين به أمام رب الأرض
والسماء ، وسأغني وأنشد كل أغانيك ، وهل بغير حلب يحلو ويطيب الغناء؟!

دمنا لك ودمت لنا ولي ، يا أغلى الغوالي ، والهوى ولي ، لك كل ما
كان وصار ، وما يكون عندي ولي .

ولو أننا أمعنا النظر في كلمات المفكر الشاب الشيخ الدكتور محمود عكام
التي قالها في حلب لوجدنا أنفسنا أمام عاشق متصوف يتحرق شوقاً إلى مدينته
المعشوقة التي يشواق إليها وهو في أحضانها .

وهكذا هي طبيعة الدكتور محمود نفس رقيقة صافية تفيض حباً وحناناً
لكل شيء فهو يحب الطبيعة والناس وكل شيء خلقه الله لأنه يرى فيها نعمة
أهداها الله إلى خلقه في هذه الدنيا ، فليحسنوا التعامل معها . وهذه هي طبيعة
دعوته . أحسنوا التعامل مع خلق الله واشكروا الله على ما أنعم بحبيكم الله .

ومن أهم ما يدعو الشيخ الدكتور إليه هو محبة الإنسان لأخيه الإنسان .

تجد ذلك في كل ما يكتب ويفكر ويناقش فدعوته صريحة واضحة لا لبس
فيها ولا غموض ، الإنسانية أولاً ودعامة هذه الإنسانية الإيمان .

انظر إليه وهو يكتب في ذلك بعنوان (هل من سبيل إلى تلاق):

«بين الإنسان والإنسان قواسم مشتركة ، فهل نعيها وننميها؟ أم نمحوها
وننسفها؟

يا معشر الإنس دون الجن:

كنتم أمة واحدة في الخلق والإيجاد والإنسية ، فبعث الله النبيين مبشرين
ومنذرين ليجعل منكم أمة لها مقومات الشكل والمضمون والصورة الحقيقية فما
بالكم فهمتهم التكليف للتفريق والتفرق ، ولم نفهمه للتلاقي والتجمع ؟

لله درُّ الإنسان ما أرحمه وما أقساه!

لله در الإنسان ما ألينه وما أعتاه!

لله در الإنسان ما أجمله وما أقبحه!

لله در الإنسان ما ألطفه وما أخلفه!

عد أيها الإنسان إلى أخيك ، فليس لك في عالم الإنس -بعد الله- سواء ولا
تصدّق منفراً لك منه ، فالقيمة في الوحدة ، والسقوط والانهيار في الفرقة ، ولك
عندي ساحة القرآن العظيم لنتقي فيها . فهل من سبيلٍ إلى تلاقٍ؟! ^(١)

وأجمل ما في شيخنا المفكر هو أنه جاب كل آفاق الفكر فخاض في السياسة
فأحسن الخوض وكان داعية حب وسلام ووحدة وتوحيد . وخاض في غمار
الأسرة فعمت كلماته ونصائحه الآباء والأمهات وكان خير ناصح للجميع ،
وكان يستمد معين نصائحه من نهر الإسلام العذب الذي لا ينضب أبداً . أما
عندما يعود إلى رحاب الدين فإنك تجده ذلك الفارس الجلي الذي يمتطي صهوة
المعرفة ويقودها إلى أذهان القارئ بكل براعة وسهولة وعذوبة أيضاً ، وكيف لا
وهو الخطيب المفوه والمحدث البارع والمؤمن الصادق الإيمان . استمع إليه وهو
يحدثك عن ذكرى الإسراء والمعراج وأثرها الإيجابي في الإنسان:

« . . ما من شك في أن للمعجزة تلك آثاراً نافعة ناجعة وأبعاداً ذات فائدة
على الإنسان عامة ، والإنسان المؤمن بشكل خاص .

(١) من ذاكرة التمرد - د. محمود عكام .

وأول هذه الآثار: تشجيع على تعميق علاقة الإنسان بربه وتوطيدها، فمن تحقق بذلك تولاه الله ورعاه وحماه واجتبهه. ولينظر الإنسان إكرام الله محمداً صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة الإعجازية ليتأكد من ذلك.

ومسيرة الإكرام الإلهي تبتدئ من ركوب البراق الوسيلة المتفردة والخاصة، وتتم بالصلاة إماماً بالأنبياء، ولقائه بهم في السموات الطباق لقاءً شفافاً، كل خيوطه رقة ورأفة وحنان ووداد، وتنتهي بأروع أنس أنتجته نجوى ليس لها مثيل، تمت بين الرحمن والمصطفى (صلى الله عليه وسلم) بين العظيم جلّ جلاله وخليله (صلى الله عليه وسلم).

وثاني الآثار:

دعوة إلى تقوية روابط الخير والفضيلة بين الإنسان والإنسان، وتجلت هذه الدعوة في صلاة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بالأنبياء عليهم السلام.

والصلاة توثق عرى بين الإنسان وأخيه الإنسان على أسس ثابتة هي في تجليها الأبهى تعاليم السماء، فافحص أيها الإنسان وأنت تتذكر هذه المعجزة علاقاتك بالآخرين وغاياتها ومستنداتها. فإن وجدتها قائمة على خير يتغنى.. فاعلم أن الذكرى نفعت.

وثالث الآثار:

تحريض على تعامل واع مع الكون فتستبين الحضارة، وهل الحضارة إلا حصيلة التواصل الرشيد مع الكون ومفرداته.

وآخر الآثار:

نداء من حال المعجزة للشرفاء والعقلاء في كل الدنيا أن أجيئوا داعي الحق بالعمل على إعادة الأقصى المسروق إلى أهله وإرجاع القدس المغتصبة إلى أربابها..».

«وقد سعدت بلقائه بعد اتصال به فكان المضيف الكريم الذي يحتفي بضيفه خيراً احتفاءً ولقد وجدت فيه العالم المتواضع والمفكر ذا الرأي الحر النافع يجذبك إليه بحديثه العذب وأسلوبه الرشيق في الحوار وطرح الأفكار التي تقودك إلى ضفة الرشاد والهدى».

وقد شغل الشيخ الدكتور محمود عكام مناصب عديدة خدم فيها الأمة والإسلام، فمن مدير للثانوية الشرعية (الخسروية) إلى مدير مبرة الأوقاف الإسلامية إلى خطيب جامع التوحيد الكبير (ولا يزال خطيباً له) إلى مستشار وزير الأوقاف لشؤون التعليم الشرعي والتوجيه والإرشاد، والمستشار الشرعي في اللجنة القانونية للهيئة السورية لشؤون الأسرة، وأخيراً مفتي حلب.

أما كتبه فهي كثيرة وغزيرة منها ما هو مخطوط لم يصل إلى أيدي القراء بعد وكثير منها طبع وأصبح بين يدي القراء.

أ - الكتب المخطوطة:

- ١- نظرية الإمامة عند الشيعة المعاصرين ، رسالة ماجستير بالفرنسية .
- ٢- دراسة في رسائل عمر بن عبد العزيز إلى ولاته وعماله ، رسالة ماجستير ثانية بالفرنسية .

ب - الكتب المطبوعة:

- ١- الحاكمية والسلطة في الفكر السياسي الإسلامي عند الشيعة والسنة في القرن الخامس الهجري ، دراسة مقارنة .
- ٢- مسيرة حاج (أحكام ، أدعية ، نفحات) .
- ٣- الإسلام والإنسان (وله ترجمة إنكليزية قيد الإعداد للنشر) .

- ٤- حوار مع الصحافة: أسئلة من الواقع وإجابات من الإسلام .
- ٥- فكر ومنبر: مفاهيم وقضايا تقدمها خطب الجمعة .
- ٦- عصارات: كلمات في المنهج والنقد والحب .
- ٧- سبيل المعروف: بحث علمي وعملي يحتاجه كل مسلم .
- ٨- الإسلام وظاهرة العنف (ندوة فكرية) بالاشتراك .
- ٩- لوحات: صفحات من الإيمان والتجربة والوجدان .
- ١٠- الزهراء عليها السلام بين الثناء والولاء .
- ١١- من أجل أخلاق أفضل للقرن ٢١ / بالاشتراك .
- ١٢- وقبلني بخشية أعتابهم: رسائل مرفوعة إلى جناب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم .
- ١٣- الحضارة مفهوماً إسلامياً: سلسلة محاضرات جادة وهادفة .
- ١٤- الحوار من الإنسان إلى الإسلام: سلسلة محاضرات جادة وهادفة .
- ١٥- رؤية أولية لتفعيل دور الإسلام في الغرب: سلسلة محاضرات جادة وهادفة .
- ١٦- رؤية مسلم حول الإنسان والأخلاق: سلسلة محاضرات جادة وهادفة .
- ١٧- سمات العمل الإسلامي في مستقبل منشود: سلسلة محاضرات جادة وهادفة .

- ١٨- جدلية الفقه والحياة: سلسلة محاضرات جادة وهادفة .
- ١٩- الإسلام وتنظيم الأسرة: سلسلة محاضرات جادة وهادفة .
- ٢٠- القدس الشريف إليها تشد الرحال: سلسلة محاضرات جادة وهادفة .
- ٢١- اللهم هؤلاء أهل بيتي ، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .
- ٢٢- منبر شاهد على حرب العراق ٢٠٠٣ .
- ٢٣- أسرتي وإسلامي .
- ٢٤- من ذاكرة التمرد/ صفحات من التفكير في الممنوع والمرغوب .
- ٢٥- التربية الإسلامية/ أبحاث علمية - أسس تربوية - طرائق تعليمية .
- ٢٦- نزهة المحبين في روض الصلاة على سيد المرسلين .
- ٢٧- من مقولات الفكر الإسلامي / رؤية جادة لموضوعات هامة .
- ٢٨- الأسرة والطفل / التوعية والتنشئة .
- ويشرف على سلسلة غرب وشرق (وهي سلسلة تعنى بالدراسات الغربية المتعلقة بشؤون الشرق والإسلام) وصدر منها:
- ١- الإسلام والديمقراطية - جون أز سبوزيتو - وجون فول .
- ٢- الإسلام والعدالة ، مجموعة من المؤلفين .
- ٣- النظام الدولي الجديد-القديم / نعوم تشومسكي .

* * *

ونحن لا نزال ننتظر من شيخنا وأستاذنا الدكتور محمود عكام الكثير من الإبداعات التي ينور بها عقولنا كل يوم . إن عطاء الأستاذ الشيخ لا ينضب وفكره المتجدد سيكون حافزاً لنا جميعاً على بذل الجهد المضني في سبيل الارتقاء بنفوسنا جميعاً إلى مرتبة الصفاء والمحبة والتعاون لخلق مجتمع إسلامي جديد يذكرنا بالعصور الإسلامية الخالدة .

* * *

خاتمة

- ١ -

وبعد . . فما ذكرناه من شخصيات أدبية ليست نهاية المطاف ، فهناك أدباء أكثر من أن يتسع لهم مثل هذا الكتاب ، ولكن ضيق المجال لم يفسح لي في التوسع ، ومن لم أذكرهم من الأدباء ليسوا أقل شأنًا في دنيا الأدب من الذين ذكرتهم ، فشكيب الجابري مثلاً والدكتور أحمد زياد محبك والدكتور فخر الدين قباوة والدكتور بكري شيخ أمين وجمال باروت وأحمد دوغان ومحمد أبو معتوق وفیصل خرتش وغيرهم كثير من أدبائنا الكرام لهم باع طويل وجهد لا يستهان به في عالم الأدب ، فأرجو المَعذرة منهم جميعاً وأتمنى أن أستطيع توسيع بحثي في المستقبل ليشمل الجميع .

أما الآن فإنني سأذكر الشعراء الذين ذكروا حلب في شعرهم وتغنوا بأمجادها وعظمتها .

فمن الشعراء الكبار في العصر الحاضر الذين ذكروا حلب الشاعر الكبير بشارة الخوري (الأخطل الصغير) الذي ألقى قصيدة بمناسبة تكريمه في حلب فقال فيها:

نفيت عنك العلى والظرف والأدبا وإن خلقت لها إن لم تزر حلبا
شهباء لو كانت الأحلام كأس طلاً في راحة الفجر كنت الزهر والحبا

أو كان لَّيل أن يختار حليته
لو أَلَفَ المجدُ سَفْراً عن مفاخره
لو أنصف العرب الأحرار نهضتهم
ملاعب الصيد من بني حمدان ما نسلوا
الخالعين على الأوطان بهجتها
حسامهم ما نبا في وجه من ضربوا
ما جَرَّدَ الدهر سيفاً مثل سيفهم
ربُّ القوافي على الإطلاق شاعرهم
سيفان في قبضة الشهباء لا ثلما
أتسعد الروضة الخضراء بلبلها
تيهاً «عروسة سوريا» فقد حملت

وقد طلعت عليه لازدري الشهباء
لراح يكتب في عنوانه حلباً
لشيدوا لك في ساحاتها النُّصبا
إلا الأهله والأشبال والقصبا
والرافعين على أرماحها القصبا
ومُهرهم ما كبا في إثر من هربا
يجري به الدم أو يجري به الذهب
الخلد والمجد في آفاقه اصطحبا
قد شرفا العرب بل قد شرفا الأدبا
حتى يفي الروضة «الشهباء» ما وجبا
لك القوافي على راياتها الغلبا

وفي حفل تكريم المتنبي في أيلول من عام ١٩٣٥ كتب الأستاذ الشاعر
قيصر المعلوف قصيدة حيا فيها حلب قائلاً:

سلام على هذي المعالم عن كتب
سلام على الآرام يخطر في الحمى
سلام على الشهباء قاهرة العدا
على الأسرين الفرس في حومة الوغى
سلام أبا الأطياب ألف تحية
سقى الله عصراً خالداً بملوكه
فما كان سيف الدولة اليوم خالداً
على قصب الأقلام شدت عروشهم

معالم سيف الدولة الغر في حلب
خفافاً، ولكن فوق مهجة كل صب
بأقيالها الأكفاء من كل منتخب
على الهازمين الروم في حلبة الطلب
ولو بعد ألف من هجوعك في الترب
ولولاك لم نعرف لأكثرهم حسب
ولو فرشت كفاه في العالم الذهب
ومن عجب تخليد عرش على قصب

ولم تغب حلب عن فكر ومشاعر الشاعر اللبناني «شيلي الملاط» الذي ألقى
قصيدة يمدح فيها حلب ويعتز بها بين مدن العالم:

وددت لو أن في الشهباء داري
وان جار الزمان عليّ فيه
نزلت ربوعها فحسبت أني
ألم تحفل بنا حلب كضيف
مررت على شوارعها فألقت
بني أمي يعزّ عليّ أني
ميناً قد شغفت بكم وكنتم
وكنتم خير من شرفوا نفوساً
وكنتم أطف الشعراء روحاً
سأخبر أن في الشهباء أسداً

إذا أزمعتُ عن وطني ارتحالا
فلست أرى سوى حلب مآلا
أرى الأرز المقدس والجلالا
ألم تكرم لنا حلب مقالا
أمامي من حضارتها مثالا
أشدُّ غداً إلى الوطن الرحالا
بعيني في محيا الحسن خالا
ومن طابوا ومن شرفوا خلا
وأرشق في خطابكم ارتجالا
سأذكر أن في حلب رجالا

وكان الشاعر الكبير خليل مطران قد زار حلب في بداية القرن العشرين .
وفي حفل تكريم أقيم له ، أنشد قصيدة بديعة عنوانها «حلب» قال فيها:

أيّ هذي الشهباء
حبذا في ثراك ما
ذلك العنصر الذي
عنصر قد أصاب منه
وبه أحمد ارتقى
يالها من زيارة
تم سعدي بمن رأيت
إن من قال فيهم
ليس بدعاً وإنهم
يا كراماً أحلني

والحسن في ذلك الشهب
فيه من عنصر الشهب
ظل حراً ولم يشب
ابن حمدان ما أحب
ذروة الشعر في العرب
قضيت وهي لي أرب
بها اليوم عن كتب
أعذب المدح ما كذب
صفوة الشرق والنخب
فضلهم أرفع الرتب

إن فخراً نحتمونى لأغلى ما فى الحسب
لم يكن لى ومن أنا هو للشعر والأدب

وكان الشاعر الأستاذ محمد عبد الغنى حسن والملقب بـ (شاعر الأهرام)
قد ألقى قصيدة فى حفل تكريم المحامى فتح الله الصقال عام ١٩٤٣ قال فيها:

أين المنابر فى الشهباء قائمة وأين فى أمسها التاريخ والأدب
وأين ملك بنى حمدان مزدهراً يسيل منه على أعطافها الذهب
ما سميت حلب الشهباء عن ثقة إلا لأنكم فى جوها شهب
هى العروبة قريى بيننا وكفى أنا إلى العرب الأحرار نتسب

ومن أبناء حلب برز الأستاذ خالد معدل فى ميدان الشعر علماً يشار إليه،
وقد تفرس الأستاذ خالد فى ميدان الشعر طويلاً ورفع علمه عالياً وكان أحد
الذين رسموا بشعرهم طريق المعرفة لأبنائنا فقد عمل طيلة حياته مدرساً لهذه
الأجيال الناشئة يزودهم من علمه وينفعهم بثقافته الواسعة ويرفد مكتباتنا بدواوين
شعر حفلت بروائع الشعر. (وقد أهدانى الأستاذ خالد معدل قصيدة عن حلب
لم تنشر بعد أحببت أن يكون هذا الكتاب أول من تنشر فيه هذه القصيدة).

يقول الأستاذ معدل فى قصيدته التى سماها (موطن الغز):

يسجد المجد خاشعاً فى حماها وهوىتلوآلاءها ويوجد
موطن العز والهوى يعزى وائتلاق طريفها والتليد
يعجز الشعر عن شموخ علاها أين منها البيان أين القصيد
واحة العلم والحجافى ناء ظلها الرطب مستطاب مديد
حلب المجد أعيت الروم دهرأ حين هبت والعالمون رقود

بالظي والقلع وهي تذود
ناعم البال يغني أو يفيد
أو أديب فالكل فيها حشود
حين حجت إلى سناها الوفود
ليس يحني لعاصف أو يميد
يعرف الروم بأسه والجنود
لافتكاك الأسرى ونعم المعيد
دون آرائه يلين الحديد
بعد أسر قد طال فيه القعود
تحصد الروم بالظي بل تبعد
بدم البغي والمنايا تكيد
ما اعتلى سرجه جبان حرود
والمعالي كم أنت فينا تعود
مرهف العصب ثائر أو شهيد
واردوها وليس عنها نعيد
ومن المجد بالفدا نستزيد
وشموخ على الزمان عني
سار وقلبي من فرط شوقي عميد
مترعات وبانتظاري مزيد
كل عمري ما دمت فيها سعيد
مستقر بل جنة أو خلود

بابن حمدان حصنت كل ثغر
في حماها قد عاش كل أريب
ما أشاحت عن عالم أو حكيم
قاعة العرش كم أضاءت ظلاماً
وابن حمدان شامخ للمعالي
وأبو القاسم الحسين وزير
في الفداء الكبير كان رهيناً
ما ألانت له الليالي قناةً
أيها الحارث الأمير سلاماً
قد لها العرب والصوائف يقظ
وابن حمدان سيفه مستحم
يعشق الموت فوق ظهر جواد
يا ابن حمدان يا محج القوافي
كل شبر في أرض شهباء سيف
إن تسلنا عن المنايا فإننا
حبذا الموت لاقتناص المعالي
حلب فوق هامة المجدتاج
في فؤادي من عشقها وقدة النـ
أسكرتني بدفتها من دنان
أفتديها وملء روحي هواها
حبذا الدار والمقام ففيها

وله قصيدة أخرى في حلب اسمها (درة المد) سأذكر منها بضعة أبيات
أرى فيها علو كعبه في الشعر وجهه لحلب وتمجيده لأبطالها. يقول:

لَمَرَّاكَ تَرْتاحُ المَاقِي وَيَنْتَشِي
فَأَنْتِ الَّتِي فِي غُرَّةِ المَجْدِ دُرَّةٌ
وَأَنْتِ الَّتِي لَا زَلْتَ تَرْقِينَ سَلَمًا
لَقَدْ شَدْتَ لِلتَّارِيخِ بِالْبَذْلِ قَلْعَةً
لَكَ اللَّهُ يَا شَهْبَاءُ كَمْ كُنْتَ مَوْثَلًا
هَنَانُ وَوَسَّعَ اللَّهُ بِالْأَمْسِ سَطْرًا
وَمَنْ قَبْلَ رَادِ المَجْدِ بِالْفِكْرِ أَوْحَدٌ
رَجَالُ جِلَادٍ مَا اسْتَكَانُوا لَظَالِمَ
بِهِمْ يَشْمَخُ التَّارِيخُ تِيهًا لِأَنَّهُمْ
فَمَا كُنْتَ يَا شَهْبَاءُ إِلَّا مَنَارَةٌ
بِنَفْسِي هَوَى الشَّهْبَاءُ مَا عَشْتُ فُهِي لِي

بَرِيَّاكَ قَلْبٌ مَفْعَمٌ بِالرَّغَائِبِ
تَضِيءُ فَتَجْلُوا مُذْلَهُمُ الْغِيَاظِ
أَبِيًّا تَسَامِي عَنْ صَغَارِ المَطَالِبِ
تَعَاصَتْ عَلَى أَطْمَاعٍ وَغَدٍ مُحَارِبِ
لَحَرِّ أَبِيٍّ مَا انْحَنَى لِلْمَصَائِبِ
سَجَلًا مَجِيدًا حَافِلًا بِالمُنَاقِبِ
وَهَلْ فِي الْوَرَى نَدٌّ لَشَاوِ الكَوَاكِبِ
تَظَلُّ الثَّرِيَا دُونَهُمْ فِي المَرَاتِبِ
شُمُوسٌ وَضَاءٌ لَيْسَ تَخْفَى بِحَاجِبِ
لِمَجْدٍ عَرِيقٍ مُخَصَّنٍ بِالرَّكَائِبِ
مَلَاذٌ وَمِيَا فِيهِ تَصْفُو مَشَارِبِي

ولم يكن الأستاذ الشاعر خالد معدل لوحده في هذا الميدان فقد صال فيه
وجال كثير من أدبائنا فتأهوا في حب حلب ووصفوها متغزلين بها كما وصفوا
قلعتها الشماء التي شاب الدهر ولم تشب كما قال أحد الشعراء .

ومن هؤلاء الشاعر الأستاذ أحمد علي بابللي الذي وصف قلعة حلب
وصفاً دقيقاً أتى فيه على كل شبر فيها فأبدع في وصفها كأنه مصور يلتقط كل
جانب أو زاوية أو منظر جميل يسترعي الانتباه .

يقول في بعض أبياته من قصيدة وصلت أبياتها إلى أكثر من مئة وستين بيتاً:

أَفْرَغْ شَجُونَكَ لَا يَأْسًا وَلَا هَرَبًا وَاجْعَلْ هُمُوكَ فِي أَطْلَالِنَا حَصْبًا^(١)
بَانَتْ لَقْنَا قَلْعَةَ الشَّهْبَاءِ شَاخَةً فِي الْجَوِّ تَلْقَى عَلَى أَجْيَالِنَا خُطْبًا
جَلِيلَةَ الْقَدْرِ وَالْجُوزَاءِ شَاهِدَةً انْظُرْ فَقَدْ لَامَسَتْ هَامَاتُهَا السَّحْبَا

(١) من ديوان شعر للأستاذ أحمد علي بابللي بعنوان (قلعة حلب في عيون الدهر)

حيوا بطلعتها أمجاد أمتنا
أبراجها ارتفعت كالطود عالية
إنني وقفت على الأطلال أسألها
فهل سمعت صدى الأحقاب من فمها
يغفو على صدرها تاريخ أمتنا
فخفف الوطء تحت الأرض أفئدة
حيوا الحمى وارفعوا الأعلام والقضبا
تزغرد الشمس في أحداقها لها
عما رأت إن في آثارها عجا
كن عبقرياً وخذ من أخبارها أدبا
مازال يطلق في أجوائنا شُهبا
وإن لي في ثرى كُثبانها نسا

ويستمر في وصف تاريخ القلعة وفارسها سيف الدولة ومعاركه وحروبه
مع الروم وصمود القلعة في وجه أعدائها ثم يعرج على وصف ما فيها من مبان
وساحات وملاعب تحكي قصة تاريخها ، بل إن أحجارها تكاد تنطق بما مر عليها
عبر زمانها الطويل .

هذه حلب المدينة العظيمة الشامخة التي امتدت على سفوح الدهر عروساً
جميلة تغنى بها كل من رآها أو آوى إلى حماها أو شرب من مائها . إنها عروس
الدهر الخالدة التي زين بها الدهر كتابه على مر القرون .

* * *

مراجع الكتاب

- ١- إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء - راغب الطباخ - دار القلم العربي - حلب .
- ٢- نهر الذهب في تاريخ حلب - كامل الغزي - دار القلم العربي - حلب .
- ٣- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب - ابن الشحنة .
- ٤- حلب عبر العصور - جورج بلوادوترو - مركز الإنماء الحضاري .
- ٥- تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء - تيودور بيشوف .
- ٦- أدباء من حلب ٣/أجزاء - إشراف د . أحمد زياد محبك - مطبعة الأصيل .
- ٧- حليبات - عبد الله يوركي حلاق - مطبعة الضاد .
- ٨- قلعة حلب - صبحي الصواف - دار الحضارة .
- ٩- قلعة حلب دليل اثري - د . شوقي شعث - وزارة الثقافة .
- ١٠- الأدب العربي المعاصر في سورية - سامي الكيالي - دار المعارف - مصر .
- ١١- محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب - سامي الكيالي - دار المعارف - مصر .

- ١٢- الحركة الفكرية في حلب - عائشة الدباغ - دار الفكر - حلب .
- ١٣- حلب من الجانب اللغوي - خير الدين الأسدي .
- ١٤- موسوعة حلب المقارنة - خير الدين الأسدي - مطبعة جامعة حلب .
- ١٥- من ينابيع التجديد - أمير ناشر النعم - دار فصلت - حلب .
- ١٦- من ذاكرة التمرد - د . محمود عكام - دار فصلت - حلب .
- ١٧- انكسارات - د . أحمد زياد محبك - دار المعرفة - بيروت .
- ١٨- مجلة الضاد لسنة ١٩٩٨ - مطبعة الضاد - العدد ١ .
- ١٩- عبد الله زاخر - د . جوزيف إلياس كحالة - مركز الإنماء الحضاري .
- ٢٠- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات) ، د . شوقي ضيف ، دار المغارف - مصر .
- ٢١- قلعة حلب في عيون الدهر - أحمد علي بابللي (مجموعة شعرية) .
- ٢٢- قصيدة عن حلب بقلم الأستاذ الشاعر خالد معدل .

الفهرس

الصفحة

الإهداء	٥
تقديم - بقلم الدكتور الشيخ محمود عكام	٧
مقدمة	١١
تمهيد: حلب في رحاب التاريخ	١٣
حلب في رحاب الأدب	٤٣
عبد الله زاخر	٧٠
رزق الله حسون	٧٤
فرنسيس مراش	٨٥
جبرائيل الدلال	٩٤
قسطنطين الحمصي	١٠٦
مريانا مراش	١١٥
عبد الله مراش	١١٩
أبو الهدى الصيادي	١٢٤
عبد الرحمن الكواكبي	١٣٢
ميخائيل الصقال	١٤٠
كامل الغزي	١٤٥
بشير الغزي	١٥٣
عبد المسيح الأنطاكي	١٦٥
راغب الطباخ	١٧١

١٧٦	خير الدين الأسدي
١٨٢	خليل هنداي
١٨٧	عمر أبو ريشة
٢٠١	عادل الغضبان
٢٠٦	عبد الله يوركي حلاق
٢١٦	عمر أبو قوس
٢٢٥	عمر بهاء الدين الأميري
٢٣٤	مختار فوزي النعال
٢٤٢	فاضل السباعي
٢٤٧	علي الزريق
٢٥٣	محمود فاخوري
٢٥٩	وليد إخلاصي
٢٦٧	د. محمود عكام
٢٧٨	خاتمة
٢٨٥	مراجع الكتاب

الطبعة الأولى / ٢٠١٠

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٠

سعر النسخة ١٨٠ ل.س أو ما يعادلها